شروخ فى المعبد

بقلم

عريان لبيب حنا

اسم الكتاب : **شروخ فى المعبد**

المؤلف : **عريان لبيب حنا**

الناشر : **المؤلف**

تاريخ النشر : **يونيو ٢٠٠١**

رقم الايداع بدار الكتب : ٢٠٠١/٨٧٧٢

اهــداء

إلى ....

الاستاذ توفيق الحكيم

والأستاذ نجيب محفوظ

والأستاذ ثروت أباظة

الذين سلموا " عريضة الكتاب " فى ٧ مارس ١٩٧٣ وبذلك أصبحوا يمثلون ضمير الأمة حيث أنهم أوضحوا فى العريضة أن الشباب يشعر بتمزق.

وإلى ....

الشيح محمد الذهبى

والدكتور فرج فودة

وهم شهداء مصر الذى عبروا عن رأيهم والذى يمثل " صيحة التنوير"

وإلى ....

الدكتور أحمد زويل

ممثلاً لأمل مصر فى التقدم العلمى لأنه صورة مشرفة لشبابنا الطموح لأنه قدم اكتشافاً علمياً يفيد البشرية وأعترف العالم بفضله فمنحه الجوائز العالمية.

وإلى ....

كل من يبنى ويضيف ويقود ابناء امتنا إلى النور مستكملين الحضارة التى كان أجدادنا هم أول من قدموها للعالم.

❀❀❀❀❀❀

نبذة عن المؤلف

١ – جائزة مسابقة مسرحيات عيد الثورة العاشر التى أعلنت عنها المؤسسة المصرية العامة لفنون المسرح والموسيقى (مسرحية : انتصار الحق).

٢ – جائزة مسابقة لجنة التاريخ والآثار عام ١٩٨٩ وموضوعها : "الشخصية المصرية فى ضوء مختارات من الفنون والآداب والعقائد المصرية القديمة (دراسة تاريخية وأثرية).

٣ – مؤلفات إذاعية منذ عام ١٩٦٣ ومنها تمثيليات لبابا شارو – حدوتة تحت التوتة – عيلة زغلول (إذاعة الشعب) دنيا العجائب (إذاعة القاهرة الكبرى).

٤ – مسرحيتان باللغة الإنجليزية نشرتا فى نيويورك عام ١٩٨٤ (التوازن المفقود – العم فيفا)

٥ – سيناريو الأرض الطيبة (عن قصة بيرل بك) تمت الموافقة عليه عام ١٩٩٥ ولازال حبيس الأدراج !!

٦ – ترجم العديد من الكتب لمصلحة الاستعلامات فى بداية حياته العملية.

٧ – عمل بالتربية والتعليم منذ تخرجه من قسم اللغة الإنجليزية آداب القاهرة عام ١٩٥٧ ثم بشركة أرامكو والهيئة الملكية بالسعودية.

٨ – يعمل بالارشاد السياحى منذ عام ١٩٩٠.

٩ – اشترك فى حرب ١٩٥٦ ضمن الحرس الوطنى الجامعى.

الشخصيات الرئيسية فى القصة

١ - **سعيد انطون المحامى** : يحب الحق ولكنه يسير فى طريق الأشواك ويتألم عندما يرى الشروخ تزداد.

٢ - **وفاء عبد الله** : نَفْس حائرة ممزقة فى مجتمع الأنانية والأسرار.

٣ - **عبد الله اسكندر** : مجروح فى عواطفه ولكنه لم يتخل عن واجبه.

٤ - **عزت القناوى** : ابن النيل الذى أدرك المتغيرات حوله وثبت على مبادئ وأخلاق القرية.

٥ - **عبد العزيز عمرو** : يعشق بلاده ويكره جماعات الطبل والزمر. وقلبه ملئ بالحب وأحكامه المتأنية تشع منها الحكمة والأمل.

٦ - **مهندس سيد حسانين** : عاش بأحاسيسه فترات اليأس والأمل.. ولم يجرفه تيار الثراء السريع لجماعة الوصوليين.

٧ - **صموئيل شحاته** : سليل الفلاح المصرى القديم الذى يعرف معنى الأرض السوداء وماء النيل يرويها وراية الأخلاق ترفرف على الوادى الأخضر.

٨ - **العميد محمد عبد الفتاح** : يجيد التسلق وقت الفوضى الاقتصادية ويعرف كيف يستفيد من الحراك الاجتماعى.

٩ - **إنجيل بقطر** : ضحية نذل فقد معنى الضمير والأخلاق ومعنى الخوف من الديَّان الأعظم.

١٠ - **فؤاد الملوانى** : أهتم بمتابعة الجذور العميقة فى الرباط الأسرى وفى التدين والأخلاق.

١١ - **سليم السبعاوى** : شاب أحس بظلم مجتمع القوة للفقراء - ويصرخ مع المظلومين ومع الغرباء فى أرضهم.

١٢ - **صافيناز المسيرى** : ارستقراطية تجرى فى دمائها رومانسية الحب الصافى وتطالب بحق بنات جنسها فى الحرية والحياة الكريمة.

١٣ - **عبد السيد حبيب** : من الطيور المهاجرة والذى كان حنينه إلى الوطن ملازماً له منذ هروبه مع عمه الذى عانى من الاضطهاد بتهمة الشيوعية.

١٤ - **رفيق محمد الدغيدى** : من الطيور المهاجرة والذى صاحب والده الثرى طفلا عندما أساء إليه العمدة المتغطرس. عاد رجلاً مستثمراً ومشاركاً فى البناء الحقيقى.

المحتويات

❀●❀●❀●❀●❀

صورة الغلاف والصور الصاحبة للفصول هدية من الفنان القدير الأستاذ/ مرقس أبسخرون بطرس

روايـــــة

"شروخ فى المــعبد"

الفصـــل الأول

(ليل طويل مقبض)

****

كان يوم ١٥ يونيو هو موعد جناز الأربعين بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة والدى وفى نفس الوقت يقابل مرور عشرة أيام على الهجوم الغادر على مصرنا العزيزة أرض الكنانة تدنسها أقدام عدو خسيس زرعته قوى الامبريالية لكى يكون شوكة دائمة فى جنبنا يكدر صفو حياتنا ويستنزف مواردنا ويعطل طاقتنا ويشل حركتنا. وبدلاً من انفاق أموالنا على البنية الأساسية وعلى تدعيم اقتصادنا فإننا ننفقها على التسلح والاستعداد للحرب بصورة دائمة، وقد أراد أعدائنا ذلك.

كانت الكآبة تخيم على البلاد بأكملها بل على الوطن العربى الذى وجد فجأة اخطبوط الدمار يمد أقدامه الطويلة إلى داخل سيناء الغالية وإلى هضبة الجولان وإلى أرض فلسطين الحبيبة بأكملها... وكان الحزن يسيطر على أسرتنا الصغيرة التى فقدت عائلها فى ظروف غير مواتية بتاتا. فأنا فى السنة النهائية بكلية الحقوق والأختان اللتان تكبرانى مخطوبتان وعلى وشك إتمام الزفاف. وهذا الوضع الأسرى لا يفارق مخيلتى حتى وأنا أقف على باب الكنيسة أتلقى العزاء. ولم يحضر أحد من أعمامى أو عماتى رغم أننى ذهبت إلى منزلهم يوم الوفاة ظهراً، وأبلغت عمتى التى استقبلتنى عند باب الشقة بفتور غريب ولم تنطق بكلمة تعزية واحدة بل أخبرتنى أن عمى الكبير مسافر إلى الإسكندرية.

وأثناء الصلاة كانت عينى تقع على صورة والدى وهو يرتدى البدلة، فقد ترك والدى زية البلدى منذ أن انتقلنا إلى شقتنا الحالية منذ عامين تقريباً.. فقد أحس بتوسلات إخواتى البنات بضرورة شراء بدلة أخرى وأن يتخلص من الزى البلدى نهائياً حتى يتعود السكان المحيطين بنا فى شقتنا الجديدة على هذه الصورة خصوصاً أن أختى قد انتهين من

دراستهن الجامعية، وكانتا تأملان أن يرى الخُطّابْ والدى فى هذا الزى الأمريكى. ورغم أنه كان يعتز بملبسه البلدى عندما كنا نسكن بمنزلنا الذى نمتلكه، وكان يرتدى البدلة يوم الأحد فقط عند ذهابه للكنيسة وعند القيام بزيارة الأصدقاء أو الأقارب بعد ظهر يوم الأحد، إلا أنه اقتنع بوجهة نظر الأختين خصوصاً أنهن على وشك الخطوبة والزواج.

وتريدان أن يرى خطابهن والدهن فى صورة الأفندى أى مرتدياً بدلة، وكان والدى يرتدى "كسكته" مثل توفيق الحكيم لأن رأسه المكشوفة لم تكن تتحمل الشمس أو الهواء البارد... وكانت الصلوات والترحمات تتلى وأنا غير منصت تماماً لأن شريط حياته كان يمر أمام مخيلتى... وأتذكر بعض كلماته لنا :

هو : أنا ماليش إخوات يزورونى.. لكن البركة فيكم يأولادى.... ربنا عوضنى بيكم... (ويتنهد) وأنتوا اللى حاتشيلوا صندوقى على أكتافكم.

نحن : احنا ما ننساش كل تضحياتك علشانا.. وكفاية إنك علمتنا تعليم عالى.

هو : أنا أتحرمت من التعليم.. واشتغلت صبى واتمرمطت وأنا سنى سبع سنين.

نحن : عارفين يا بابا بتعبك.. وربنا يديلك الصحة يابابا.. وتعيشلنا وترعانا دايماً.

هو : وأدينى صممت بأنى أديكم فرصة التعليم اللى أنا الوحيد – دون عن بقية إخواتى – اتحرمت منه (وكانت عيناه تغرورقتان بالدموع وهو يردد) حتى العطف اتحرمت منه.. عمرى ما حسيت بعطف أبويا ولا أمى.

نحن : أحنا ما ننساش عطفك علينا وأديتنا الحب والحنان.. وما بخلتش علينا بالفلوس.

هو : صحيح أنا مش غنى.. لكن أنا ما كنتش بخيل معاكم ابداً.. وأديتكم اللى كان فى إمكانى.

وبعد الانتهاء من مراسم العزاء.. اتجهنا جميعاً إلى شقتنا، فأقترب منى الأسطى إبراهيم وقدم لى ظرفاً به ثلاثون جنيهاً وقال :

– دول إيراد المحل يأستاذ سعيد.. وزى ما عم أنطون ما كان معودنى.. كنت بأسجل الدخل والمنصرف.. وكنت بأجيبهمله طول فترة مرضه.

– كتر خيرك يا إبراهيم.. أنت استمر زى ما أنت كنت بتعمل.. سجل كل حاجة.. وخد يوميتك وتدى للعمال التانيين وكمان للصبى يومياتهم. وتجيب الباقى لى.. أو أنا أبقى أجيلك المحل وآخد الفلوس.

– لا.. لا.. ما تتعبش نفسك.. أنت عندك مذاكرتك.. وأنا حأجيبلك كل حاجة وعندما عدنا للمنزل أنا ووالدتى وأخى الصغير فادى وسنية ووداد وخطابهن مسعد وسامى مع بعض الأقارب المقربين لنا، جلسنا فى الصالة. واقترب منى خالى وقال هامساً :

– بأقولك إيه يا سعيد ؟

– أيوة يا خالى.

– أنا رأيى أنك ما تعطلش فرح أختك سنية الشهر الجاى.. خليه يتم فى ميعاده جواز البنات سُتره يا بنى.

– وأنا متفق معاك فى كده يا خالى.. وأنت عارف إن أنا مخى مش مقفول.. بس هل يا ترى الجيش مش حايستدعى مسعد ؟

– هو ده الخوف فعلاً.. وأنا سمعت إنهم حايستدعوا الاحتياطى.

وأثناء جلوسنا سوياً على مائدة العشاء هز مسعد رأسه وقال بلهجة تنم عن الضيق والحزن :

– ياترى إمتى يا سنية حانقعد سوا زى كده ؟

– بتقول كده ليه يا مسعد ؟

– أنا جالى استدعاء من الجيش وحأروح بعد بكره.

– يمكن ده إجراء روتينى.. مش لازم يعنى يا خدوك.

– دول لازم يا خدونى (وحَوّل وجهه نحو سامى وقال) ياترى جالك استدعاء يا سامى؟

– مش عارف يا مسعد..

– أزاى بقى ؟

– أنا كاتب عنوانى على أسيوط.. وربما استدعونى هناك.

– ربما ؟ هو أنت مش عارف استدعوك وألا لا ؟

– أصل مافيش حد فى البيت فى أسيوط اليومين دول.. لأن أختى اللى فى أسنا على وشك الولادة... وبابا وماما راحوا عندها.

ونظرت والدتى إلينا نظرة تعبر عن قلقها وقالت :

– هو احنا حرام إننا نفرح يعنى ؟

فردت سنية :

– مش ملاحظة ياماما إن دايماً لنا حاجة تبوظ علينا فرحتنا ؟

– ما تاخديش فى بالك يا بنتى (وتنهدت سنية بعمق وقالت)

– يوم الثانوية العامة... رجلى انكسرت.. ويوم البكالوريوس.. الشقة ولعت.. فاكره يا ماما .

– فاكره يا حبيبتى.. حتى ولادتك يا سنية كانت متعسرة.. أنا متهيئ لى إننا معمول لنا عمل بالعكوسات (فرد مسعد).

– عَملْ إيه بس يا طانت ؟ ها نعمل زى الناس الجهلة ؟

– مش عارفة ليه يا مسعد.. إن إحنا كل حياتنا صدمات ؟

– ليه نفتكر بس الحاجات الوحشة.. ضرورى كان فيه حاجات حلوة.. وهى الحياة كدة.. فيها الحلو والمر.

– بأقولكم إيه يا أولاد..كل واحد فيكم ياخد خطيبته بعد العشا وتبعدوا عن جو الكآبة وتروحوا تناقشوا مشاكلكم فى مكان هادئ.

وحضر الأستاذ عزت صاحب العمارة مع المهندس سيد حسانين فأخذتهما إلى البلكونة، وتطرق حديثنا إلى الدروس التى نتعلمها من الموت، وأنه يكفى بأنه ناقوس يدق لكى لا ننسى بأن "غداً.. القيامة" ثم تطرق الحديث إلى أحوال البلاد فى ظل كابوس الليل المظلم الطويل وفجأة قال سعيد :

– يا ترى الليل اللى أحنا عايشين فيه حا ينتهى إمتى ؟

– وتنهد الأستاذ عزت وقال :

– أنا خايف أن اليأس يحطمنا.. ويفقدنا التفكير السليم.

– هو عاد فيه تفكير خالص يا أستاذ عزت ؟ ورينى بارقه أمل واحدة.

– بلاش استسلام يا سيد.. التاريخ علمنا بإننا بنمر بفترات هبوط.. ويبتبعها فترات صعود.. من أول ما أحتل الهكسوس بلدنا.

– كام مستعمر احتل بلدنا؟ هو احنا مكتوب علينا الاحتلال ؟

– أرضنا الغنية يا جماعة دايماً كانت مطمع للغزاه.. الآشورين – الفرس – البطالمة وبعدهم الرومان .. العرب .. العثمانين وآخرهم الإنجليز.

ورغم محاولتى عدم التدخل فى الحديث لإننى كنت فى غاية الحزن على والدى.. فلقد كانت حياته سلسلة متصلة من المعاناة والألم والمرض لفترات طويلة، فإذا بى أقوم بالتعليق :

– هزيمتنا هزيمة لكل العرب.. ونفس العرب بيعتبروا جمال عبد الناصر زعيماً عربياً أكثر منه رئيساً لجمهورية مصر.. ونفس الغرب بيعتبروه صلاح الدين القرن العشرين (ودارت التعليقات التالية كردود مباشرة).

– وهى دى النغمة التى لعبت عليها إسرائيل عشان تستقطب الغرب وتخليهم يمدوها بالسلاح وبالمعونات.

– بالضبط .. هو ده فعلاً كان الوتر اللى بتضرب عليه إسرائيل.

– ما هو لما حا تقول بأنها حامية النفوذ الأمريكى فى الشرق الأوسط.. لازم حاترضع من لبن وعطف ومساندة بل وتحيز "ماما أمريكا" تحيزاً تاماً لها ولكل طلباتها.

****

لقد كان الضيق يخنقنى ولم أنعم بطعم النوم حتى كاد الفجر أن يقترب فتركت مخدعى وجلست فى البلكونة وحدى، وتركت القلم يسطر ما يجيش فى صدرى من أحساسيس جياشة تعبر عن ضيقى :

" ما أقسى الليل الذى يحرمنا من نور الأمل والاشراقة الجميلة التى تنير لنا الطريق.

ما أقسى الليل وهو يحرمنا من رؤية الطريق ومن القدرة على الحركة.

ما أقسى الليل وهو يتركنا نتجرع كأس الذل والهوان والهزيمة القاسية.

ما أقسى الليل وهو يرخى سدوله على كل مباهج الخضرة والنضارة.

ما أقسى الليل وهو يترك طيور الظلام تعيث فى الأرض فسادا.

ما أقسى الليل وهو يتركنا نهبا للهواجس والمخاوف والقلق والكوابيس.
ما أقسى الليل الذى يهرع فيه الآمنون إلى داخل البيوت وتزأر حولها الوحوش.
ما أقسى الليل الذى يبدد الأحلام الوردية ويحرمنا حتى من ضوء القمر الحالم.
ما أقسى الليل الذى يغلف الكون بالسواد وينشر الظلام داخل عقول الأعداء.
ما أقسى الليل الذى لا يعير اهتماماً للمشاعر الإنسانية الحساسة ويتركها نهبا للمفسدين.
ما أقسى الليل الذى أصم الآذان عن صوت الكروان والموسيقى الهادئة.
رحمة بنا يا ليل.. إرحل عنا.. لكى تأتينا إشراقة الصباح المبهجة.

****

إننى أترك قلمى يقطر مداداً أسوداً، كتبت به هذه السطور.. وأترك قلبى ينزف دما بعد أن طعنه الأعداء الذين يتربصون بنا ولا يريدون الخير لنا..

وأترك للتاريخ أن يسجل تلك اللحظات التى لا يمكن أن تنسى.. والتاريخ هو الذاكرة التى ترشدنا إلى الحقائق لكى نفيق ونواجهها... وقد فتحت مذكرتى على صفحة مبللة بالدموع لكى أسجل الحقائق التاريخية تحت عنوان "أذكر يا تاريخ" .

"يبدأ هذا الليل الطويل المقبض الذى ألقى بظلاله على كافة نواحى الحياة يوم ٩ يونيو سنة ١٩٦٧، فقد أدركنا جميعاً الحقيقة المرة التى لم نكن نصدقها فى البداية، وكان الجهاز الإعلامى قد قام بدور غريب جانبهم فيه التوفيق : كان صوت أحمد سعيد يجلجل من الإذاعة من محطة صوت العرب "هيا يا عرب.. لقد أتى يومكم.. يوم العزة والكرامة.. يوم الثأر.. هيا يا جنودنا البواسل تقدموا.. حطموا.. دمروا قوى العدو الباغى.. وقوى الغدر الغاشمة" وأخذ "صوت فلسطين" من القاهرة يلهب مشاعر الجميع بأناشيده الوطنية مثل "عائدون.. عائدون" والإذاعة المصرية تردد أغانى الحرب الحماسية مثل "الله أكبر.. الله أكبر فوق كيد المعتدى" وصوت عبد الوهاب يجلجل "والله زمان يا سلاحى اشتقت لك فى كفاحى" ونجاح سلام تهلل "عبد الناصر يا جمال" إلى آخره من الأناشيد الحماسية.. وكان الشعب معبء تماماً لمعركة النصر.. وكان الناس واثقين بأنهم لمنتصرين على العدوان مثلما انتصرنا ضد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ لأن روسيا كانت تسبب لهم رعباً

وأمريكا لم توافق على العدوان الثلاثى.. وكانت أحداث ما قبل المعركة شاخصة أمامنا.. لقد نسى العرب خلافاتهم الشخصية وأتى الملك حسين بطائرته لينضم إلى الإخوة العرب وعفا الله عما سلف، وتجمع العرب فى خندق واحد.. فقد أتى يوم الكفاح.. كفاح الإخوة.. كفاح أمة العرب.. فقد أثرت كتابات ساطع الحصرى وأمثاله عن القومية العربية تأثيراً كبيراً على المواطنين.

كان صوت جلال معوض وهو يلعن أمريكا ومؤامراتها ضد مصر والعرب له تأثيره السحرى فصوت جلال معوض أجش ومُعّبر.. وهو الذى وضع جسمه ساتراً للرئيس يوم مؤامرة المنشية عام ١٩٥٤ بالإسكندرية عندما أطلق أحد المتآمرين رصاص مسدسه صوب جمال عبد الناصر. ولكن كان هناك همس بين الناس عندما بدأ الهجوم على أمريكا يوم ٧ يونيو... وتساءل الناس ماذا ياترى هناك؟

لماذا نهاجم أمريكا الآن ؟ فالناس لديها حساً عالياً يستشعرون به ما وراء الأحداث.. لقد كانت البيانات العسكرية تجعل الناس ترقص فى الشوارع فقد أرتفع عدد الطائرات التى سقطت حتى نهاية يوم ٥ يونيو إلى ١٢٨ طائرة وكان الناس يهنئون بعضهم على هذا النصر. ونام معظم الناس وقتاً قليلاً بالليل واستيقظوا يسألون كم عدد الطائرات التى سقطت.. وتوقعوا أن تكون تل أبيب قد سقطت.. إذ أن هناك ثلاث جبهات مفتوحة ضد إسرائيل الجبهة المصرية والجبهة السورية والجبهة الفلسطينية الاردنية، وكان عبد المنعم رياض هو قائد الجبهة فى الضفة الغربية وهو جندى ممتاز معروف بكفاءته الحربية.. وكان هناك تساؤل وتشكك فى البيانات بسبب التناقضات بين ما تذيعه القاهرة وما تذيعه المحطات الأجنبية وبالذات صوت أمريكا والأذاعة البريطانية.. واعتقد الناس أن الإذاعات الأجنبية متحيزة وأنهم يهولون بإذاعتهم سقوط العريش وبعض المواقع الامامية فى ايدى العدو.. ولكن البيان العسكرى المصرى بأنتقال قواتنا إلى الخط الدفاعى الثانى جعل الناس تتوجس الشر ورددوا نغمة غريبة مفادها بأن الجيش فطن إلى خطة العدو – أمريكا والامبريالية وإسرائيل – فى الأطباق على قواتنا فى سيناء.. وأنه انسحب مرة أخرى مثلما فعل عام ١٩٥٦.. كانت قواتنا مضطرة للانسحاب من سيناء عام ١٩٥٦ لإننا كنا نواجه دولتين عظمتين بالإضافة إلى إسرائيل وكان من الحكمة سحب قواتنا من

المناطق المكشوفة للطيران البريطانى والفرنسى.. أما الآن فما معنى الانسحاب أمام إسرائيل فقط ؟

ساد الغموض وساورت الشكوك الناس من مختلف الطوائف فوقت الشدة تظهر الروح الوطنية ظهوراً واضحاً.. وينسى الناس انتقاداتهم للإدارة الحكومية ويقفوا صفاً واحداً ضد العدو.. وكان ما يقلق الناس هو الاختلاف فيما يذاع ولا يعرفون من الذى يذيع الحقيقة ومن الذى يغالى.. وبعد وقف اطلاق النار أعلن الراديو بأن الرئيس جمال عبد الناصر سيوجه خطاباً إلى الشعب المصرى والى الأمة العربية كلها.. وجلس الكثيرون بجوار التليفزيون والراديو فى انتظار هذا الخطاب الهام.. وكان معظم الناس يجلسون مجتمعين أمام التليفزيون أو بجوار الراديو ويتحدثون سوياً عما سيكون عليه الحال.. ماذا يا ترى فى الحديث ؟ هل هناك انذارات روسية للمعتدين ؟ هل هناك أسلحة سرية سيستخدمها ؟ هل هناك نية الاستمرار فى الحرب بعد فترة التقاط الأنفاس ؟

وتلقى الشعب صدمتين عندما سمعوا خطاب التنحى.. فكان الخطاب يتضمن خبرين هزا وجدان الجميع وهما : أن الأمة العربية تعرضت لنكسة وأن الرئيس تنحى عن موقعه لكى يشغله زكريا محى الدين ويكمل المشوار. وكان الناس يعرفون بأنه كان مقرراً أن يسافر زكريا محى الدين للولايات المتحدة فى غضون العشرة أيام الأولى من يونيو.. وقال بعض الناس أن أمريكا ترضى عنه.. وبينما سيطر الوجوم على الجالسين معى أمام التليفزيون فى شقة المهندس سيد حسانين.. سمعنا فجأة طلقات المدافع القوية.. ونزلنا جميعاً إلى الدور السفلى.. ونزل كل سكان العمارة معنا.. وتحرك بعضنا إلى مدخل العمارة ودفعنا حب الاستطلاع إلى أن ننظر إلى السماء لنرى الطائرات.. ولاحظنا بأن الأضواء المنبثقة من انفجار دانات المدافع كانت فى كل مكان وعلى شكل دائرة كاملة من النور.. وكأن تفكيرها بصوت عالى فصاح البعض هل معقول أن تأتى الطائرات من كل الاتجاهات فى وقت واحد ؟ وعرفنا فيما بعد بأن الحكومة خشيت من تحرك المنحرفين اثناء الليل أو حدوث أى مظاهرات وتعم الفوضى وتحدث سرقات أو تعدى على الممتلكات لذلك اطلقت المدافع نيرانها الكثيفة حتى يدخل الجميع إلى بيوتهم".

وأمضيت يومين متتاليين تتنابنى الهواجس والمخاوف.. وكان يزداد ضيقى عندما أنظر إلى سنية ووداد، فلم ينقطعا عن البكاء منذ تم تجنيد مسعد وبعده سامى عندما عرف بأنه كان هناك استدعاء ايضاً على عنوانه بأسيوط.. وكانت الاختان تتمتمان "يا داخل مفقود يا خارج مولود".. وهذه هى الفكرة عن التجنيد.. خصوصاً أننا تعرضنا لحرب مباغته.. وتم احتلال جزء من أراضينا.. ولا يمكن أن نسكت على هذا الوضع.. إذن لابد من وجود معركة أخرى وربما معارك أخرى.. من يعرف ؟وحتى والدتى لم تستطيع تهدئتهما وكانتا ترددان كلمات اليأس وكانتا تعلقان عن حالتهما :

– جت الحزينة تفرح مالقتلهاش مطرح.

– ما عندناش حاجة نعملها غير إننا نحط إيدينا على خدنا ونعيط.

وبعد أسبوع من النوم المتقطع أغمضت عينى ومر أمام مخيلتى شريط الأحداث الأسرية والذى سبق يوم العدوان السافر بشهر بالضبط.. فلن أنسى يوم ٥ مايو ١٩٦٧ الذى انتقل فيه والدى إلى الأمجاد السماوية بعد ثلاثة أسابيع من الصراع المرير مع المرض فقد فاجئته "كرشة النَفْس" وأحضرت طبيباً قريب من منزلنا وفحصه جيداً ثم هز رأسه وسألنا :

– تعرفوا دكتور بيشتغل فى القصر العينى أو الدمرداش ؟

– ليه يا دكتور ؟

– الحالة اللى عنده اسمها "تيموسوركس" ولازم تتوصل له من جهاز موجود فى القصر العينى وفى الدمرداش فقط.

– أعرف الدكتورة سلينة ابنه عم والدتى.. وهى نائبة هناك فى القصر العينى.

– روحلها الليلة عشان تجيبلك أمر بدخول المستشفى فوراً.

وتم ادخال والدى القصر العينى.. وتمت اجراءات العلاج وأبلغنا أقاربنا فحضر القليلون جداً.. وسألت والدتى عن سبب هذا الجفاء الأسرى فردت :

– ستك قاطعت أبوك من سنة ١٩٤٤ لما أنا سافرت القدس مع خالك..

وأخذت على خاطرها من أبوك وقالتلــه "ازاى يا أنطون تسفْر "أتيناه" مراتك وماتسفرش أمك اللى تعبت فى تربيتك ؟

– وليه بابا ماسفرش ستى معاكى ؟

– أنا يابنى بعت الكردان بتاعى وسافرت بثمنه.. كمان ستك كانت عايشه مع أعمامك وعماتك وجدك.. ما دفعولهاش هم ليها ليه ؟

– صحيح مادفعوش ليه ؟

– العين كانت باصة لأبوك يا سعيد.. لأن ازاى هو يتجوز والباقى ما اتجوزوش ؟

– عجيبة.. هو مش اشتغل وهو طفل.. وزى ما قلتيلى اتمرمط وتعب وقاسى كتير ؟

– ورغم إنه ما اتعلمش .. وكافح وعلمكم أنتوا.

– يعنى سبب الجفاء والقطيعة هو عدم تسفير والدته للقدس ؟

– ده كان ضمن الأسباب يا بنى.

– وإيه هى الأسباب الثانية ؟

– جدك الله يرحمه قام بدور غريب.. خلى الاخوات يكرهوا بعض.

– عمل إيه يعنى ؟

– كان بينقل كلام بينا وبينهم.. والكلمة التافهة كان يترد عليها منهم.. وأحنا نرد عليهم.. والنفوس بتشيل.. لدرجة أن يوم وفاة جدك ماجوش يبلغونا بالوفاة!!

****

ورن جرس الباب فأفقت من تداعى الخواطر.. وذهبت لفتح الباب وكان المهندس سيد حسانين قد حضر لكى يقترض منا بعض الزيت.. وعلق بسخرية :

– آدى البداية يا سعيد.. حا تنقص المواد التموينية أكتر ما هى ناقصة.

– ما حنا قلنا الكلام ده يوم التنحى لما نزلنا نستخبى فى الجراج.

– فاكر يا سعيد كل اللى قاله الناس ساعتها ؟

وتنهدت ومر أمام مخيلتى كل ما دار وقتها :

هناك جراج خالى تحت العمارة التى تقع أمام عمارتنا.. واقترح البعض أن نمكث فى الجراج بدلا من الطلوع إلى شققنا ثم النزول مسرعين عند سماع أصوات المدافع.. وفعلاً جلسنا على الحصير الذى كان ينام عليه حراس العمارة لأن العمارة كانت تحت التشييد.. كنا فى حالة نفسية غريبة لأنها خليط من اهتزاز الثقة وفقدان الأمل وعدم تصديق وضيق

وغليان داخلى وكان بعضنا ينفخ من الغيظ وآخرون يخبطون كفا على كف وآخرون يتساءلون دون انتظار اجابة "معقول ده؟" أيه الحكاية ؟.. اتهزمنا من إسرائيل؟ "ثم بدأنا نسيطر على أنفسنا وعلى تفكيرنا.. وهذا أعطى الفرصة لنقاش مثمر ومحدد الاتجاه وقد بدأه الاستاذ عزت الاسناوى وهو صاحب العمارة التى نسكنها وهو من أعيان قنا لأنه يملك عزبة هناك وهو الذى احضر عبد المسيح بواب العمارة من قنا ليعمل عنده فقد قال :

– أحنا كنا متوقعين أن فيه مؤامرة ضد عبد الناصر بالذات ومعاه مصر ومعاه كمان الأمة العربية كلها.

ورد البعض تلقائياً " طيب ليه ؟ عبد الناصر عملهم إيه ؟ فرد الأستاذ عزت – عبد الناصر جمع الأمة العربية تحت راية القومية العربية وده خطر على مصالح الدول الاستعمارية وعلى إسرائيل بالذات.

ثم دار الحديث عن المعركة وكان تساؤل المهندس سيد حسانين وهو شاب حديث الزواج.. وتزوج بعد أن انتهى من فترة التجنيد الاجبارى.. وكان يهتم بالأسلحة وتكتيك المعركة والدفاع المدنى حتى أن بعضنا كان يسميه الجنرال سيد حسانين لأنه كان يشرح المعارك التى يحكيها بالتفصيل وكأنه يلقى محاضرة على طلبة الكلية الحربية. وهنا قال سيد :

– احنا دخلنا المعركة واحنا مش مستعدين ليها.. ازاى نحارب وأحسن قواتنا المدربة فى اليمن ؟ كان مفروض نسحب قواتنا ونعمل الاستحكمات قبل ما نبتدى المعركة.

فرد عليه النقيب محمد عبد الفتاح وهو نقيب شرطة :

– أعتقد إننا ماكناش متوقعين إننا نخش الحرب.

– يعنى الموضوع كان تهويش وبس ؟

– بالضبط كده.. وكان عبد الناصر متوقع أن أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة أنه يرفض طلب المشير عامر بسحب قوات الأمم المتحدة من الحدود بين مصر وإسرائيل.. لكن أوثانت اصدر أوامره بسحب قوات الأمم المتحدة وبكدة أصبحنا فى مواجهة فعلية.

– طب ليه إحنا صعدنا الموقف بقفل مضيق تيران فى خليج العقبة ؟

– أعتقد أنه كان استكمال للمناورة السياسية.

– طب ليه الطيران المصرى ماطلعش يشتبك مع الطائرات المعادية ؟

– ما أحنا ما نعرفش بالضبط ايه اللى حصل.. بس اللى أحنا عرفناه هو أن طيارة المشير كانت فى الجو وقت الغارة الأولى فى أول مايو.

– وطبعاً كان فيه أوامر بعدم اطلاق المدافع المضادة خوفاً من تعرض طائرته لنيران المدافع المضادة.

وتدخل الأستاذ عزت الاسناوى فى النقاش بقوله :

– القيادة السياسية وقعت فى اخطاء كثيرة.. واكبر خطأ هو دخول قواتنا فى حرب اليمن.. ومات شبابنا فى قضية لا تهمنا.. وحتى سكان اليمن ماكانوش عارفين سبب الحرب.

فجاء دورى فى دخول النقاش الذى يعبر عن التساؤلات داخلنا فقلت :

– ما تنساش أن دخول اليمن كان رد فعل انفعالى نتيجة فشل الوحدة بين مصر وسوريا.. وكان بسبب موقف السعودية من جمال عبد الناصر.

– هو فعلاً سوء التفاهم بين عبد الناصر والملك فيصل كان زايد قوى.. فاكر لما عبد الناصر قال عن الملك فيصل : دأنا انتفله ذقنة شعرة شعرة.

– وقال عن الملك حسين "ابن زين" ؟

– طبعاً فاكر.. بس ضرورى أن فيه حاجات كبيرة افقدته ضبط النفس... وخليته ينفعل بعد لما لقى الحرب من العرب ضده.. مش مكفيهم الصراع مع إسرائيل.

وقطع هذه المناقشات حضور عبد السميع بواب عمارتنا وقال وهو فرحان :

– زكريا مجى الدين رفض أنه يتولى السلطة.. يبقى عبد الناصر حايقعد.. وأحنا كنا حانبقى يتامى من غير جمال عبد الناصر.

ثم مرت مظاهرة شبابية تهتف "حا نحارب.. حانحارب" "أنت قائدنا وزعيمنا يا ناصر". "وراك إلى النصر يا جمال" وكان الكثير منهم يرتدى ملابس منظمات الشباب ذات اللون السماوى.. وسار معهم بعض الشباب عندما عرفوا بأنهم سيذهبون لبيت عبد الناصر، ويمكثون هناك إلى أن يعدل عن الأستقالة.

– شايف الشباب رافض الاستسلام.

– ما تطلع يا سيد نقعد سوا فى البلكونة.. وحأعملك شاى مضبوط.

– لا أنا عايز قهوة عشان أفوق.. ولازم كلنا نفوق.

وطلع سيد حسانين إلى بلكونتى وجلسنا ننظر لبعضنا بعض دقائق دون تحدث ثم قال فجأة :

– إيه مصيرنا جميعاً بعد النكسة.. مصير مصر.. ومصير سوريا ومصير الاردن والضفة الغربية وغزة.. بل مصير الأمة العربية كلها ؟

– قطعا كان فيه مخطط محكم التدبير ضد النزعات التحررية فى العالم العربى واللى بيمثلها جمال عبد الناصر.

– طبعاً لأنه هو الرمز وهم عايزين يحطموا الرمز.. عايزين الرمز ينهار.. فتنهار احلام انصار الوحدة العربية.

– أنا اللى مش فاهمه.. ليه روسيا بلغت سوريا بوجود مؤمرة ضدها.. وليه سوريا بلغتنا بكده ؟

– السياسة لعبة قذرة.. ومعظم القاذورات بتدور فى الخفاء.. واللى بيظهر على السطح حاجات ضئيلة.. وبتكون كمان مغلفة بسولفان.

– هم الدبلوماسيين مش بيسلموا أعلان الحرب لبعض وهم بيبتسموا ؟

– الدبلوماسية ليها رجالها. والحرب ليها رجال والسلم له رجاله. والاقتصاد له رجاله.. والدعاية ليها رجالها.

– آه.. آه على اللى بيحصل حوالينا.. والناس أحيانا بتدرك الواقع وأحيانا بتخدعها الدعايات..وآدى روسيا ما عملتلناش حاجة.. روسيا من ساعة أزمة الصواريخ فى كوبا عام ١٩٦٢ كشفت بأنها غير مستعدة للدخول فى حرب نووية ضد الغرب.

– يعنى أحنا مكتوب علينا إننا نعيش فى كابوس.. الليل المظلم الطويل ؟

ورغم أن صفارة الأمان دوت وأنار الخفير نور الجراج.. وتنهد الجميع تعبيراً عن ارتياحهم لنهاية الغارة ولكن لم يتحرك أحد من مكانه ونظرت حولى فوجدت عاملاً ينفض التراب عن بنطلونه الأصفر، وشاباً مرتدياً بيجامة مخططة يساعد أبيه العجوز على

الوقوف. وكان الأب بجلباب النوم ويضع على رأسه طاقية صوف لكى يدفئ رأسه أثناء النوم. واستند العجوز على ابنه لكى يرتدى الشبشب "الزنوبة" ....

وكان المهندس سيد حسانين مرتدياً فردتين لحذائين مختلفين إحداهما بنية اللون والأخرى سوداء.. فقد كان يرتدى ملابسه بسرعة ولم يكن الضوء كافياً. أما الأستاذ عزت صاحب العمارة فقد كان بزية الصعيدى أى بالجلباب الواسع الذى يستخدمه فى الخروج فى القرية بالذات.. وكان الحذاء غير مربوط بالرباط لأنه لم يهتم إلا بوضع قدمه بسرعه داخل الحذاء.. لكى يهرول إلى الدور الأرضى ومنه إلى الجراج. وفجأة صاح أحد الجالسين :

– يا أخوانى أنا مش قادر أقوم.. رجلى بتترعش.. ومش حأقدر أمشى عليها لأنها مش شايلانى.. أنا جرالى إيه ؟

– أمال العساكر اللى فى الجبهة بيعملوا إيه؟ قوم يا راجل بلاش دلع !!

– يلله بينا بسرعة يا جماعة.. ننام لنا شوية قبل الغارة الجاية.

– تف من بقك ياراجل.

وأقترب دوى بعض الشباب من الشارع الرئيسى.. وكان معظمهم يرتدون ملابس منظمات الشباب ويصيحون " حا نحارب.. حا نحارب" فنظر إليهم الرجل العجوز وقال :

– طب ما حاربتوش ليه ؟ .. وهى دى ما كانتش حرب وإلا إيه يا شباب ؟

وبعد ذلك تركنى سيد وذهبت لأنام.. ولكنى لم أنم طول الليل... لأن التفكير فى أوضاعنا وفى مصيرنا وفى مشاكلى الأسرية وفى مشاكلى فى العمل.. كل هذه تجمعت سوياً.. ولما لا ؟ أليست كل هذه المسائل تؤثر على بعضها؟.. أن شراء الأسلحة معناه زيادة الديون وتجهيز وتدريب قوات كبيرة استعداداً لمعركة قادمة من أجل تحرير الأرض التى احتلها العدو معناه تعطيل طاقة الشباب الانتاجية لأنه سيتدرب عسكرياً بدلاً من العمل فى الانتاج سواء فى المصنع أو الحقل أو الخدمات الانتاجية.. ومصيرنا الآن غير واضح.. فنحن لا نعرف حجم الخسارة وهل سنعوضها أم لا... والاستعداد للحرب معناه تعطل الشباب عن ممارسة حياته الاجتماعية.. ولدى أختان مخطوبتان.. أما العمل فله قصة أخرى فالوظيفة الحكومية مضمونة الدخل أول الشهر ولكنه الدخل المحدود جداً..

وإذا كنت اتطلع إلى بناء مستقبلى وأحقق طموحى بالحصول على دخل مناسب بل وطموحى بتحقيق شقة بها الأدوات الكهربائية حتى تقبلنى العروس التى تطرق باب قلبى وتدفعه وتفتحه وتسكن داخله..

ولكن هذه الخطوة أتردد أمامها كثيراً لأن المجال الاقتصادى سيتأثر بالطبع ولابد من توقع فترة كساد طويلة وفترة معاناة أخرى تسببت فيها النكسة.. وهذا ما يجعلنى أعتبر أنفسنا فى بداية ليل طويل يصاحبه اليأس والقلق وهو فعلاً وقت عصيب للأمة ولكل طوائف الشعب. وكلما فكرت فيه زاد انقباضى والسؤال الذى نسأله الآن : متى يا ترى ينقشع الظلام وتنير شمس الأمل طريقنا مرة أخرى.

وأمسكت القلم وفتحت الجزء الخاص بما أكتبه تحت عنوان "اذكر يا تاريخ" وسجلت الآتى :

"ونزولاً على رغبة الجماهير استمر عبد الناصر فى الحكم... وقد كان التمسك بعبد الناصر يساوى رفضنا للهزيمة.. وكان أبسط البسطاء يدركون بأن القوى العظمى تحارب عبد الناصر لأنه أصبح رمزاً لبعث القومية العربية وأملاً لتحقيق احلام الأمة العربية بأن تصبح قوة مؤثرة فى السياسة الدولية وأن تستعيد هيبتها التى كانت لها أيام كانت أمة واحدة قوية.. إننا نأمل فى قوة ووحدة العرب فى مواجهة القوى الامبريالية مهما تغير اسمها....

والسياسة الدولية سياسة مصالح متبادلة لذلك كانت الولايات المتحدة تؤازر ثورتنا الوطنية ضد الاحتلال الإنجليزى ووقفت معنا فى حرب ١٩٥٦ مؤيدة سياسة عدم اللجوء للقوة عند تأميم شركة قنال السويس لأن مصلحتها كانت تتمشى مع إنهاء النفوذ البريطانى والفرنسى فى الشرق الأوسط.. وكانت الحركات التحررية فى أفريقيا وفى آسيا تتمشى مع مصلحتها الذاتية.. فالولايات المتحدة تعتبر نفسها وريث النفوذ الغربى.. ولولا ضرورة وحدة الدول الغربية بزعامة أمريكا ضد الاتحاد السوفيتى وضد انتشار الشيوعية لأعلنت أمريكا سياستها أمام حلفائها.. ومن أجل ارضائهم تظاهرت بعد التدخل ولكنها شجعت سرا الموجات التحررية فى آسيا وأفريقيا. ولكننا لاننكر دور الزعماء الأفارقة والآسيوية فى مناهضة الاستعمار وتكلل نجاحهم عام ١٩٦٠ وهى أكثر سنة تحررت فيها شعوب كثيرة كانت مغلوبة على أمرها وسبق هذه الموجات التحررية مؤتمر باندوج عام ١٩٥٥ الذى يعتبر مؤشر قوى على تزايد قوة عدم الانحياز وكان عبد الناصرمع تيتو

ونهرو هم أقطاب سياسة عدم التحيز. وكانت مصر منار زعماء المطالبين بالتحرر من نفوذ القوى الاستعمارية لقد خرجت فرنسا من الهند الصينية ومن الجزائر وأقطار أفريقية أخرى وخرجت إنجلترا من دول كانت خاضعة لنفوذ التاج البريطانى..ولكن نجحت إنجلترا فى تكوين الكومنولث لتبادل التجارة تحت شعار الدول الأولى بالرعاية.. لقد كانت حرب ١٩٥٦ محاولة لاسكات صوت التحرير وللانتقام من مصر بالذات بزعامة جمال عبد الناصر.. فعبد الناصر رفض الدخول فى حلف بغداد وكسر احتكار السلاح واتجه للشرق وتمت الصفقة التشيكية. وبعد فشل العدوان الثلاثى سياسياً خرجت الولايات المتحدة لتكشف عن وجهها الحقيقى بمشروع ايزنهاور لملء الفراغ فى الشرق الأوسط بعد خروج إنجلترا وفرنسا منه، بل وتلا ذلك تحرير العراق من الأسرة المالكة ومن نورى السعيد وظهر عبد السلام عارف، وتمت وحدة مصر وسوريا.. ولذلك كان عبد الناصر رمزاً لسياسة عدم الانحياز وما تعنيه الكلمة من عدم الوقوع فى التبعية الاستعمارية بالاضافة إلى وضعه كزعيم للوحدة العربية."

حاولت أن أخفف من اثر غياب مسعد وسامى فأخذت سنية ووداد وذهبنا إلى أحد الكازينوهات المطلة على النيل وقلت :

– متهيئلى احنا محتاجين شوية ترييح أعصاب بعد الشد العصبى اللى احنا مرينا بيه – إيه رايك يا سنية ؟

– طبعاً محتاجين.. ولكن هل حاننسى غيابهم عننا؟

– وحا نعمل إيه؟.. أو احنا فى إيدينا إيه ؟ وأنا اعتقد أن مجلس الأمن لازم حا يشوف حل.. وضرورى الدول حاتجبر إسرائيل على الانسحاب.

– يا ريت يا سعيد.. عايزين نستقر.. وعايزين نعالج اقتصادنا.

وفجأة ارتفع صوت بعض الشبان الذى كانوا يتعاركون ويستخدمون الكراسى فى قذف بعضهم بعضاً.. وتدخل الناس وصاح أحد المشاهدين :

– مش عيب يا شباب تتخانقوا عشان البنات.. ما تروحوا تتطوعوا وورونا شطارتكم مع العدو.. وعلقت سنية على تصرفات بعض الشباب الرقعاء الذين لا هم لهم إلا السعى

وراء المنحرفات.. فخطر ببالى الموقف الذى تعرضت له أنا شخصياً فى تقليدى لبعض هؤلاء المستهترين..

إننى لن أنسى اليوم الذى كان مستقبلى سيضيع فيه وكنت وقتها فى السنة الثانية بالكلية.. كان هناك بعض الطلاب الذين تعرفوا على المجتمع الراقى كما يسمون أنفسهم وكانت الزوجات تذهبن إلى الحفلات الأسبوعية التى تقيمها احدى الجمعيات التى تختفى تحت اسم "الخيرية" وضمن الانشطة اقامة الحفلات والرحلات لاعضاء الجمعية.. وفى هذه المناسبة تتعرف الأرملة أو الزوجة التى هجرها زوجها بأحد الشبان من طلبة الكليات وتغدقن عليهم بالهبات والمساعدات.. ثم يتطور هذا الاهتمام إلى علاقات غير سليمة.. وكنت مداوم على الرحلات والحفلات فى الشهر الأول لانضمامى لهذه الجمعية.. ووجدت أن ارملة تبلغ من العمر الخامسة والأربعين أى أكثر من ضعف سنى تقُربنّى لها وتسألنى عن ظروفى وقدمت لى قميص حرير قماش هدية.. ثم خرجنا سوياً إلى كازينو بعيد عن القاهرة.. وكنت فى صراع عنيف بين الاستمرار فى هذه العلاقة غير الطبيعية أم ابتعد عنها.. وحددت هذه الأرملة يوم معين للقاء فى شقة إحدى صديقاتها.. وكشاب بلا تجارب كان حب الاستطلاع يدفعنى إلى الذهاب.. ولكن تثور داخلى القيم الروحية والقيم الاجتماعية واقول لنفسى.. هل تشتريك امرأة بنقودها ؟.. لوكانت هذه العلاقة سليمة لما كنا نتقابل فى السر..

وفى اليوم الموعود أرتديت القميص والبنطلون الجدد وأخذت الاتوبيس لكى أذهب إلى هذا العنوان وحدثت مشادة بين نشال ورجل عجوز أمسك يد النشال فى جيبه.. ولم يسرع النشال بالهروب من الموقف بل وضع النقود فى جيبه ودفع الرجل العجوز نحو الباب شاهراً المطواة فى يده.. وفجأة كنت وجهاً لوجه مع النشال فقلت له :

- عيب كده.. رجع فلوس الراجل العجوز.

ومددت يدى لكى احتجزه.. وقطعا تصرفى هذا وضعنى فى موقف صعب فالنشال لابد أن يهرب فدفعنى بشدة وخبط يدى بمطواته وسال الدم من يدى وذهبت للاسعاف بدلاً من الذهاب لمقابلة الأرملة..

وفى اليوم التالى عرفت بأن البوليس اقتحم الشـقة وحـرر قضيـة آداب لكـل مـن كـانوا فيها.. وشكرت الله أن حادثة النشال انقذتنى من الوقوع فى هذا المازق الغريب.

وفى صباح يوم الأثنين الموافق ٢٦ يونيو أى بعد ثلاثة أسابيع من قيام الحرب قـابلنى سيد حسانين وأنا نازل السلم وبعد القاء السلام وجدته ينفجر ويقول :

– مش أحنا برضة محتاجين لوقفة مع النفس ؟

– طبعاً.. أحنا فى مأزق فعلاً.. ومحتاجين نشوف اخطائنا ونعالجها.

– صدقنى يا سعيد أحنا محتاجين نراجع حساباتنا كلها.

– قصدك إيه يا سيد.

– جبهتنا الداخلية ممزقة.. وعدونا يحتل أرضنا والغطرسة واضحة فى كل بياناته عن الحرب.. حتى فى الراديو.. فيه برامج بيسخروا مننا.

– ليه واللى كان بيقلد أغنية شادية بتاعت قولوا لعين الشمس ماتحمـاش لحسـن حبيـب القلب راجع ماشى.

– قلدوها ازاى ؟

– غيروا الكلمات وقالوا : لحسن جيش ناصر راجع ماشى !!

– أنت سمعت التقليد بنفسك.. وألا حد قالك؟

– لا .. أنا سمعتها مع زميلى فى الشغل.

– أهم حاجة يا سيد أننا نعالج مشاكلنا الداخلية أولاً.. ونُكّثف الجهود عشان نطرد عدونا.

– يعنى باختصار عندنا معركة بالداخل ومعركة بالخارج.

كان الحديث الخاطف مع سيد على السلم هو الحـافز لـى لكـى أمسـك بقلمـى وأسـجل خواطرى وخواطر جيرانى وأن أتعاون مع كل المتحمسين لازالة آثار العدوان.. وأمسكت بـالقلم ولـم يتحـرك فـى البدايـة لأن افكـارى كـانت غـير مرتبـة.. أن المشـاعر الفياضـة والأحاسـيس المتأججـة همـا اللـذان يسـبقان تـأملات الشـخص وتفكـير العقـل.. اننـا نـدرك باحساسنا بأننا ضحية عدة مؤامرات وضحية سلبيتنا فى مواقف كثيرة وضحيـة المخربيـن فى الداخل.. وهؤلاء المخربون هم الذين مزقوا الجبهة الداخلية.. لقـد قـامت الثـورة أيـدى ابناء الشعب من القوات المسلحة وبمساندة الشعب المتحمس لها لأنهم علقوا آمالهم عليها..

لقد حدثت اخطاء عدة ولكن قامت محاولات كثيرة لاصلاح الاخطاء التى تظهر على السطح.. وقد رتبت قيادة الثورة المواجهات التى أمامها كالآتى : انهاء الملكية والقضاء على الاقطاع ومحاربة الاستعمار واعطاء الشعب حقهم فى العيش بحرية وكرامة تحت شمس العدل والمساواة. ولم يختلف اثنان فى تقديرهم للأهداف المعلنة.. فكل الناس يعرفونها ويتمنى الجميع تحقيقها.. ولم تنصب المشانق والمقصلات لاعداء الثورة مثلما حدث فى الثورة الفرنسية لقد كانت ثورة بيضاء حقاً، لذلك خرجت الجموع تؤيدها.. بل أن بعض أبناء الطبقة الغنية والذين اضيروا من تطبيق قوانين الاصلاح الزراعى والحراسة استمروا فى عملهم الوظيفى.. وكنت اعرف ابناء باشوات سابقين وكانوا ضباطاً وكانوا يعملون فى الرقابة الإدارية بنزاهة وكفاءة.

حضر الأستاذ فؤاد الملوانى من أسيوط لكى يزور ابنه سامى خطيب وداد فى المعسكر وقد ذهبت معه لكى أطمئن على سامى واعرف ظروفه.. ووجهت له دعوة لقضاء بقية اليوم معنا ونتناول الغذاء سوياً وقبل الدعوة لأنه كان يريد التحدث مع وداد ومعنا وقال لوداد :

– أنا قلبى معاكم يا بنتى.. قرار اتمام الزفاف أصبح لا فى إيدك ولا فى إيديه.

– (وقالت بحسره) حا نعمل إيه يا عمى ؟ الظروف بتلعب بينا.. قدرنا كده.

– هل بيدرك القواد العسكريين الآلام اللى بيسببوها للناس ؟

– وهم يهمهم إيه ؟ هم يتفاخروا ببطولات من أوهامهم .. والشعوب المغلوبة على أمرها بيدفعوا الثمن.. مش هى دى طبيعة الحرب من ايام المغول وقبلهم الهكسوس وتدخلت فى الحديث وسألت الأستاذ فؤاد الملوانى :

– مش حضرتك برضة مفتش آثار فى أسيوط ؟

– بالضبط يا أستاذ سعيد.. وبأعشق ترابها وبأعشق نيلها وبأعشق شعبها.. لأنى مصرى أباً عن جد.. فكراً ووجداناً.

– كأن حضرتك بتشارك الزعيم مصطفى كامل فى قول : "لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً".

– طبعاً.. ودايما بأرددها من كل قلبى.. لما تدرس الحضارة المصرية القديمة حاتحس بمعنى جملة الزعيم مصطفى كامل.

– أنت بتشوقنى إنى أدرس الحضارة المصرية القديمة.

– مش بس أشوقك.. وأنت لازم أنت وكل أبناء مصر يدرسوا ويستوعبوا حضارتهم.. والحمد لله أنها لازالت ممتدة فى حياتنا وخصوصاً فى الريف.

– لازالت ممتدة ؟ أزاى؟

– حضارتنا كانت حضارة مدنية وحضارة أخلاقية أكثر منها حضارة سياسية.

– الكلام ده محتاج شرح يا أستاذ فؤاد.

– شرح بسيط وواضح.. ممكن نحط المقومات الأساسية وحانجد أهمهم التدين وطبعاً معاه الأخلاق والرباط الأسرى وهو كان ولازال الرباط المقدس لمجتمعنا.. يعنى الرباط كان مستمر فى المجتمع ولا يزال.. والأسرة هى الخلية الأولى الحية للمجتمع.. حتى تلاحظ معنى "الدوار" فى القرية و "بيت العيلة" لازال يحمل هذا المعنى.

– وحضرتك عملت دراسات فى تاريخنا القديم؟

– القديم والحديث.. أنا عندى مجموعات محاضرات كنت بألقيها بانتظام فى الساحة الشعبية فى قريتنا.

– وحضرتك عايش فى أسيوط نفسها وألا فى قرية؟

– عندى شقتى فى أسيوط.. ودوار العيلة فى القرية.

– ياريت حضرتك تمتعنى بالمعلومات اللى كنت بتقولها فى المحاضرات دى..

– إذا كنت مهتم فعلاً يا أستاذ سعيد.. فأنا حاجيبلك المحاضرات المرة الجاية واسيبهالك أسبوع أو أسبوعين وتاخد منها النقط اللى تهمك وأبقى آخدها فى الزيارة اللى بعد كده.

وفعلاً أعطانى الأستاذ فؤاد الملوانى كشكول محاضراته.. وقرأته مرتين وجمعت فى نوتة خاصة بالحضارة بعضاً مما كتبه حتى أقارن بين ما جاء بها وما نراه الآن فى بعض العادات والتقاليد ونقلت فى أول صفحة الآتى :

وإذا كان هيرودت قد قال بأن "مصر هبة النيل" فإن الدكتور غربال صححها إلى "مصر هبة المصريين" لأن النيل الذى لا ننكر فضله فى تحويل الصحراء إلى وادى أخضر يمر ببلدان كثيرة ولم تنشأ فيها حضارات حتى اليوم فى حين أن أرض الكنانة قامت عليها أو حضارة ولاتزال تشد انتباه كافة الشعوب المهتمة بالحضارات. أن الإنسان المصرى هو صانع الحضارة واقصد بالإنسان المصرى ليس الإنسان الفرد بل النموذج للشعب فحتى فى صور الآثار ترى العمال يعملون سوياً فى الأرض وفى صناعة الورق وفى النحت والرسم وصناعة الخزف واعداد الطعام – أى أن الشعب بمجموعه هو صانع الحضارة تأمل مدى تقدمهم فى الطب والصيدلة فقد وصلوا إلى سر التحنيط الذى لم نصل له نحن إلى الآن. ومعرفتهم بالتشريح والدورة الدموية والأعشاب الطبية بل والعمليات الجراحية كما هو مرسوم فى البرديات التى خلفوها.. ومدى تقدمهم فى العمارة ويشهد على ذلك بناءهم للاهرامات وتشييد المعابد الفخمة والمقابر المنقورة فى الصخر وتقدم فى النحت والرسم والتماثيل والرسوم فى المقابر وعلى أوراق البردى شاهد على ذلك. وتقدمهم فى الكيمياء وحفظ الاطعمة ومن لا يصدق ذلك يذهب للمتحف المصرى ويرى الحبوب المحفوظة لمدة ٣٥٠٠ عام فى مقبرة توت عنخ آمون.. وتقدمهم فى الإدارة وفى تقسيم البلاد إلى ولايات وأقاليم ومدن وقرى ودساكر واصبحت القرى تتبع المدن فالملك واحد ولكن هناك وزير للوجه القبلى ووزير للوجه البحرى وهناك قضاة ومسئولين عن شكاوى ومظالم الناس وكلهم يملكون حسب عدالة الإلهة " ماعت" إلهة الحق والعدالة وهناك قوات اشبه بالبوليس حالياً وقوات الجيش الذى يجمع من كل اقليم وقت الحرب.. وهناك الأسواق التى تعقد فى يوم معين فى قرية معينة ونفس النظام نراه الآن فى الريف "سوق السبت.. الخ" فى قرية كذا وهكذا.

وحضر الأستاذ ميخائيل – والد مسعد – لزيارة ابنه وذهبت معه إلى المعسكر للأطمئنان على أحوال مسعد فى المعسكر.. وعندما قال الأستاذ ميخائيل ابنه هذا الجملة :

– معلش يا بنى.. بكرة تروق وتحلى.. وتتجوز وتستقر"

أنفجر باكياً وقال :

– هو احنا باينلنا أمتى حانخرج من الخنادق دى ؟ يظهر أنهم حايسمونا "جيل الخنادق".

– الصبر يا بنى.. وإذا كنت أنت فى الخنادق هنا.. فأحنا حاسيين بالحالة الأقتصادية الصعبة.. حتى الخدمات شبه معطلة.. ولا صوت يعلو على صوت المعركة.

– يعنى لو تأخرت الحرب شهر واحد.. ما كان زمانا متجوزين دلوقتى ؟

– كنت حاتتجوز.. وبرضه حايستدعوك.. وحاتعيش فى الخنادق برضة.. بعيد عن مراتك.. وهو أحنا كنا اخترنا الحرب؟

– آه ثم آه.. كتبت علينا الحرب.. وما كنا نريدها! مش كدة برضة يا بابا؟

وعندما اصطحبت الأستاذ ميخائيل إلى منزلنا لتناول طعام الغذاء معنا وتمضية بقية اليوم معنا وضع ظرف به مائة جنيه فى يد سنية وقال لها :

– مسعد ماعندوش مرتب دلوقتى.. فأرجوكى إنك تاخدى مصروفك منى أنا دلوقتى.. ولما يخلص الجيش تبقى تاخدى منه مصروفك.

وشكرته سنية على الاهتمام بها وتحدث معها عن كل ما ترغب فى معرفته عنه وأعطاها فكرة واضحة عن أحوال أسرته لأنها ستعيش معهم بعد الزواج إذا رغبت فى ذلك– لأن الأستاذ ميخائيل ميسر الحال– ثم دار بينى وبينه الحديث التالى :

– أنا كنت سمعت إن حضرتك قضيت كام يوم فى المعتقل.

- فعلاً .. بس ده كان من تلات سنين

– وإيه سبب الاعتقال ؟

– أصل سيد يوسف وزير التربية والتعليم– الله يسامحه– وصّلّ صورتنا للرئيس جمال عبد الناصر كأننا بننتقد سياسته العربية.

– إزاى ؟

– واحد من زملائنا – واحنا كنا سبعتاشر – قال جملة بدون قصد.. قال ان المدرسين مظلومين دون عن بقية الموظفين فى الترقيات.. وقال ياريت تدونا من فتات المائدة.

– طب ودى فيها إيه ؟ الراجل بيطالب بأى تحسين للأجر.

– أصل حكاية فتات المائدة جت على الجرح.

- مش فاهم.

- كان ساعتها مؤتمر القمة العربية منعقد فى القاهرة ١٩٦٤.. فعبد الناصر فهم بـأنهم بيقولوله.. بدل لما تبعزق فلوس البلد على المؤتمرات.. أدينا احنـا الفتـات وده حـا يحسّن احوالنا المالية .

- فهمت.. وكمان كان فيه همس كتير بخصوص الانفاق على حرب اليمن.

- مضبوط يا سعيد.. وكان فيه مساعدات للجزائر.. كانت مصر بتؤيد أى ثورة تقوم ضد الاستعمار.

- أنا سمعت النكتة اللى عن الفيلم اللى كان اسمه "ثورة على السفينة بوتكين".

- إيه هى النكتة ؟

- إن المسئول لما قرأ كلمـة "ثـورة" أرسـل برقيـة تـأييد علـى السـينما وقـال نؤيدكـم.. ارسلوا أولادكم.

- وإيه كلمة أرسلوا أولادكم ؟

- يعنى لما كانت تفشل أى ثورة فى أفريقيا فزعيـم الثـورة الفاشـلة كـان يرسـل أولاده يقيموا هنا على حسابنا.

- مش كان فيه حملة اعتقالات كبيرة ١٩٥٦.

- بالضبط.. ما تنساش إن فيه "ململة" جوه البلد.

- وياترى كان ليك نشاط سياسى يا أستاذ ميخائيل ؟

- الحقيقة أنا ما بأميلش للأحزاب السياسية وعمليات التجريح لبعض.. هـم فـاهمين أن السياسـة أنهم يجرحـوا فـى الأحـزاب الثانيـة.. احنـا بصراحـة أبعد مـا نكـون عـن فهمنـا للديمقراطية الحقيقية.

- احنا دايماً نسمع من مسعد عن حضرتك.. بأنك شعلة نشاط.. وثورى كمان.

- ممكن تعتبرنى ثـورى صحيـح.. ضـد الفسـاد.. وضـد الفوضـى.. وضـد التخلـف.. وكمان لى نشاط ثورى دينى.

- مش فاهم.

– أنا أنضميت لجماعة الأمة القبطية على أمل أننا نقوم بالاصلاح فى الكنيسة.. لكن أنسحبت منها لما قامت بعمل طايش.

– أنا ما سمعتش عنها.. وإيه العمل الطايش ؟

– ماسمعتش عن الشباب اللى قاموا باختطاف الأنبا يوساب ؟

– أنا سمعت مرة من زميل لى.. لكن ماعرفتش السبب ولا التفاصيل.

– كان للأسف فيه سكرتير للبابا اساء بتصرفاته للكنيسة.. والأنبا يوساب كان طيب.. ووضع ثقته فيه.

– وهو ده كان سبب كافى لعملية الأختطاف دى ؟

– هم كانوا عايزين يلفتوا نظر الناس إلى ضرورة عمل إصلاحات فى الكنيسة.. عيب قوى أن سكرتير تكون فى إيده سلطات تخص الكهنوت.

– يعنى الهدف نبيل.. ولكن أخطأوا فى التنفيذ.

– بالضبط كده.. والمختطفين أودعوا قداسة البابا فى أحد الأديرة.. ولم يمسوه بأى سوء.

– هو بصراحة فيه حاجات كتيرة فى البلد وفى الكنيسة كانت محتاجة لإصلاحات.

– مضبوط.. لكن لما تولى البابا كيرلس رحبت به الناس كلها وكانت بتقيم له أقواس النصر وهو فى طريقة لأفتقاد الكنائس.

– قداسة البابا كيرلس كان بيحظى بحب وتقدير واحترام الشعب والحكومة.

– يكفى أن الحكومة شاركت فى تكاليف الكاتدرائية.. واشترك الزعيم جمال عبد الناصر والامبراطور هيلا سلاس وقداسة البابا فى وضع حجر الأساس.

لقد كات زيارة الأستاذ فؤاد الملونى والأستاذ ميخائيل بمثابة جرعة ثقافية أضفتها لمعلوماتى والتى كانت معظمها مُنصب على دراستى القانونية ومعلومات عامة ضئيلة بالمقارنة بما تعلمته من هذن الأستاذين الجليلين..

وأوفى الأستاذ فؤاد بوعده لى فأرسل لى هذا الخطاب ونقل فيه جزء من الخواطر والمعلومات التى كان يدونها وهذا جزء هام من خطابه :

"لقد مر بخاطرى ما كان يقولـه لنـامدرس التـاريخ عندمـا كـان يتحدث عن نـابليون.. وكان يركز على جملة قالها وزير خارجية فرنسا بعد هزيمة نابليون وهى : "كان نـابليون يعمل فى البداية من أجل فرنسا ولكن بعد أن أصبح امبراطوراً كـانت فرنسـا تعمل من أجل نابليون" وكنت دائم التساؤل "لماذا يحدث هذا التغيير فى معظم الزعماء ؟ قطعاً كـان معظمهم أن لم يكن كلهم وطنيين بالدرجـة الأولـى.. ولكن هنـاك دائمـاً "جماعـة الطبل والزمر" وهؤلاء هم القادرون على رفع شعارات طنانة مزيفة فى معظم الاحيـان.. وهم القـادرون علـى الوسوسـة فـى أذن هذا الزعيم وسوسـة لا تختلف كثـيراً عـن وسوسـة الوسواس الخناس.. وكانوا يبثون سمومهم ويتظاهرون بـأنهم مخلصـون لـه وأنهم أبطـال لأنهم يحرسونه من أعدائـه.. ولذلك يقبضـون علـى كل المعـارضين ويسـوموهم مختلف أنواع العذاب.. وأمثال هؤلاء الناس لابد أن يكونوا ساديين يتلذذون بتعذيب الآخرين.. أى أنهم مرضى نفسيين خطيرين.. وهذه هى أكبر كارثة تعـم البشـرية فـى مختلف العصور والأزمان !! ألم يحرق نيرون برجاله المطيعين له روما عاصمة البلاد وكـان يغنـى وهو يرى المدينة تحترق والناس تهرب مذعورة.. ألم يعانى الأبرياء من الوحوش التى ترتـدى ملابس الرجال أو النساء ولكن داخلهم قوة حيوانية بهيمية تلتهم كل ما هو جميل..

حتى المعانى السامية التى يعشقها الناس عموماً يسـاء إليهـا.. فـاعداء الحريـة يرفعـون أمام الناس علم الحرية وهم يذبحون الحرية بلا هوادة.. وكم صاح الناس "أيتها الحرية كم من الجرائم ارتكبت باسمك؟ أو ايها الحب كم من الجرائم ترتكـب باسـمك ؟" ومـن السـهل على أمثال هؤلاء الجناة رفع يافطة تبرير مثل "اعداء الشعب لا حق لهم فى الحريـة وفـى الحياة"!! ألم ينصب الطاغية روبسبير "المقصلة" فى الميـادين لكل أعدائـه وكـان الغوغـاء من الفرنسيين يصيحون فى كل مرة ينزل فيها نصل المقصلة علىالمحكوم عليهـم لتفصـل رأسه عن جسده وكانوا يصيحوا "تحيا الحرية والاخاء والمساواة" ومن المضحك بل من المبكى أن بعض الظلمة يعتبرون التعدى عليهم أو عدم قبول الناس لهم وكأنه اعتداء على الدولة كلها وعلى الحرية والديمقراطية!! وحتـى فـى القرن العشـرين نجد بعض الحكـام يرددون قول لويس التاسع عشر "الدولة هو أنا" حتى وأن لم يقولوها بالفم ينفذوهـا بـالفعل وكل البشر يأملون أن يجدوا الإنسان السامى يجلس على أريكة الحكم لأن السامى هو مـن

يسمو بروحه وبسلوكه وبخلقه الكريم.. ووجدت تأملاتى تشدنى إلى تقسيم افلاطون للبشر إلى ثلاث طوائف :

الفلاسفة والحكماء وهم طائفة الحكام والرؤساء والقضاة والمسئولين والقوة الغضبية التى تقوم بالدفاع عن الأوطان فقوتهم الجسمانية والعضلية تحتاج إلى حافز الغضب لكى تنفعل وتقوم بواجبها الملقى على عاتقها أما الطائفة الثالثة فهم الغوغاء والمسالمين اى الشعب المحكوم ولا يقصد بهذا التقسيم اهانة المحكومين ولكنه ينبه فقط بأن حكم الغوغاء هو أخطر صور الحكم لأنهم يندفعون بلا تعقل وبلا روية وقد يدفعون ببلادهم إلى الهاوية.

كان يدرك أفلاطون بأن الحكماء هم القادرون على تدبير أمور الرعية والحكيم دائماً يتسم بالقدرة على التفكير الهادئ المنظم وأنه ذو أفق واسع وأنه عادل فيأحكامه وأنه فاهم لمصلحة الرعية بلا تحيز أو غرض شخصى.. أنه فى نفس مرتبة القاضى العادل.. والقاضى العادل يعطى الاحساس بالأمن لأنه يعطى كل ذى حق حقه. أن من الأقوال المأثورة لتشرشل بطل الحرب العالمية الثانية بأنه قال مادامت هناك عدالة فى القضاء فلا خوف على البلاد أو المجتمع.. فبدون العدالة ينتشر الظلم والفساد.. أليس كلمة "العادل" هى أحد اسماء الله الحسنى ؟ ولو تصرف كل إنسان طبقاً لمبادئ العدالة والحق لانقشعت الظلمة وساد النور والمحبة والتآخى.. أن المثلين الواضحين للحكام العادلين هما عمر بن الخطاب وعمر بن العزيز لأنهما كانوا نبراسين للحق والعدالة.. هناك بالطبع الكثير من الحكام الصالحين ولكن درجة صلاحية هذين الحاكمين أصبح يضرب بها الامثال. وهناك الكثير من الأئمة الصالحين الذين حلقوا فى سماء العدالة والذين أعطوا للناس البلسم لجراحهم والذين أعطوا القدوة الحسنة فى السلوك القويم لأنهم أرادوا خيراً للناس ولكن يضرب المثل بالامام "ابو حنيفة النعمان" وأن كان هؤلاء العظماء ماتوا من الناحية الجسدية مثل كل البشر ولكنهم كنبراس للعدالة لايزالوا أحياء ويستمرون على مدى التاريخ الصورة الخالدة لأن الناس تحب العدل ومن يحملون رايته حتى يتم انتصار الخير على الشر .

وقد اعطى افلاطون للقوة التى يحتاجها الناس لحماية الأوطان من القوات المعتدية اسم "القوة الغضبية" فالغضب يلازمه الاندفاع.. والاندفاع يحتاجه الجند فى ميدان القتال وهذا مفيد فى مواجهة العدوان والبطش والعنف.. ولكن الحاكم الغاضب لن يدير دفة الأمور مثلما يديرها الحاكم العادل الذى يحكم بين الناس كأب يرعى شئونهم بحكمته وحسن تدبيره. لقد كان قدماء المصريون يخاطبون ملوكهم بانهم ممثلو "ماعت" إلهة الحق والعدالة. ونرى ذلك بوضوح فى قصة "الفلاح الفصيح"، فقد تعرض هذا الفلاح البسيط لمؤامرة خسيسة من أحد المسئولين لكى يستولى هذا المسئول عما لدى هذا الفلاح من ملح النيترون الذى أحضره هذا الفلاح من مكان بعيد لكى يبيعه ويكسب لقمة عيشه. وكانت مؤامرة هذا الخسيس هو أنه غطى الممر – الذى تسير فيه الحمير التى تحمل البضائع ومنها الملح – بالسجاد لذلك انحرف ركاب تلك الحمير عن الطريق حتى لا يدوسوا على السجاد ومروا على حافة الحقل وأكلت الحمير من خضروات الحقل بحكم الغريزة.. فظهر الوغد برجاله واستولى على كل ما يملك هذا الفلاح.. وتقدم الفلاح الفصيح بشكواه إلى الحاكم العادل وخاطبه فيها بأنه – أى الحاكم – يمثل "ماعت". وقد أعطى الحاكم للفلاح حقه كاملاً وعاقب المسئول المنحرف عقاباً صارماً. ما أحوجنا اليوم إلى أمثال هؤلاء الحكماء الفلاسفة لكى يحكموا العالم فيسود العدل، ولكى يردوا الحقوق لأصحابها ويعاقبوا المفسدين الظالمين لكى يأمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم وحياة أهل بيتهم.

وإذا ما قارنا بين المفسدين واللصوص فسنجد أن هؤلاء الظلمة يتفوقون على اللصوص لأن لديهم عصاة غليظة.. ولديهم قواعد مظهرها براق لأنهم يطلقون عليها كلمة "القانون" ولكنهاليست بالقواعد العادلة.. أما اللصوص فإنهم يسرقون ويتوارون. هناك صورة القاضى الذى يصدر الحكم الظالم سواء لوجود الفساد داخله أو لأن من قدموا القضية له قدموها مشوهة فلم يتبين القاضى أى الأقوال حقيقية وأيها مدسوس أو لأن هناك أبناء إبليس تطوعوا للشهادة الزور وباعوا ضمائرهم مقابل بضعة جنيهات. أما الغوغاء فهم أشبه بقطيع أغنام يساق لكى يشرب أو يأكل. وهم أخطر من القوة الغضبية إذا ما وصلوا إلى مقاليد الحكم.. والغوغاء من مستلزمات الحاكم الظالم فإنهم يهللون له دون أن يعرفوا لماذا يهللون ودون أن يفهموا أى شئ عن الموضوعات التى يقال لهم أن

ينشروها بين الناس فهم يقبضون فقط من أجل البلبلة والجلبة.. أن المثال الحى لحكم الغوغاء كان ايام حكم روبسبير الذى قضى على الحرية والعدالة والأمان وهو يرفع اسمى الشعارات "الحرية - الأخاء - المساواة" فلقد ضاعت صفة الاخاء عندما تحول الحاقدون إلى طغاة وقتلوا أخوتهم المواطنين المسالمين البسطاء وانتهت المساواة عندما أعطيت كل الامتيازات للقائمين على الحكم ضد من ينتقدونهم أو ينصحونهم أو حتى يعلوا صوتهم مطالبين بالعدالة!! وطالما أن هناك خير وشر فهناك قطعاً معركة بين قوتين متضادتين وعلى المخلصين من الناس أن يكونوا يقظين وان يعملوا جميعاً لحماية المعبد من الشروخ أو الانهيار والمعبد يشمل كل ما يحتمى فيه الإنسان من أجل مصلحته ومستقبله فالدولة معبد والعدالة معبد والأسرة معبد والحرية معبد والحب معبد والأخلاق معبد والضمير معبد - إذن فواجبنا الآن هو صيانة كل هذه المعابد لكى نعيش فى أمن وأمان وتعاون ورفاهية وإذا كان واجبنا الأول هو صيانة الدولة كمعبد فعلينا أن نواجه القوى الخارجية التى أعتدت علينا وأحتلت جزءاً غالياً من أرضنا كما يتحتم مواجهة قوى التخريب فى الداخل حتى نصون الجبهة الداخلية ونبنى الوطن من الداخل ليكون قوياً دائماً فى مواجهات المؤمرات ضد وطننا وشعبنا ومستقبل أولادنا ولم تعد المعركة كلمات جوفاء بل هو واقع نعيشه ولابد أن نعيشه بعين يقظة وفكر ثاقب وجهد مثمر ومستمر.. هيا يا شباب نمحو آثار العدوان ونبنى بلادنا كالبناء السليم المتين".



الفصل الثانى
(اليأس والذل والمهانة)

رغم الاحساس باليـأس والـذل والمهانـة ظهـرت صيحـات مكتومـة فـى البدايـة ثـم زاد الغليان الداخلى وأخذ الناس يعبرون عن ضيقهم فى صورة نكت وسخرية. فأحيانـاً يلقـى الناس النكتة عندما يرون أحد الضباط وهو يسير كالغندور ويملأه الغـرور وكـانت بعـض النكت كالآتى: "مرة الشاويش بيعلم العساكر التمارين الرياضية وعندما جـاء دور الجـرى استحثهم على الإسراع فالتفت المجند وتساءل:

- عايزنى ليه أسرع ؟
- لازم تتعلم الجرى.
- وهو احنا حانجرى تانى؟"

وأحياناً يلقون على أسماعهم كلمات السخرية مثل "عمالين نعلف فيهم وبياخدوا مرتبات كبيرة ومزايا كثيرة وساعة الجد يحط ديلـه فـى سنانه ويجـرى" ومـن كـثرة النكـات وجـه الرئيس عبد الناصر بنفسه تحذيراً بعدم إطـلاق النكـات علـى قواتنـا المسـلحة وإلا يعـاقب الشخص الذى يسخر من قـوات بلده. قطعـاً لا ذنـب للجنـود والضبـاط فيمـا حـدث ولكنـه التنفيس عن الضيق فى النفوس التى نتج عن هذه الهزيمة. وكثيراً ما كنـت تـرى شـخصاً سائراً هادئاً فى الشارع وفجأة يثور ويقول:

- ده ذل يا جدعان .. وحانستحمل المهانة لإمتى ؟

وسجلت تحت عنوان: "اذكر يا تاريخ":

"لقد حدث الشرخ الكبير فى الجدار الداخلى نتيجة سلبيات وتجاوزات عديدة من بعض الأفراد الذين فرضوا من أنفسهم "أوصياء على الشعب" وكان الشئ الغريب هو أن هـؤلاء الناس كونوا من أنفسهم قوة شعبية تؤازر أى قرارات بل وكـل القـرارات التـى "يصدرهـا أى مسئول!".

وكانوا يعتبرون أنفسهم يفهمون أكثر ويعرفون مصلحة البلاد أكثر! ويعرفون مصلحـة الناس أكثر من الناس أنفسهم! كانت قيادات الاتحاد القومى الذين أصبحوا قيـادات الاتحـاد الاشتراكى عندما تغير الاسم يعتبرون أنفسهم اتحـاد قـوى الشـعب العـامل. وكـانت معظـم

القيادات عبارة عن أناس وصوليين متملقين موتورين. لقد كانت الانتخابات تتم بعد استبعاد أسماء الأشخاص غير المرضى عنهم من القيادات السياسية فبذلك تعتبر الانتخاب صورة شكلية والحقيقة أن أفراده اختيروا بالتعيين".

ونفس الجرائد كانت عبارة عن نشرات لا تختلف عن بعضها إلا فى طريقة تنميق أو تنسيق الأخبار.. وكانت النكتة عن الجرائد بأن الصفحة الوحيدة الصادقة هى صفحة الوفيات.. ويقصدون بأن كل ما كان يُكتَب كان كذباً وغير حقيقى.. لقد كثر المنافقون وكثر أصحاب العقد الساديين الذين كانوا يتلذذون بتعذيب الآخرين جسدياً ومادياً ونفسياً.. واننى أرى صورة زميل فاشل لى وكان يطلق عليه اسم شهرة وهو "فاروق تشه" صورة متكررة فى كل حارة وكل شارع. كان فاروق تشه هذا يسكن شارعنا الذى كان فيه منزلنا القديم وكان معى فى المدرسة وكثر رسوبه فاشتغل متطوعاً فى الجيش ثم انتقل إلى البوليس الحربى.. وكان يتفاخر بأنه بهدل العساكر الذين تصادف مرورهم أمامه وكانوا قد نسوا أخذ تصريح الخروج. ان فشل فاروق تشه فى الدراسة جعله ينتقم من كل طلاب المدارس والموظفين.. ولغلاظة خلقه كان مكروهاً من الجيران.. وكنا فى فترة المراهقة نبتعد عنه بقدر الامكان.. بل عندما يحضر فجأة ويجدنا نلعب مباراة كرة قدم فى الشارع كان يفرض نفسه علينا ويعكنن علينا.. ولأنه خشن الطباع ومتباهى بقوته الجسمانية كان "يجُر شَكَلْ" أى شخص بأن يستفزه لكى يتشاجر معه.. ولأنه فتوة وقوى فانه ينفث عن عقده بضرب الشخص الآخر ضرباً مبرحاً.. ان كثيرين من أمثال "فاروق تشه" ظهروا على السطح فى مجتمعنا المصرى البسيط المسالم.

وأذكر صورة أخرى أخف من صورة "فاروق تشه" وهى صورة الناس الذين كانوا يسحبون الآخرين فى الكلام لتوريطهم ثم يبلغون عنهم، فقطعاً كان كثير من الناس غير راضيين عن تصرفات بعض رجال الاتحاد الاشتراكى فيعبرون عن ضيقهم وعن غضبهم فيتلقف كلامهم أحد التافهين الدلاديل ويبلغون عنهم، فذات مرة ركبت تاكسى مع زميل لى فى كلية الحقوق ولاحظت أن الزميل أخذ يسخر من بعذ السلبيات أمام سائق التاكسى وبدأ الرجل المسكين يشكو من بعض الموظفين ذوى الذمم الخربة ومن بعض عساكر المرور ومن الإهمال فى المستشفيات ومن مصاريف النشاط فى المدارس التى لا يقدر عليها ولاحظت أن زميلى مسرور ويجاريه لكى يشكو أكثر فهمست لزميلى:

– ايه يا موريس؟ ليه بتكلم الراجل فى الحاجات دى؟

– اسكت أنت.. أنا بوقعه.

– لا.. يلا بينا ننزل.. احنا فاضلنا خطوتين.. وأنا عايز أدردش معاك واحنا ماشيين ونزلنا من التاكسى وقلت بغضب لموريس:

– إذا كنت عايز تصطاد الجواسيس أو المخربين.. فماتتشطرش على الناس الغلابة.. شغلك لازم يكون منصب على أعداء البلاد مش الناس البسطاء دول.

كان لهذا الحدث البسيط تأثيره العميق علىَّ.. لأننى أصبحت أكثر حذراً عند التحدث فى أى موضوع خصوصاً مع الأشخاص الذين لا أعرفهم.. وكما علمنى والدى رحمه الله، فقد كنت أسير على حكمته "لسانك حصانك"، وأنا فعلاً تعلمت ألا أتحدث إلا فى الكورة والطقس والتجار الجشعين وبنات الهوى والممثلين والراقصات، لأن الحديث فى هذه المسائل "لا تعرض الإنسان للخطر".

إن دراستى للحقوق أساسها حبى للعدالة والحرية والديمقراطية، ولو أن والدى حاول أن يثنينى عن عزمى للإلتحاق بكلية الحقوق وقال لى:

– يا بنى ان حال المحامين لا يسر.. ودخلهم محدود.. والقضية بجنيه ونص ولازم تقضى فترة تحت التمرين.

إلا أن رغبتى فى أن أعرف حقوقى وواجباتى، وأن أدافع عن المظلوم كانت هى الحافز لاستمرارى فى هذه الدراسة الممتعة، وأنا أؤمن بأن دراسة الناس جيداً يتم عن طريق دراسة مشاكلهم وقضاياهم.. وان الإنسان عندما يغضب وعندما يحس بالظلم فانه ينفجر ويتحول من شخص هادئ مسالم إلى بركان ثائر.. وقد تزيد ثورته ويصبح قوة مدمرة. فليس هناك أقسى على الإنسان من السطو على أملاك الناس ومن سلب حقوقهم وحرمانهم من حقوقهم وأخطر شئ هو الحرمان من الوظيفة أى تهديد لقمة العيش. لقد تعلمت من مدرس التاريخ أثناء فترة الدراسة الثانوية أن الشعور بالظلم وليس الظلم وحده هو الذى سبب الثورات، وكان خير مثال أعطاه لنا هو الثورة الفرنسية بشعاراتها الثلاث "الحرية – الإخاء – المساواة" فقد كان يعيش الفلاحون فى ظل الإقطاع وكانوا عبيداً للأرض وهم صاغرين.. أما بعد تأثير كتابات جان جاك روسو وكتابه العقد الاجتماعى، وكتابات فولتير الساخرة وكتابات الأدباء المطالبين بالحرية، ثم شحن الناس شحنة قوية جعلتهم يثورون على الظلم.. وتكررت صورة مشابهة فى الاتحاد السوفيتى وفى العديد من بلدان العالم.

إن القانون ينص على كافة الحقوق.. ولكن ما العمل عندما تصبح نصوص القانون كلاماً فى كتب ولا يطبق القانون بتاتاً؟ وماذا لو طبق القانون شكلياً وقام شهود الزور بالإدلاء بشهاداتهم وبذلك تضيع حقوق الناس؟ وماذا لو وُضِعَ القانون برمته على الرف؟ مثل هذه الأسئلة تدور فى ذهنى وفى ذهن غيرى من الناس الذين يخشون من **غياب العدالة**.. ولكن لابد من وجود أصوات تطالب بالحرية وبتطبيق القوانين وبحق الإنسان فى العيش فى بلده عيشة كريمة.. بل ويجب أن تكون هناك قوة تساند هذا القانون مثل الدستور أو الرأى العام أو المجالس النيابية أو قوة الشعب أو قواتها المسلحة على أقل تقدير.. أريد أن أقف فى المحاكم أدافع عن المظلومين، ولكن حالتى الاجتماعية لا تسمح لى أن أذهب إلى مكتب محامى لمدة عامين وآخذ خمسة جنيهات بدل انتقالات كل شهر لذلك فضلت أن اتسلم الوظيفة الحكومية بالدرجة السادسة واتسلم خمسة عشر جنيهاً مضمونة أول كل شهر حتى تستقر أوضاع الأسرة التى تعتمد على مرتبى وعلى ايراد المنزل الذى تركه لنا والدى.. لقد كان من سوء حظى أن يمرض والدى وأنا فى السنة النهائية وينتقل إلى جوار ربه فترك لنا هذه التركة الثقيلة.. والشئ الوحيد الذى يخفف من عبء هذه التركة هو أنه ترك لكل شخص منا دفتر توفير بريد به مبلغ مناسب يساعد كل منا وقت الاقدام على الزواج.

بدأت المواد التموينية تتناقص من السوق فبالتالى زاد عدد الواقفين فى الطوابير أمام الجمعية التعاونية الإستهلاكية حيث أنها المنافذ الوحيدة للسلع التى تحدث فيها اختناقات مثل الزيت والصابون والسكر والأرز. وكانت زوجة عزت بك تحصل على كل طلباتها من الجمعية التعاونية الموجودة بالقرب من العمارة وذلك بفضل صلة عبد السميع بكل العاملينَ فيها. ولما تلكأ عبد السميع عَنَّفَه عزت بك وقال له:

– تنكر يا عبد السميع ان مراتك استفادت من بيع الزيت والسكر والصابون اللى كانت بتجيبهم من الجمعية التعاونية.. وكانت تبيعهم فى السوق السوداء؟

– ما هى كمان كانت بتقف فى الطابور لغاية لما تجيب الحاجات وبتتعب.

– وكانت بتوقف الأولاد والبنات كمان فى الطابور عشان يستلموا حاجات أكثر.

– يعنى هى كسبت عشان بتريح حضرتك من الوقوف فى الطابور.

لقد كانت الحكومة تحتكر معظم التجارة وكانت توزع المواد التموينية بالتسعيرة الجبرية فى الجمعيات التعاونية ولذلك كانت النكت عن عريس الهنا هو الموظف فى

الجمعية التعاونية فالمستفيد من اقتصار التوزيع للمواد الضرورية على هذه المنافذ الحكومية هم من موظفى هذه الأماكن.. فعندما يرسم راسم الكاريكاتير الخاطبة وهى تقول للعروسة "يا بختك جايلك عريس من الجمعية التعاونية.. يعنى حاتعيش فى عز.. وكل المواد التموينية حتكون ماليه البيت" أما المستفيدين الآخرين فهن الدلالات اللاتى توزعن هذه المواد فى السوق السوداء.. وزوجة عبد السميع بدأت نشاطها بأن تقف هى وأولادها الخمس فى طابور الجمعية ويأخذ كل منهم ٢ ك سكر وكيلو دقيق وزجاجة زيت وخمس قطع صابون وعلبة سمن مستورد وكانوا يقفون فى الجمعيات القريبة من العمارة ثم تبيع كل شئ للسكان وكانوا يحققون أرباحاً طائلة خصوصاً عندما عملوا علاقات مع موظفى الجمعية.

وحدث تفاهم بينهم فكانت الكراتين تاتى إلى عبد السميع فى غير الأوقات الرسمية أى فى الوقت الذى لا يوجد طابور واقف أمام الجمعية ويتقاسم عبد السميع المكسب مع الموظفين الذين يرسلون له كل طلباته.. وكان ذكاء عبد السميع وزوجته هو فى الاستفادة من أزمة التموين فوجود اختناقات فى السوق تعنى ارتفاع سعر والوسيط هو دائماً الرابح.

وكلما زادت الاختناقات زادت أرباح عبد السميع وعائلته.. فبدأ يتغير أسلوب تعامله مع السكان.. فعندما أحضره عزت بك من عزبته كان كالقطة المغمضة" كما كانوا يطلقون عليه عندما كان مطيع جداً وكان يعرض خدماته على السكان وكان يشكرهم عندما يعطونه إكراميته.. أما عندما أصبح تاجراً للمواد التى يتم تهريبها من الجمعية بدأ يردد بأن دخله أكثر من خمس أفندية بحالهم.. بل بدأ يسخر من الموظف الخامل الذى ينتظر المرتب والعلاوة فهو الجانى على نفسه لأنه كما يقول: "مش حدق مش ملحلح" وكان يشبع غروره عندما يخاطب السكان الذين يحضرون ويتذللون له لكى يعطيهم زيت وسكر وسمن.. فحتى السكان تغير أسلوبهم من صيغة الأمر وهم يطلبون زوجته لمسح شققهم ويطلبون أولاده لكى يُحضروا لهم الخضروات واحتياجاتهم إلى أسلوب تذلل فتجد بعضهم يخاطبونه هكذا:

– ماتنساش يا عبد السميع.. وحياة عينيك.. انك تحجز لنا قزازة زيت واثنين كيلو سكر وكام حتة صابون.. ولو أمكن علبة سمن.

إن التحول الإجتماعى الذى استمتع به عبد السميع وامثاله جعلهم يصعدون السلم.. وهذا ليس عيبا ولكن العيب هو فى طريقة تعاملهم مع المثقفين والموظفين.. وكأن الثقافة

اصبحت عائقا لمن يريد أن يرفع دخله المادى .. كانت النقود فى الماضى تجرى فى يد الاقطاعيين واصحاب المصانع.. والان بدأت طبقة التجار وطبقة المرتشين والمزورين تستحوذ على النقود.. ان قول سيد حسانين بأن "فئران المركب يهمها أن تعيش فقط" ويقصد بفئران المركب الشعب المطحون ومنهم الموظفين طبعا لا يفكرون الا فى لقمة العيش.. وفئران المراكب لا تتضمن تجار السوق السوداء والمنحرفين من الموظفين "السلكاوية" و"الحدقين" و(معطلى مصالح الناس "الذين يجبرونهم على دفع الرشاوى لكى تسير مصالحهم فى الدواوين الحكومية.. ان هذا الخلل فى القيم والمبادئ هو شرخ فى "معبد الاخلاق الحميدة والقيم الكريمة" وهذا المعبد هام جدا لانه يعنى المحافظة على كياننا الانسانى لانه كياننا الروحى والاخلاقى ويجب الا ننسى قول الشاعر:

انما الامم الاخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

هذا المعبد هو صوت الله داخل الانسان.. انه الميزان لكل أفعالنا اذا كنا نريد رضاء الرحمن عنا.. انه "الضمير" .. فاذا نام الضمير فبئس المصير للانسان. ضمير القاضى يعنى نشر العدل بين الناس، ضمير العامل يعنى زيادة الانتاج وزيادة الخير.. ضمير الصانع يعنى زيادة الثروة الوطنية.. ضمير الطبيب يعنى السهر على صحة المرضى.. ضمير المدرس يعنى حمل الرسالة السامية بتربية النشء – أمل المستقبل ورجال الغد – تنشئة سليمة حتى يصبحوا حماة الوطن من الفساد والاهمال.. ضمير المحامى يعنى وقوفه إلى جانب الحق والدفاع عن المظلومين.. ضمير المهندس يعنى بناء المساكن الآمنة والمريحة.. لان انهيار العمارات على ساكنيها تكون دائما بسبب الضمائر الخربة لبعض المهندسين الذين لا يخافون الله ولا يهمهم ضياع الأرواح والممتلكات.

ويبقى امامنا سؤال هام: لمصحلة من تحدث الازمات؟ فاذا كان هناك مسئولين على مستوى المسئولية فهل كانت تحدث أزمات؟ وقد طرح الاستاذ عزت هذا السؤال فى الليلة المشئومة عندما بدأ الناس يحسون بالكابوس الذى بدأ ينشر اجنحته مع بداية هذه الليلة المظلمة والطويلة والتى لا نعرف متى تنتهى.. لقد اسودت الدنيا فى نظرنا.. لأن فقدان الثقة فى النفس يؤدى قطعا إلى التخاذل، بل قد ينتهى إلى اللامبالاة وتبلد الحس والاكتئاب.. ولو استمرت هذه السلسلة من الهزيمة النفسية الداخلية فلا أمل فى نور الصبح المضئ ولا رجاء للاستيقاظ من هذا الكابوس الفظيع. الامل هو الحافز على البناء – الحافز على انتظار الصبح المضئ بعد الليل المعتم.. لكن متى ينتهى هذا الليل البهيم؟

وذات صباح قابلت خال الصديق عبد السيد حبيب الذى كان قد هاجر إلى الولايات المتحدة مع والده الذى اعتقل عام ٥٨ اثناء حملة الاعتقالات للشيوعيين وتمكن الاستاذ حبيب من عمل ترتيبات السفر عن طريق أقارب له مستقرين فى الولايات المتحده. وكان الاستاذ حبيب دائم الانتقاد للادارة فى مصر وطبقا لما تعلم عبد السيد من والده فانه كان ناقم على مصر وأرسل لخاله خطابا ينتقد فيه بعض الاحوال ولم يكن له ادراك بمعنى الصراع العربى الاسرائيلى ولم يعرف أبعاده حيث أنه كان متأثرا بما ينشر فىالخارج.. وكان اللوبى الصهيونى له مريديه فى كافة وسائل الاعلام الغربيه ولما قصصت للاستاذ فؤاد ما جاء فى خطاب عبد السيد حبيب لخاله وكان الاستاذ فؤاد يزورنا بالصدفه – قال الأستاذ فؤاد:

– إحنا مهمتنا اننا ننقل الحقائق لاولادنا فى الخارج.. مش نسيبهم يتأثروا بأكاذيب الدعاية الصهيونية

– يعنى تحب حضرتك تبعث له توضيح للمسائل.. تحب اجيبلك عنوانه من خاله يأستاذ فؤاد؟

– ياريت.. ده واجب على كل مصرى أن يوضح الحقائق لطيورنا المهاجره

وتم الاتصال بخال عبد السيد وكتب الاستاذ فؤاد الخطاب التالى وأرسله إلى الولايات المتحده:

خطاب من فؤاد إلى عبد السيد حبيب

رداً على الخطاب الذى يلقى فيه باللوم الاعلام والمرسل لسعيد

"لم يكن العداء بين العرب واسرائيل نابع من الاختلاف فى الدين فاليهود كانوا يتمتعون بوضع مالى متميز فى الدول العربية وكان يطلق عليهم لفظ "ملوك التجارة" .. ومن يتتبع تاريخ شملا وصيدناوى وداود عدس وشيكوريل وجاناكليس يعرف أن اليهود ساروا فى خط الاجانب القادمين إلى مصر والذين عرفوا كيف يصبحون اثرياء. ولكن الصهيونية هو مبدأ سياسى يلتف برداء الدين تحت ادعاء التجمع حول جبل صهيون ليكونوا دولة هناك. وقد استفادوا من وجود الخلافات العربية بين الاسر الحاكمة.. فقد كان هناك صراع بين السعوديين والهاشميين وكانت المنازعات بين الاسر الحاكمة وبين الافراد المختلفة سببا فى تفرق العرب فى حين كان هناك تخطيطا اسرائيليا دقيقا ومدروسا ومدعم ماليا وسياسيا وعقائديا – وان كان مؤتمر بازل عام ١٨٩٧ هو الشكل

الرسمى لوضع الخطط فى حيز التنفيذ الا انه كان هناك استمرارية تجميع الصفوف وتحديد الهدف الذى كانوا يسعون اليه فى تكوين دولة لهم.. هل العرب هم الذين شردوا اليهود فى الماض مثلما يفعل اليهود الآن فى تشريدهم للعرب فى فلسطين؟ كان هناك سبى بابل لمدة سبعون عاما وكان ذلك على يد نبوخذ نصر وشردهم الرومان عام ٧٠م عندما هدموا أورشليم وفى الاسكندرية فى القرن الاول والثانى الميلادى كان يقطنها حوالى مليون يهودى وحدثت بينهم وبين الاغريق والرومان مصادمات عنيفة.

كانت سياسة اليهود تتمثل فى وضع "حارة اليهود" فى كل مكان يسكنون فيه وحارة اليهود تمثل سياسة التجمع بالنسبة لهم مع وجود تنافر مع المحيطين به وقصة "حارة اليهود" وصراعها مع السكان الاصليين تكررت على مر العصور سواء فى الشرق أو فى أوربا بل أن اسرائيل نفسها الان تشكل نفس فكرة "حارة اليهود" القديمة فهم أصبحوا فعلا فى جزيرة مغلقة تحيط بها بحار الكراهية لهم. كانت سياسة اليهود منذ أن خرجوا من مصر على يد "موسى" واستقرارهم فى فلسطين بعد طرد الكنعانيين اصحاب البلاد الاصليين هو اللعب على الحبلين باستمرار بمعنى انهم يحتفظون بسياسة الاقتراب من الاقوياء الذين يحمونهم وقت الحاجة.. وكانت مصر القديمة تقوم بدور حمايتهم فى مواجهة القوى القادمة من الشرق وكان هذا عندما كانت مصر قوية اما عندما ضعفت مصر ولم ينجح اليهود فى استقطاب الغزاة القادمين من الشرق تعرضوا لسبى بابل فترة سبعين عاما. وفى اثناء الحكم الرومانى كانوا يجذبون لصفهم الولاة.. وكان اسلوب المؤامرات والخداع هو اسلوبهم وقرائتنا فى الكتاب المقدس تبين انهم فى تآمرهم على يسوع قالوا للوالى الرومانى "ليس لنا ملكا غير قيصر" وذلك عندما سألهم بيلاطس البنطى "ماذا افعل بملك اليهود؟"

– وكان يعنى السيد المسيح – فمن أجل استصدار حكم ضد يسوع قالوا "ليس لنا ملك غير قيصر" واصطدموا بقيصر عام ٧٠م وهدم لهم اورشليم ولم يبق فيها حجر على حجر مثلما تنبأ السيد المسيح بقوله:

"يا اورشليم يا أورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها، كم مرة اردت ان اجمع اولادك معا كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها، ولكنكم لم تريدوا". وفى موقف آخر بينما كان يغادر الهيكل قال له احد التلاميذ: "يا معلم، انظر ما أجمل هذه الحجارة

وهذه المبانى "فأجابه يسوع: أترى هذه المبانى الحديثة؟ لن يترك منها حجر على حجر الا ويهدم، وتم ذلك عام ٧٠م.

واثناء الحرب العالمية الاولى كانت هناك جماعة تساير الالمان وجماعة تساير الانجليز.. والجماعتنان متحدتان فى الهدف. ولما نجحت الجماعة التى تساير الانجليز فى الحصول على وعد بلفور سنة ١٩١٧ قامت الجماعة الثانية التى كانت تتظاهر بالانتماء لألمانيا بسحب الارصدة من البنوك الألمانية مما تسبب فى ازمة اقتصادية تسببت فى هزيمة ألمانيا اقتصاديا رغم أنها لم تهزم عسكريا لأن الالمان كانوا لا يزالون يحتلون جزء من فرنسا وقت توقيع الهدنة، وعندما علا نجم امريكا تجمع قادتهم حول القوة الجديدة والتى اصبحت بالنسبة لهم "ماما امريكا" ومع ذلك كان هناك يهودا تمكنوا من الحصول على دعم روسيا لهم وكان هو الشئ الوحيد الذى اتفقت فيه وجهتى النظر الامريكية والروسية فى مجلس الامن فكلاهما صوتتا لصالح قيام دولة اسرائيل"

وبعد أن قرأت خطاب الاستاذ فؤاد انتابتنى خواطر كثيرة وأمسكت قلمى وسجلت تحت عنوان "اذكر يا تاريخ":

"إن اكبر خطأ ارتكبه واضعى السياسة الداخلية هو تفتيت الجبهة الداخلية بل ان سياستهم غير المدروسة والرعناء هى السبب فى كل الازمات والمشاكل وبسبب تفكيرهم الضيق واخطائهم اصبحت كلمة "ازمة" هى اكثر الكلمات استخداما ولم يبحث احد سبب الازمة أو كيفية مواجهتها أو كيفية حلها بل كان هناك المتخصصون فى ايجاد التبريرات غير الحقيقية لكل مشكلة تحدث.. فندرة السلع وغلاء اسعارها يرجع إلى جشع التجار وازمة الاسكان ترجع إلى استغلال اصحاب الاملاك مع انهم وقع عليهم ظلما كبيرا مع استمرار التخفيض للايجارات.. وكان هذا العامل هو السبب المباشر لفقدان الثقة بين اصحاب الاملاك والسكان وتسبب فى استفحال المشكلة حتى اصبحت مشكلة مزمنة لا حل لها.. ولا انسى تعليق عزت بك:

– الحكومة بتلهى الناس وتشبك الناس فى بعضها وهى حطت ايديها فى جيب اصحاب الاملاك وادت للسكان.. لكن بصراحة هى اديتهم (خازوق كبير)... فأيه معنى تخفيض جنيه أو اثنين أو ثلاثة قدام خلق ازمة إسكان؟

ان كلمة "ازمة" اصبحت اكثر العملات استعمالا ولان كلمة "ازمة" مكروهة من الناس فان وسائل الاعلام تحت ارشاد عباقرة الكذب والخداع اوجدت أباء تلصق بهم تهمة

انجاب أى ازمة فأزمة المواصلات يكمن خلفها زيادة السكان.. وكأن مطلوب من السكان الا يتزوجوا والا ينجبا حتى يستطيع السيد الوزير ان يحل ازمة المواصلات.. اذن الناس هم المخطئون فلولا زيادة السكان فما وجدت كل هذه المشاكل المتمثلة فى ضيق الشوارع وقلة وسائل النقل وعدم وجود أماكن كافية للطلبه فى المدارس فاصبحت هناك ثلاث فترات فى المدرسة الواحدة والفصول التى كانت تستوعب ما بين خمسة وعشرين أو ثلاثون طالبا تضاعفت بها الاعداد. والأنشطة المدرسية اصبحت حبرا على الورق فقد أهملت اراض الملاعب واقاموا مبانى عليها.. واصبحت ميزانيات الرحلات هزيلة فيتم عمل رحلة سنوية أو نصف سنوية إلى مكان ما داخل الاقليم والشئ الوحيد الذى حافظت عليه وزارة التربية والتعليم هو رحلة الاقصر واسوان للصف الثالث الثانوى.. واعتقد أن هذا النشاط سستوقف حتما لان الناس هم السبب فى الهزيمة وفى نقص الموارد المادية!!

اما زوار الفجر فهم سبب فقدان الشعور بالأمن والأمان وزادت القرارات الاستثنائية وزادت سلطة مراكز القوى واصبح الناس يخشون من زوار الفجر ومن الاعتقال.. لدرجة أن انتشرت بعض النكت الساخرة المبالغ فيها:

منها "ان المخبر قبض على شخص مسيحى على أنه من الاخوان وعندما عرف بانه مسيحى قال "يبقى شيوعى" بل وظهرت المبالغة فى النكته بأنه: "يبقى الوزير المسيحى فى حكومة الاخوان"!! والعجيب أن أحد المحللين السياسيين اتهم الناس بالسلبية وهو يعرف جيدا بأن الناس معذورون فى هذا لانهم دفعوا دفعا إلى هذه السلبية بسبب الرعب والخوف. ان مراكز القوى تناست ان هؤلاء السلبيين هم انفسهم الذين خرجوا وهللوا لقيام الثورة لان الثورة هى صوت الجماهير الغاضبة من تسلط الملكية والاقطاع ومن وجود المستعمر الاجنبى.. وأن هذه الجماهير هى التى تطوعت بدافع وطنيتهم وقت ان تعرضت مصر للعدوان الثلاثى عام ٥٦ وهم الذين خرجوا يومى٩، ١٠ يونيو وطالبوا الرئيس جمال عبد الناصر بعدم التنحى وأن يستمر فى التجهيز لمعركة الشرف.

ان النكسة ليست موجهة فقط ضد مصر بل ضد كل القوى الوطنية فى الوطن العربى وسيعرف الشامتون فى هزيمة مصر من الحكام العرب بأن هناك الحقيقة الخالدة التى تنبأ بها شاعر النيل حافظ إبراهيم فى قصيدته عن مصر:

انا ان قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

هذه هى الحقيقة الخالدة سواء رضوا بها ام لم يرضوا ولكن كـل العقـلاء يفهمـون هـذا ويعملـون مـن أجـل التكـاتف لـدرء الخطـر عـن المنطقـة كلهـا إذا قـال اصحـاب الـثروات البترولية بأن هذا لا يعنيهم فسيأتى اليوم الذى يدركون فيه أن وحدة الصف العربـى معنـاه الدفاع عن مصـالحهم أيضاً فالتهديد ليس موجه ضد الشعب الفلسطينى ومن يساندونه سواء مصر أو سوريا بل أيضاً سيوجه نحو الدول الأخرى عندما يأتى عليها الدور."

ظهور السيدة العذراء

حضر لمنزلى الأستاذين ميخائيل وفؤاد بعـد زيـارتهم لأولادهـم فـى المعسـكرين. وقد حضرا خصيصاً لكى يستفسرون عما سمعوه عن ظهور طيف العذراء فوق قبـة الكنيسـة بالزيتون. وقد اتفقنا أن نذهب إلى الكنيسة الساعة السـابعة مسـاءً علّنـا نسـتطيع أن نشـاهد طيف العذراء مريم ونرى الحمام المصاحب للظهور النورانـى ودار الحديـث التـالى اثنـاء جلوسنا فى البلكونة :

ميخائيل : إيه المعنى وراء ظهور السيدة العذراء مريم فى هذا التوقيت بالذات ؟

فؤاد : اعتقد إن دى اشارة من السماء عشان تثبيت إيمانـا.. عشـان نقـدر نعبر محنتنـا بسلام.

سعيد : زملائى فى المكتب مش مصدقين إن ده حصل.. يعنى بصراحـة بيشـككوا فـى الموضوع.

فؤاد : واحد صديقى اتكلم مع العمـال اللـى شـافوا أول يـوم لظهـور السـيدة العـذراء.. وقالولى إن الخفير اللى كان فى جراج هيئة النقل العام هو أول واحد شـافها واسـمه عبـد العزيز على ولما صاح اجتمع حوله السيد / مأمون عفيفى، والسيد /حسين عـواد، والسـيد / ياقوت على.

ميخائيل : والجراج ده بعيد عن الكنيسة؟

فؤاد : ده قدام الكنيسة.. والخفير نادى علـى زملائـه لمـا شـاف طيـف السـيدة العـذراء يتحرك إلى قبة الكنيسة.. وكـانوا فـاكرين إنهـا فتـاة ناويـة تنتحـر.. بعـد كـده زاد الطيـف لمعاناً.. وأطفاءوا أنوار الجراج لأن بعضهم فكر بأن فيه ضوء انعكس علـى القبـة.. لكـن الطيف استمر.

ميخائيل : ليتمجد اسمك ياعذراء يأم النور.

سعيد : أعتقد أن لازم البطريركية تصدر بيان عشان تبطل اللغط بتاع الغوغاء.

ميخائيل : لازم تمر فترة... ولازم يتكرر ظهورها.. عشان يكون فيه شهود عيان أكثر.. عشان مايجوش فى المستقبل.. ويقولوا أن كام واحد طلعوا إشاعة.

فؤاد : بالضبط كده.. والبطريركية حريصة على ايضاح الحقائق بالبراهين.

سعيد : ملاحظين يا جماعة أن عصر البابا كيرلس ظهرت فيه معجزات ؟

ميخائيل : البابا كيرلس راجل قديس بصحيح.. وبركة.. وعنده شفافية عجيبة..

فؤاد : أنا لى رأى شخصى فى موضوع الظهور ده.. وده رأى شخصى لكنى بأحس إن له دلالاته.

سعيد : إيه هو يأستاذ فؤاد ؟

فؤاد : ظهور أم النور رد على الاشاعات المغرضة اللى بتنشرها الجماعات إياها عن المعركة.

ميخائيل : أى إشاعات يأستاذ فؤاد ؟

فؤاد : قالوا إن إسرائيل انتصرت لأنها دولة دينية.. وإن أحنا كمان لازم نبقى دولة دينية عشان ننتصر !!

سعيد : ده كلام خطير جداً.. والكلام ده ممكن إنه يفتت الوحدة الوطنية.. يعنى يحدث شرخ عميق فى النسيج الوطنى.

ميخائيل : وإشاعات زى دى تؤكد وجود هيئة خارجية بتشجع نمو الجماعات المتطرفة.. واحتمال كبير أنها بتمول الجماعات المتطرفة.

فؤاد : حماك الله يامصر !! وأنا شخصياً لا أستبعد ابداً أن إسرائيل نفسها بتغذى الاتجاه دى.

سعيد : معقول يأستاذ فؤاد؟ وإيه مصلحة إسرائيل فى كدة؟

فؤاد : وهى إسرائيل حاتلاقى حد يحقق لها أهدافها اكتر من الجماعات المتطرفة؟

وتحققت سعادتنا الكبرى بمشاهدة ظهور العذراء البتول أم النور.. وظهور الحمام المصاحب للظهور. وكان لابد للكنيسة أن تقول كلمتها وبعد الدراسة والبحث الدقيق أمر قداسة البابا باصدار بيان بابوى عن هذا الظهور يوم السبت ٢٦ برمودة سنة ١٦٨٤ الموافق ٤ مايو ١٩٦٨ فى مؤتمر صحفى عقد فى المقر البابوى وحضره عدد كبير من رجال الصحف ووكالات الانباء والإذاعة فى مصر والخارج ومن بينهم صحفيين

حضروا خصيصاً من الخارج هذا المؤتمر. وقام نيافة الأنبا أثناسيوس أسقف بنى سويف بتلاوة البيان باللغة العربية ثم باللغة الإنجليزية.

(بيان من المقر البابوى بالقاهرة)

منذ مساء يوم الثلاثاء ٢ إبريل ١٩٦٨ الموافق ٢٤ برمهات ١٦٨٤ توالى ظهور السيدة العذراء أم النور فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التى باسمها بشارع طومنباى بحى الزيتون بالقاهرة.

وكان هذا الظهور فى ليال مختلفة كثيرة لم تنته بعد، بأشكال مختلفة، فأحياناً بالجسم الكامل وأحيانا بنصفه العلوى، يحيط بها هالة من النور المتلألىء، وذلك تارة من فتحات القباب بسطح الكنيسة، واخرى خارج القباب وكانت تتحرك وتتمشى فوقها، وتنحنى أمام الصليب العلوى، فضئ بنور باهر، وتواجه المشاهدين، وتباركهم بيديها وإيماءات رأسها المقدس، كما ظهرت احياناً بشكل جسم كما من سحاب ناصع أو بشكل نور يسبقه انطلاق أشكال روحانية كالحمام شديد السرعة، وكان الظهور يستمر لفترة زمنية طويلة وصلت أحياناً إلى ساعتين وربع كما فى فجر الثلاثاء ٣٠ إبريل سنة ١٩٦٨ الموافق ٢٢ برمودة سنة ١٦٨٤ حين استمر شكلها الكامل المتلالئ من الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين إلى الخامسة صباحاً.

وشاهد هذا الظهور آلاف عديدة من المواطنين من مختلف الأديان والمذاهب ومن الأجانب ومن طوائف رجال الدين والعلم والمهن وسائر الفئات الذين قرروا يقين رؤيتهم لها. وكانت الأعداد الغفيرة تتفق فى وصف المنظر الواحد بشكله وموقعه وزمانه بشهادات إجتماعية تجعل ظهور السيدة العذراء أم النور فى هذه المنطقة ظهوراً متميزاً فى طابعة، مرتقياً فى مستواه عن الحاجة إلى بيان أو تأكيد.

وصحب هذا الظهور أمران هامان: الأول انتعاش روح الإيمان بالله والعالم الآخر والقديسين وإشراق نور معرفة الله على كثيرين كانوا بعيدين عنه، مما أدى إلى توبة العديدين وتغير حياتهم، والثانى حدوث آيات باهرة من الشفاء المعجزى للكثيرين ثبت علمياً وبالشهادات الجماعية.

وبدون سابق انذار يوجه كيوبيد سهمه نحوى ونحو فتاة رقيقة المشاعر وهادئة الطباع وحلوة الملامح وذات صوت أقرب إلى تغريد البلابل.. فعندما يقع الرنين الخافت لصوتها

الملائكى على طبلة أذنى تتحرك أوتار قلبى فيطير فرحاً مثلما طربت اذنى بسماع هذا الصوت الجميل.. أن هذه الفتاة هى الصورة الكامنة بداخلى لفتاة أحلامى.. فأنا رومانسى وأعشق الحب الهادئ الذى ينساب كالماء المتدفق برفق ويتجه إلى داخل قلبى وروحى.. والانسياب هنا يطفئ لهيب الشوق ويروى تعطشى إلى الدفء العاطفى الذى يصاحبه الاحساس بالسعادة والهيام.. هل هناك أعظم من الحب والمحبة؟ المحبة هى الرباط الرقيق الجميل المتين بين الناس.. أما الحب فهو محبة متجددة ونشطة لأنها توقظ الروح وتؤرق العاشقين ويتدفق منه الموجات التى لا تنقطع من الاحساسيس والفكر . أننا نجد العاشق يخاطب حبيبته كالآتى : -

"شغلتى بالى ليه" "ويا حبايبنا يا غايبين" ويتحدث عن حبيب "مسهرنى أيام وليالى.. شغل لى البال الخالى" بل أن الشعراء يتغنون بأثر الأحبة عليهم وأثر نظرات العيون والابتسامات ونسمعها فى أغانى مثل :

"رمش عينه اللى جرحنى رمش عينه"، "ضحكيتلى.. أيوه ضحكيتلى" فالنظرة تسحر الأحبة وسهام كيوبيد تخترق كل شئ فى الطريق إلى القلب بل وتخترق جدار القلب وتفتح بوابات القلب وتدخل وتتربع فيه.

الحب نعمة قاصرة على ذوى المشاعر الرقيقة والوجدان الدافئ أنه الالهام للشعراء والكتاب.. أنه الأمل بالنسبة للناس جميعاً.. إنه المحرك لكل كيان الإنسان.. الحب يترك الفرحة على الوجوه والنشوة داخل النفس والاقدام على الحياة ببهجة وسرور لأنه يمنح النظرة الوردية للحياة.. بل أن الأحبة تمتلئ قلوبهم بهذه العاطفة الجياشة وتلك الأحساسيس السامية فإنهم يحسون أن هذه العاطفة تشع على الجميع بل أن النظرة للناس تنطبع طبقاً لما يجول داخل النفس المحبة.

وقد عبرت أم كلثوم عن أثر مشاعرها وهى تحب بقولها "ولما بأشوفك جنبى بألاقى كل الناس احباب "أى أن حبها أضفى السعادة على كل من تراهم وتحس بأن المحبة تملكت الجميع.. ولكن مثلما يمنح الحب السعادة والهناء والبهجة والفرحة فإنه يسبب لبعض الناس الآهات والأنين واللوعة والفراق والسهد وربما التعاسة. وقد عبرت أغنية أم كلثوم عن الحب بقولها :

:الحب كده.. واهى من ده وده" ونجد عذاب الحب أكثر عمقاً تسمع أغنية "عذاب.. عذاب يا دنيا عذاب" يرددها من تعرض لصدمة حولته من عاشق ولهان ينتظر وقت اللقاء

ويردد "أحلى الأمانى فيك يازمان.. لقى الحبة فى كل أوان" إلى إنسان محطم يجعله يسمع "شدو البلابل نواح" وينعى حظه ويقول "وعمر جرحى أنا أطول من الأيام" وتَسْوَد نظرته للدنيا ويخاطبها "يادنيا.. إيه لسه عندك كمان.. هاتى اللى يرضيكى يا دنيا".

ويخاف الكثير من الناس الوقوع فى الحب حتى لا يكون مصيرهم مصير مؤسف مثلما حدث لروميو وجوليت وقيس وليلى وحسن ونعيمة.. فالحرمان قاسى ومعظم الأحبة تعرض لاضطهادات ومضايقات.. ودائماً يوجد العزال.. ومهما تترجاهم "جرى إيه يا عزال شغلتوا بالنا ليه؟ "فإنه لا يهنأ لهم بال إلا بعد الوقيعة بين الأحباب وكأن قصة الشيطان الناقم على آدم وحواء وهم فى الجنة تدفعهم إلى الوقوع فى خطأ تسبب فى طردهم من الجنة.. فكهذا يعمل الأوغاد فى التفريق بين الأحبة.. وقد تكون الظروف القاسية هى التى أوجدت فى طريق الأحبة زوجة أب شريرة تفرق بين القلوب الدافئة.. وقد يكون زوج أم غير آدمى يقوم بنفس الدور القذر.. وقد تكون شابة أخرى فشلت فى الاستيلاء على قلب نفس الرجل فتلعب دور العزول القذر.. إننى ألاحظ بأننا فى مصر نتوقع الشر أكثر من توقعنا للخير فحتى عندما نضحك ونحن مسرورين نقول : "اللهم اجعله خير' ربما بسبب ما حاق بلادنا من تاريخ طويل من الاحباط والاحتلال بعد أن كنا أعظم دولة فى العالم القديم.. وأصحاب أول حضارة خالدة ظهرت على ظهر البسيطة ولازال الناس من كل أركان الدنيا يأتون وينبهرون من الاهرامات والمعابد والموميات.. ومن الدلائل على التقدم فى مجال البناء المعمارى والطب والدين.. فديانة قدماء المصريين التى آمنت بالخالق الواحد وبالحياة الآخرة ويوم الحساب هى التى حفزتهم على حفظ الجسد بتحنيطه وبنوا المقابر والمعابد والاهرامات من حجارة بينما بنوا قصورهم من الطين لأنهم كانوا يدركون أن حياتهم على الأرض قصيرة.. كما نجد تقدمهم فى حياتهم اليومية فكانت هناك النظم الاجتماعية التى تربط الإنسان بمجتمعه وبأسرته.. وتركوا تعليم وحكم ونصائح لكيفية التعامل مع الناس ومع الزوجات والابناء.. ثم مررنا بعصور ظلام عديدة ولكن انقشع الظلام على فترات.. ولكنا نأمل أن تشرق شمس الحرية علينا عندما نكمل الاستعداد ونخوض معركة الكرامة والشرف.. وسأفرح مثل كل المصريين ولأن قلبى ينبض بالحب والسعادة فإن تفائلى يزيد لأننى أريد أن أسعد مع حبيبة قلبى وسط الناس الفرحين بيوم النصر بأذن اللـه.. وكما قال مصطفى كامل : "لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة". ومثلما نشتاق ليوم تحرير أرضنا فإن قلبى يشتاق إلى

النبضات التى تنتج عن ومضات الحب التى حركتها وأطلقتها هذه الفتاة الحالمة والتى عرفت أن إسمها "وفاء" وأتمنى من المولى أن تكون اسماً على مسمى وأن تكون مبعث الدفء فى قلبىومبعث النور فى حياتى ومبعث الأمل فى مستقبل السعادة والهناء.

ولأن الحياة هى مزيج من الحب والكراهية ومن البناء والهدم ومن الأحباب والأعداء ومن المؤيدين والمعارضين، فإننى تعرضت لتجربة غريبة مع نمط غريب من الجنس البشرى- نمط مدهون من الخارج ويردد كلمات خادعة وكأنه قديس ويحفظ آيات كثيرة من الكتاب المقدس بل إنه يقوم بالخدمة فى مدارس الأحد ويعظ الأطفال بعمل الخير، ولكن أفعاله تتناقض تماماً من الكلمات التى يرددها أمام الناس ليظهر كأنه إنسان ورع ولكن اسمه بالنسبة لى يزعجنى دائما وإننى أكره اسم "فيكتور"....

ولن أنسى ما حدث لى مع فيكتور" والذى غيّر طريق حياتى كلية.. وترجع صلتى بفيكتور منذ الطفولة .. وكنا سوياً فى نفس مدارس الأحد حيث أننا نعيش فى نفس الشارع، ويعتبر فيكتور زميلاً وليس صديقاً.. وكان يحكى لى أحياناً عن أفعال والده مع والدته.. فقد كان الوالد عنيفاً فى تعامله مع المحيطين به وكما قال لى فيكتور ذات مرة :

- أنا لما أكبر حادى مصروف ماما خمستاشر قرش.. مش عشرة صاغ زى ما بابا بيديها وبيخليها تعيط.

- وأنت حاتطلع إيه يا فيكتور ؟

- أنا حأطلع دكتور.. عشان أكسب كثير.

- ومش حاتشتغل ترزى فى دكان باباك ؟

- لا.. لا.. بابا بيشخط فى العمال بتوعه.. وفى ماما.. وفينا كمان.

- يعنى الدكتور مش بيشخط يا فيكتور ؟

- لا... أنا رحت مع ماما عند الدكتور.. لما كنت عيان.. وكان لطيف ورقيق.. وقال 'عال يا فيكتور.. أفتح بقك كده".. وبعدين ضحك وقال ما تخافش.. خد الدوا ده وأنت تروق.. وكمان سلم على.

كانت معاملة والد فيكتور للعاملين معه فى محله سبباً فى ترك العمال باستمرار لمحله.. وكانت والدته طيبة وتحملت قسوة والده.. وكانت تُعلّم اولادها الصلاة باستمرار.. لكن كان الخ الاكبر ويدعى "لويس" ناقماً على المجتمع بأسره اكثر من نقمة فيكتور على المجتمع. وكانت لذة لويس تكمن فى كتابة الشكاوى باستمرار للمسئولين.. وكانت هذه هى

هوايته.. وهى تكمن فى كتابة الشكاوى باستمرار للمسئولين.. وكانت هذه هى هوايته التى لم يتركها.. واستمر يمارس هوايته المفضلة فى كتابة الشكاوى باستمرار للمسئولين.. وكانت هذه هى هوايته التى لم يتركها.. واستمر يمارس هوايته المفضلة فى كتابة الشكاوى ضد رؤسائه وزملائه فى الوحدة الصحية.. واكتشف زملائه بانه يراقب كل شئ ويتعامل مع زملائه بتعالى.. وعندما تم تحويله على الكشف الطبى بالعيادة النفسية نتيجة لكتابة زملائه شكاوى عنه بأنه غير طبيعى فى سلوكه معهم ومع الناس، اتضح بانه كان مصاباً "بالبارانوبيا" أى "الشعور بالعظمة" وهذا مرض نفسى يحتاج لعلاج طويل.. اما فيكتور فقد أصبح مدرساً وكان يعانى من الشعور بالاضطهاد وكان منطوياً ولكنه كان دائم المشاغبة. ولم يكن له غير صديقين فقط.. وبسبب وضعى كمحقق فى التربية والتعليم كان على أن انتقل إلى المدرسة الاعدادية التى كان يعمل بها لكى أحقق فى الشكوى التى قدمها ناظر المدرسة ضد المدرسين الذين تشابكوا بالايادى بعد تبادل السباب والقذف العلنى.. كان الصدام بين المدرسين والتنابذ بالالفاظ النابية والامساك بالايدى ثابتاً فى التحقيق المبدئى الذى قام به وكيل المدرسة وعندما أعدت التحقيق معهم لم يكن أمامى سوى توقيع العقوبة على كل المشتركين فى هذه المهزلة التى حدثت فى معبد العلم والتربية.. فالمدرسون يجب أن يكونوا قدوة للطلاب لأنهم يعتبرون البديل للأب بالنسبة للطلاب.. وكان يمكن توقيع عقوبة النقل ولكن رئيسى فى قسم التحقيقات أشار على بالاكتفاء بلفت النظر وخصم خمسة ايام لكل من اشترك فى هذه المهزلة.

أعتقد فيكتور بأننى أمارس سلطتى ضده.. وأننى خائن "لابن الحتة" فلم أقم بحمايته.. وزادت نقمته على.. ولاحظت أنه أخذ يتتبع خطواتى ويراقبنى حتى عرف مواعيد خروجى من المنزل بعد الظهر بل وصعد نفس الترام الذى ركبته.. ولم انتبه إلى أى شئ سوى ركوبه نفس الترام وبعد ثلاثة أيام وجدته يقف مختبأ وراء شجرة بالقرب من كتب المحامى الذى اعمل عنده ثلاث مرات فى الأسبوع لأن الاستشارات القانونية المنزلية كانت محصورة فى الأقارب – أى مجانية – أو المعارف فكانت بأجر بسيط.

ولأننى أريد أن يزيد دخلى من الخمسة عشر جنيهاً التى اتقاضها من عملى بالحكومة فقد فكرت فى العمل عند محامى معروف وتربطنى به صلة قرابة من بعيد.. وكانت مهمتى تنحصر فى دراسة القضايا وكتابة المذكرات وكان المحامى ومساعديه يقومون بالمرافعة فى ساحة القضاء.. وطبقاً للقوانين فقد خالفتها لأنى أقوم بعمل آخر خلاف

عملى الرسمى.. وكانت مفاجأة لى عندما وجدت فيكتور أمامى فى مكتب المحامى - وكانت طريقته فى التحية غير ودية وتنم عن المكر والتهديد فبادرته بالتحية وأشرت له بيدى بأن يتفضل بالجلوس.. وبعد أن جلس أعدت عليه أسلوب الترحيب الودى :

- أهلا وسهلاً يا استاذ فيكتور .. شاى وألا قهوة وألا بيبسى ؟

- دلوقتى يا استاذ فيكتور.. وفى التحقيق تترسم على ؟

- روق دمك الأول.. وبعدين نتكلم.. تشرب إيه ؟

- قهوة سادة عشان تعدل مزاجى.. ونتكلم بهدوء.

وطلبت من الساعى احضار القهوة والقيت نظرة سريعة على فيكتور فرأيته ينظر حوله على المكتب الفاخر وقال ساخراً :

- أيوه يا عم.. مأنت وصلت وبقالك مكتب فى وسط البلد.. ولازم تركب وتدلدل على الغلابة إلى زينا.

- لا أنا ركبت ولا دلدلت.. لأننى أنا نفسى غلبان.. وما يضايقنيش أن أنا اتولدت فقير.. ولا أنا لسه فقير.

- أنت بتبعد العين عنك؟.. أنا مش حسود.. عينى مش حأحسدك.

- تحسدنى على إيه يا أستاذ فيكتور؟

- سيبك من كلمة أستاذ وقولى زى زمان لما كنا جيران.. يعنى تقولى يا فيكتور وأنا أقولك يا سعيد.

- ماشى يا فيكتور.. أى خدمة أقدر أقدمها؟ .. بس تكون فى استطاعتى.

- هى فى استطاعتك.

- إيه يا ترى الخدمة ؟

- ترفع لى قضية ضد الوزارة عشان يرفعوا عنى لفت النظر والخصم.

- واشمعنى أنا اللى حأرفعها؟ ده أنا مجرد زائر فى مكتب قريبى.. يعنى بأجى اتسلى.. وأهه نوع من التدريب على ايدين محامى كبير مشهور.

- خلى قريبك يرفع القضية.. وأنت تحقق من تانى.. وترفع العقوبة.

- ما المحامين مالين البلد.. وإذا كنت حاسس أنى ظلمتك- وده ماحصلش - يبقى القضاء حايديلك حقك.. ده إذا كان ليك حق.

فوقف فجأة ونظر إلى نظرة نمر مستعد للأنقضاض على فريسته.. وأحسست أن لسانى توقف عن الكلام.. وحتى حلقى توقف عن الحركة.. وأحسست وكأن حلقى اصبح جافاً.. ولم اتحرك من مكانى.. ودار بمخيلتى فيلماً من بعض مواقف سابقة حدثت من فيكتور.. فقد كان قد اوقع بين مجموعتين من الشباب.. ونقل كلاماً لم يحدث كله وآثار النفوس لدرجة أننا تشابكنا بالأيدى وكان هو واقف يتلذذ من منظر الاشتباك والكلمات والدم الذى يسيل من الجروح – وأسرع أمين مدارس الأحد وقتها ومعه بعض مدرسى مدارس الأحد وحجّز بيننا.. وأخذونا إلى داخل المبنى.. وأخذ أمين مدارس الأحد يحقق فى أسباب الاشتباك الهمجى وأخذ يوجه لنا اللوم على هذه التصرفات الصبيانية الطائشة قائلاً :

– أمال جايين مدارس الأحد ليه ؟ جايين مدارس الأحد ليه إذا كنتوا حاتعملوا زى البلطجية بتوع الشوارع؟ مدارس الأحد بتعلمنا الاخلاق والذوق والمعاملة الحسنة والكلمة المهذبة.. لكن للأسف فيه شيطان دخل بينكم.

كان هذا الشيطان هو فيكتور الذى قام بتوصيل كلام واضاف عليه كلام من عنده كلاماً يثير الحفيظة.. أى أنه قال الحقيقة التى لا تتعدى كلاماً ينم عن المنافسة ولكنه اضاف من عنده عبارات استفزازية وقام الجانب الأخر بالرد على هذه الكلمات الاستفزازية بكلام أكثر استفزازاً حتى كان الجو مشحوناً وقت العتاب ينقلب إلى عدوان فقامت الاشتباكات هذه.. وأدرك أمين مدارس الاحد كل الحقيقة.. وقام بلوم فيكتور لوحده فيما بعد.. ولكنه قام وقتها بتوبيخنا لما بدر منا.. وقال :

– مأحنا بنتعرض كل يوم لشدائد.. وسنتعرض كل وقت لمحاربة الشيطان.

لكن الذكى فينا هو اللى مايخليش الشيطان يغلبه.. وربنا إدانا مخ عشان نفكر بيه ونوزن الأمور.. وما نصدقش كل اللى يتقال.. لأن المثل بيقول "ماشتمك إلا اللى بلغك".

وقام أمين مدارس الأحد بتصفية الجو بيننا.. ودارت كل ملابسات هذا الحدث أمامى بسرعة وأنا جالس محاولاً التماسك والسيطرة على أعصابى فى الوقت الذى وقف فيه فيكتور أمامى.. ونظرة الغضب تعلو كل وجهه وليست عينه فقط.. وأتى الفراش بالقهوة فلم يعره فيكتور انتباهاً وقال لى وهو يغادر المكتب :

– ابقى اشربها أنت.. ولازم .. لازم.. حاخليك تشربها وتدفع ثمنها غالى ولم يمضى أسبوع على هذه المقابلة حتى وجدت محققاً من الوزارة قادم لمكتبى فى المنطقة التعليمية

ليأخذ أقوالى فيما جاء فى الشكوى المقدمة من لويس سيدهم وهو الأخ الأكبر لفيكتور والمتخصص فى كتابة الشكاوى الجامعة الحاوية لكل التفاصيل.. بل أنه ادرج اسماء الموكلين الذين امتدحوا كفاءتى فى عمل مذكرات فى قضاياهم التى رفعوها عند المحامى قريبى.. بل التقط صورة لى وأنا جالس إلى مكتبى ودوسيهات القضايا أمامى وأتحدث مع احد الزبائن المذكورين وهذه الصورة التقطها شقيق الموكل المذكور للذكرى.. ولا أعرف كيف وصل إليها.. بل ربما قد دفعه هو إلى التقاطها بحسن نية واستغلها لويس هذا.. وأكثر من ذلك أحضر شهوداً شهدوا برؤيتهم لى فى كتب قريبى.. وعرفت فيما بعد أنه هو الذى أرسلهم بحجة وجود قضايا لهم يريدوننى أن أترافع فيها عنهم ثم اصبحوا شهوداً ضدى.. باختصار أصبحت مُدان.. رغم أننى لم أمد يدى فى كل حياتى لأى قرش حرام.. كل جريمتى فى نظرهم هو القيام بعمل آخر خلاف عملى بالحكومة.. وصدر قرار بنقلى إلى كفر الشيخ والتوصية بأخذ تعهد علىَّ بعد م ممارسة عمل المحاماه خارج نطاق عملى الحكومى مع خصم خمسة عشر يوماً من مرتبى عقاباً لى على ارتكابى هذه المخالفة.. وكانت هذه أول صدمة لى فى مجال العمل.. وأتى أستاذى فى مدارس الأحد وهو أمين مدارس الأحد الذى وبخنا يوم المشاجرة مع بعضنا وقال لى :

– أنت ما تعرفش الخير فين.. أنت تصلى لربنا أنه يرشدك إلى ما فيه الخير.

– يعنى لما أروح كفر الشيخ.. يادوب مرتبى حايقضينى بالعافية.. طيب حأقدر اساعد أهلى ازاى؟

– معلهش.. نفذ عشان ماتخسرش وظيفتك.. وقدم شكوى والتماس للوزارة.. وترجع لمصر بعد كام شهر.. وأهى تجربة وتتحملها.

– بس جايز التجربة تطول.. وده معناه معاقبة أسرتى اللى ما ارتكبتش ذنب.. وبعيدين حتى لو كنت أرتكبت خطأ من وجهة نظرهم.. يعنى خطأ بس.. والحمد لله ماعملتش حاجة تسئ للاخلاق ولا للسمعة الحسنة وماقمتش بضرر حد.. فازاى يكون العقاب بالقسوة دى؟

– أحب أفكرك بقصة يوسف.

– يوسف مين.. وبخصوص إيه؟

– لما زوجة فوتيفار اتهمته ظلماً بأنه حاول الاعتداء عليها مع أنه هو اللى رفض أنه يطاوعها على الخطيئة.. وقالها أنه مايقدرش يخون سيده.

– وإيه علاقتى أنا بقصة يوسف؟

– لما راح يوسف ظلما للسجن.. هناك فى السجن قابل "الساقى" بتاع الملك ولما حلم الفرعون حلمه اللى افزعه ثلاث ليال متكررة.. كان يوسف هو اللى فسره.

– أنا مش فاهم قصد حضرتك إيه من القصة دى ؟

– لما الفرعون حلم بالسبع بقرات النحاف اللى التهموا السبع بقرات السمان وقام يوسف بالتفسير.. فالملك خلاه الوزير المسئول من تدبير أمور التموين وقام بتخزين الحبوب عشان فترة السبع سنين العجاف.

– ودخلى أنا إيه بقصة يوسف وفرعون؟

– دخلك هو الاستفادة من الحكمة اللى وراها.. فدخول يوسف للسجن ظلماً كان فرصته لأنه يبقى الرجل الثانى فى مصر.

دارت قصة يوسف أمام مخيلتى كأنها فيلم وفى كل مرة تدور فى مخيلتى كان يطرأ علىّ خاطر.. فقلت فى نفسى : "إن ذهبت لكفر الشيخ فهذا معناه تشريد اسرتى.. ومعناه استمرارى موظف مدى الحياة.. وأعيش على الدخل المحدود".. ومرت بخاطرى فكرة تتطابق مع الحكمة التى يقصدها أمين مدارس الحد من قصة يوسف.. وهى أن هذه التجربة تدفعنى إلى اتخاذ قرار الاستقالة من الوظيفة الحكومية.. ورغم أننى اخترت الوظيفة الحكومية وقت تخرجى ووجدت أن الخمسة عشر جنيهاً الثابتة خير من بدل الانتقالات التى يعطيها المحامى صاحب المكتب إلى المحامى الذى يكون "تحت التمرين" فأنا الآن قد تدربت بما فيه الكفاية.. وأعمل رسمياًلدى قريبى.. وحتى المبلغ الذى كان يعطيه لى مقابل كتابة المذكرات ودراسة القضية كان يزيد بمقدار عشرة جنيهات عن مرتبى الحكومى.. إذن لابد من اتخاذ القرار الذى ألهمنى إليه تحليلى لكل المواقف.. ومن يعلم؟.. ربما تريد السماء أن تدفعنى نحو مستقبل أفضل.. حتى وإن كان الفاعل الذى قصد به شراً... قد كان تنفيذاً لإدارة الله.. ففيكتور أراد بى شراً ولكن الله أراد بى خيراً.

ولم أنفذ أمر النقل لكفر الشيخ بل كتبت استقالتى من الوظيفة الحكومية كاسراً بذلك القاعدة السائدة "أن فاتك الميرى اتمرمغ فى ترابه" وذهبت بانتظام لمكتب قريبى وحدد لى مرتباً ثابتاً.. ضعف مرتبى الحكومى وبدأت أذهب للمحاكم بالنيابة عن قريبى وسأستمر كذلك حتى تنتهى فترة التمرين ووقتها يحق لى أن أترافع باسمى – يحق لى أن أرفع صوتى عالياً فى المحاكم ادافع عن الحق

وعن المظلومين فطالما أن أعوان الشيطان يتلذذون بمضايقة الناس حتى المسالمين منهم فلابد من وجود أنصار العدالة. لو ساد العدل لنعم الناس بالأمن والسكينة ولكن هناك بعض الأسئلة تلح علينا عندما نفكر فى دنيانا.. دنيا المتاعب.. ودنيا العجائب والسؤال الأول هو كيف نجعل العدل يسود؟ ومن الذى يضمن لنا سيادة القانون وتطبيق العدالة فى كافة الاحكام؟ كيف نضمن أن يحافظ القائمون على الحكم وعلى القضاء وعلى الإدارة القانونية والمدنية على السير على المبادئ السامية وأولها العدل بين الناس والعدل فى الاحكام والعدل فى توزيع الثروات والعدل فى منح الحقوق والعدل فى تكافؤ الفرص والعدل الدائم للجميع؟.. هناك بعض الأصوات والصيحات الغريبة تردد شعارات غريبة مثل "لا حرية لأعداء الشعب" ولا نعرف كيف حدد هذا المتحدث من هم أعداء الشعب.. أنه شعار يقصد به حرمان فئة من الناس من حقهم فى العدل وفى الحرية.. كيف اصدر مثل هذا المسئول حكمه على الناس وجعل اعدائه هو هم اعداء الشعب؟ فالحرية والعدالة لا تتجزأ مثلما لا تتجزأ المبادئ العليا.. إذا أردنا العدل والحرية حقاً فيجب أن تدعمهم قوى الشعب متمثلة فى الديمقراطية وفى حق التعبير عن النفس وحق حرية العقيدة وحق العيش الكريم وحق العمل فى سلام وأمان وحق الحصول على لقمة العيش دون اذلال أو هوان.

لقد تمكنت من تخطى الصدمة التى لاقيتها فى عملى والفضل فى ذلك يرجع إلى نظرتى الوردية للحياة والسر وراء هذه النظرة الوردية هو حبى لوفاء.. فكما يوجد ظلام متمثلا فى حب الناس وعلى الأخص حب مالكة قلبى.. وهذا الحب جدد الأمل امامى.. بل جعلنى أتمنى بشدة أن ينتهى الليل الطويل.. ولكنه التمنى فقط فالقرار ليس قرارى.. القرار مرتبط بمصير الأمة بأكملها أمة تعانى من الألم والضيق والكساد وتعطل الانتاج والتوتر وتقوع انفجار الموقف بحرب جديدة قد يتعجلها العدو ونحن فى أوائل مرحلة التجهيز لحرب التحرير.. أن الرؤية غير واضحة والمخاوف تنتابنا بسبب تأثير الصدمة التى لم تكن فى الحسبان.. والأحداث المتكررة لا تطمئن.. فقد حدث أن أستولى العدو على ردار من منطقة العين السخنة بالخديعة ونزل أفراد المجموعة التى قامت بفك الردار ونقله فى حضور عساكرنا لأن الأعداء ذهبوا مرتدين ملابسنا المصرية ولدى

الضباط المسئول عن هذه العملية أمر من القيادة بفك ونقل الردار فوراً إلى الداخل.. وتم نقله إلى إسرائيل.. وحرب الاستنزاف أزعجت العدو فقام بزيادة تحصيناته.. وكنا نخشى تفجر الموقف قبل الأوان.. وكانت هناك أحداث تعيد لنا الأمل وأهمها أسبوع اسقاط الفانتوم بالصواريخ التى انطلقت من حائط الصواريخ الذى تم تركيبه للدفاع عن العمق.

الأمل يجدد الطاقة والنشاط ويساعدنا على المثابرة والصبر وتحمل الضيم وتحمل الذل والمهانات فى انتظار الفرج.. والحياة بطبيعتها متجددة هناك الهدم ولكن هناك البناء.. نفس عملية هضم الطعام يتخللها الهدم والبناء.. وشعاع الحب الذى اخترق سدود اليأس والاحباط جدد الأمل داخلى.. الأمل فى غد مشرق.. وهذا جعلنى أعيد ترتيب أوراقى حتى أتمكن من تأمين مستقبلى المالى ويتلوه مستقبلى فى حياة زوجية سعيدة.. وكانت أول خطوة خطوتها هى استئجار لشقتين متلاصقتين فى عمارة يتم تشطيبها بعد عامين.. كل شقة عبارة عن حجرتين وصالة بهدف جعل أحدهما مكتب لى والأخرى سكنا لى.. لأن شقتنا التى نعيش فيها الآن وهى باسم والدى فكان ترتيبنا أن نجعلها لوالدتى وفادى بعد زواجى أنا والأختين المخطوبتين ولكن لا أستطيع أن أتخذ قرار زواجى قبل الإطمئنان على زواج سنية ووداد... وزواجهن مرتبط بانتهاء المعركة القادمة.. ولا أحد يستطيع تحديد هذا الوقت أما عن حبى فليس فى مقدورى أن اقاومه.. لقد تغلغل داخل نفسى وأصبحت وفاء هى الملكة المتربعة داخل قلبى وكيانى وروحى... لم يكن يقلقنى موضوع تجهيز الأختين لأن والدى رحمه الله كان يدخر لكل منا مبلغ فى دفتر التوفير يساعده فى سداد ثمن الأثاث عندما يحين موعد الزفاف.. وكان المبلغ الموجود لكل فتاة يكفيهما تماماً.. ولكن المشكلة تكمن فى تحديد موعد الزفاف خارج عن إرادتهم.. لأنه مرتبط بيوم تسريحهم من الجيش.. ولا أعتقد أنه يمكن تسريحهم من الجيش قبل معركة النصر.. وإذا كانت مشكلة سنية هى وجود خطيبها ضمن القوات المسلحة فإن مشكلة وداد مضحكة حقاً فإن خطيبها سامى لديه مشكلة أخرى وهى أن أخته مخطوبة لشخص مجند.. وكعادة أهل الصعيد عليه أن ينتظر زفاف أخته وبعدها يستطيع هو أن يتزوج والزفاف معطل ايضاً.. أنا شخصياً فى وضع الأب فمن

الحكمة أن أطمئن أولاً على الأختين.. وأنا أهدئ نفسى بأننى لن اتسلم شقتى قبل ثلاث سنوات وأملى أن تكون المشاكل الخاصة بالحرب قد انتهت.

كان سماعى صوت وفاء لأول مرة فى أتوبيس أعدته الكنيسة للذهاب إلى أديرة الفيوم.. وفى العادة نقوم بالصلاة من الأجبية فى الذهاب ونرتل الترانيم الدينية وفى العودة يقوم المشرف على الرحلة بعمل مسابقة لاختبار المعلومات ولتوزيع الصور والكتب الدينية كجوائز لمن يجيب الاجابة الصحيحة..وسمعت صوتها وهى تردعلى سؤالين من الأسئلة التى ألقاها المشرف وكسبت جائزة عبارة عن صورة دينية.. ومن وقتها كنت أداوم على الذهاب للكنيسة لتقع عينى عليها أو أكون قريباً منها واسمع صوتها الجميل.. ورغم انه لم يكن الحب الأول لى إلا أنه سيطر على كيانى كله والحقيقة أن الحب الأول كان فى الكلية وأنتهى قبل أن يتطور.. وأنا متضايق أن خجلى جعلنى ارتبك فى الحديث مع الفتيات.. وأحياناً أسخر من نفسى وأقول لنفسى "يظهر أن مكتوب عليك أنك تحب من بعيد لبعيد.. ويمكن يكون الحب من طرف واحد.. ولا تحس به الطرف الآخر" ولاحظت أختى سنية بأننى انغمس فى التفكير ولا انتبه لما تقوله لى.. وأننى كثير السرحان.. وأحسست كأننى مررت بتجربة الحب بأن ما يشغل بالى لابد وأن تكون فتاة.. وكانت معاملتى مع سنية كأننا أصدقاء وكنا نشكو لبعضنا ما يضايقنا.. فأخبرتها بانشغالى بوفاء وذهبت معى للكنيسة يوم الجمعة لكى اشير لها على وفاء واستطاعت سنية أن تكسب صداقتها وكل أسبوع أو اثنين اقابلهم وقدمتنى سنية لها ثم كانت الفرصة الجميلة عندما اتفقت سنية مع وفاء على الذهاب فى رحلة الكنيسة إلى دير مارمينا بمريوط واصطحبت وفاء اختها وأنا ذهبت مع سنية وتحركنا سوياً فى الدير.. وجلسنا على البسطة الخارجية لمزار البابا كيرلس وتناولنا الطعام سوياً.. وتناولنا الأحاديث الكثيرة.. وأتت الفرصة الذهبية عندما قالت أخت وفاء بأنها ستشترى كتاباً من مكتبة الدير فأسرعت سنية وقالت لها بأنها هى ايضاً تريد شراء كتاب دينى وقررت أن أنتهز الفرصة لمفاتحة وفاء فى موضوع خطوبتنا وبادرتها بالسؤال.

- ياترى يا وفاء أنت مرتبطة بحد ؟

فارتبكت وسألتنى عن سبب هذا السؤال فأسرعت بالاجابة :

- لأنه يسعدنى أنى أرتبط بيكى.

- ترتبط بى قبل ما تدرسنى كويس. وقبل ما أدرسك كويس.

- ما هى الخطوبة فرصة كويسة للدراسة - وإذا اطمانيتى لى نتجوز.

- أنا ما أحبش الاستعجال.. عشان الزواج يبقى ناجح لازم نكون حسينا ببعض كويس.. انجذبنا لبعض.. وما يكونش فيه عوائق فى الطريق.

- اسمحيلى انى اعترف لك بأنك دخلتى جوه قلبى.

ونظرت إلى نظرة طويلة بدون أن تنطق بحرف فأحسست بالارتباك والضيق وتمنيت أن تعود سنية بسرعة ونتحدث فى موضوع مختلف.. ثم تنهدت وسألتنى :

- ياترى قلبك اصابة سهم كيوبيد متى ؟

- يوم ما عينى وقعت على عينيكى.. يعنى فى أول لقاء بينا.

- هو ما حصلش أى لقاء من أصله.

- اللقاء مش المقصود به الميعاد.. يوم ما شفتك فى الأتوبيس أثناء رحلة الفيوم.. ساعة لما كسبتى الجائزة.

- أنت من ساعتها وأنت تفكر فىّ.

- ايوه يا وفاء.. الحب كالقدر.. يأتى بدون إرادتنا.. بيفرض نفسه علينا.

- يعنى أنت بتؤمن بأن العين بتعشق قبل القلب؟

وخطر ببالى أغنية شادية عن مين السبب فى الحب وفيها قالت :

"القلب يعشق قبل العين" فقلت لها :

- يا ترى أنت بتؤمن بأن القلب يعشق قبل العين ولا العين بتعشق قبل القلب؟

فأصرت بأن أجيب أنا على السؤال لأنها هى التى وجهت إلى السؤال أولاً وكان ردى مقنعاً لها عندما قلت :

- شعاع الحب بيمر على العين ويتجه مباشرة إلى القلب.. فتزيد ضربات القلب.. ويحصل ارتباطات.. وبعدها سلامات وكمان ابتسامات فضحكت من قلبها على تعليقى وقالت :

- يظهر أنك رومانسى.. وبتحب تستعمل السجع فى ارتباطات وسلامات وابتسامات وشجعتنى بضحكتها على الاستمرار فى الحديث فقلت لها مش الناس بتقول "نظرة.. فابتسامة.. فسلام ثم لقاء" ؟

وابتسمت مرة أخرى ووجهت إلى كلامها :

- عايزه أسألك ياسعيد سؤال عادى.. لكن الاجابة عليه بتحدد شخصية المتحدث.

- تفضلى يا وفاء .

- لماذا يتزوج الناس ؟

- عشان الناس عايزة تتجوز.

- دى اجابة هروبية... لأنها مابتردش على السؤال اجابة واضحة.

- الزواج معناه استقرار.. معناه تحمل مسئولية أسرة صغيرة.

- لكن الحافز بيختلف من شخص لأخر.. فيه الرومانسيين.. وفيه الواقعيين.

- طب إيه رأى الأدباء والشعراء يا وفاء؟

- أنا حاقولك رأى برنارد شو : الغنى بيتجوز عشان وريث.. ورجل الطبقة المتوسطة بيتجوز عشان هو مايقدرش على الانفاق على عشيفه.. أما الفقير فبيتجوز عشان ما بيقدرش على مصاريف الخدامة.

- طبعاً ده رأى كاتب ساخر.. ولكن الشعراء طبعاً حايختلفوا فى الرأى عن ...

مش كده ؟

- الشعراء غنوا للحب والسعادة أكثر من تناولهم للموضوعات الاجتماعية.

- وإيه يا ترى رأى اديبتنا الصغيرة؟

- هو أنت خليتنى أديبة كمان؟

- سنية قالتلى أنك خريجة قسم إنجليزى.. وأنك بتتمنى تبقى كاتبة معروفة.

- أنا ماكتبتش غير شوية تأملات فى الحياة البشرية وفى الكون وفى الطبيعة وفى عظمة الخالق.. الخالق يعتبر المهندس الأعظم وعالم الفلك اللى نظم مسار الأفلاك م[illegible]قة التوقيت وعدم اصطدام كوكب بآخر.

[illegible] [illegible]فاء.. أنت شوقتينى أن أقر[illegible] تأملاتك.

– التأمل فى الكون وفى معنى الوجود هو تعبد للخالق.. تأمل خليقة من العدم.. تأمل دقة وظائف كل عضو فى الإنسان.. القلب بيسير بشحنات كهربائية معينة.. ويدق حوالى سبعين دقة فى الدقيقة.. أحسب كم دقة فى الساعة وكم دقة فى اليوم واضرب الرقم ده فى سنوات العمر.

– عندك حق يا وفاء.. دِقّة فى كل شئ.. خلقنا وبيرعانا وإليه نعود.. وعلينا أن نقدم الحساب عن أعمالنا يوم القيامة.

وقطع هذه المحادثة مجئ سنية وأختها وانتقل الحديث عن الكتابين اللذين احضراهما ثم عدنا بالسيارة للقاهرة.. وأنا فى حيرة.. فلا هى أباحت بحبها ولا صدتنى.. وتحادثت مع سنية وكان تعليقها :

– ما تستعجلش.. آديك عرفت شوية عن تفكيرها.. ولما تزداد صلتنا ببعض حأفاتحها وربنا يعمل ما فيه الخير.



الفصل الثالث

الضباب... والظلام ... والألم

مـرت ثلاثـة أعـوام علـى بدايـة الليـل الطويـل المقبـض. ولا تظهـر فـى الأفـق بشـائر إنقشـاع الظـلام وحضـر الأسـتاذان ميخـائيل وفـؤاد لكـى يحـددا موعـد عقـد قـران أولادهما علـى سنية ووداد. وقد كنـا متـرددين فـى هـذا الموضـوع لأن هنـاك رغبتـان مختلفتـان. فالبنـات والأولاد يريـدون أن يسـتقروا نفسـيا بـالزواج وكمـا قـال مسـعد "مثلمـا يقـول المثـل نـص العمـى ولا العمـى كلـه"، فإننـا بزواجنـا نحـس بالاستقرار نسبياً ونلتقـى فـى بيـوت الزوجيـة علـى فـترات الأجـازة أفضـل مـن البعـاد المفـروض علينـا" فـى حيـن أن رأى الأهـل هـو أن يتحملـوا قليـلاً حتـى نهايـة الحـرب ويتم الاستقرار التـام فـى بيـوت الزوجيـة. وتمـت رغبـة الشـباب وتـم عقـد القـران وكـانت البنتـان ينتقلـن بيـن بيـوت الزوجيـة فـترة الأجـازة وبيـن بيـت الأسـرة، وكنـت أرأف بحـالهن.. ولكـن مـا العمـل؟ فكمـا كتبـت علينـا الحـرب كتـب عليهـن عـدم الاستقرار وعدم راحـة البـال.

وذات يـوم حضـر لمكتبـى الأسـتاذ ميخـائيل والضيـق واضـح علـى كـل عضلـة مـن عضلات وجهه فبادرته بالسؤال :

– خير يأستاذ ميخائيل؟

– مابـاينش أى خـير بـالمرة.. دى مصـائب بتدمـر المجتمـع.. والشـياطين تعبـث فـى الأرض فساداً.

– أنت قلقتنى يأستاذ ميخائيل ؟ فيه إيه ؟

– أمسك أقرى الجواب ده.. أقرى وشوف الغابة اللى إحنا عايشين فيها.

وقرأت الخطاب الذى كان عبـارة عـن اسـتغاثة مـن أرملـة تسـتنجد مـن ابـن عمهـا أن يتدخل ليمنع زواج ابنتها "منى" من عريس يكبرها بثلاثين عاماً. فالفتاة فى التاسـعة عشـر من عمرها والعريس فى التاسعة والأربعين..

وبعد أن قرأت الخطاب نظرت للأستاذ ميخائيل وقلت :

– فيه حاجات غريبة فى الموضوع.. ليه البنت تقبل تتجوز واحد أكبر من أبوها ؟

– أنا مش عارف تفاصيل.. لما وصلني الخطاب ورحت لبنت عمي.. لقيتها نازلة عياط.. وقالت.. خلاص يا ميخائيل.. ماقدرتش أمنع المصيبة.. هي إتجوزت أمبارح.. والفرح إتعمل بحضور كام نفر من عيلة العريس.. وحضور الأستاذ حليم.. الواسطة اللى كان السبب فى الجوازة دى.. والنهاردة الصبح سافروا الإسكندرية يقضوا شهر العسل.

– طب ليه البنت وافقت على الجوازة دى ؟

– الأستاذ حليم أقنعها بان العريس دى يعوضها عن حرمانها من أبوها.

– ومصلحة الأستاذ حليم ده إيه؟

– ده مدرسها.. وكانت دايما معتبراه أخوها الكبير.

– أنا كمحامي... عندى السؤال الخالد : ليه ؟

– ليه إيه يأستاذ سعيد ؟

– ليه معتبراه أخوها الكبير؟ ليه أهتم بتزويجها من عريس عجوز بالنسبة لها ؟ ليه مهتم بمنى قريبتك؟

– دول ثلاثة "ليه"؟ وأنا شخصياً مأعرفش إجابتهم.. وحتى أمها مش حاتقدر تجاوب عليهم.

– تقصد جضرتك.. إننا ننتظر حضور منى من شهر العسل؟

– أعتقد هذا.. لكن أمها بتسأل هل نقدر نطلقها منه ؟

– ضرورى هى عارفة.. إن الطلاق فى المسيحية فيه قيود كثيرة.. أولاً علة الزنى.. ثم الأمراض النفسية.. ثم الحكم على الزوج بالسجن فترة طويلة.

– يعنى مافيش حل للمشكلة دى ؟

– الحل كان فى الوقاية.. مش بعد وقوع المصايب.. مش كده يأستاذ ميخائيل ؟

– فعلاً.. هى الأم ماكنتش قادرة على البنت.. وأعتقد ان الأم حاسة بان البنت مابتسمعش كلامها.

– يعنى فيه خلل فى الجو الأسرى.. وأدى النتيجة.

– مش المهم هو اللوم.. إحنا عايزين حل يأستاذ سعيد.

– حل لكام مشكلة ؟ مشكلة الزواج غير المتكافئ ؟ وإلا العلاقات الأسرية المفككة ؟.. وألا تمرد الفتاة وضرب التقاليد بعرض الحائط؟

وألا مشكلة الشباب الممزق اللى مش عارف يحدد خطواته؟

وبعد أن تركني الأستاذ ميخائيل أخذ فكري يسترجع القضايا التي عرضت أمامي منذ قيامي بهذه المهنة التي تعتبر الترمومتر لقياس المشاكل الاجتماعية فها هي قصة مني الغامضة. أمامي حتى الآن الخيال وتصور دوافع الفتاة ودوافع العجوز للزواج من شابة في ريعان شبابها في سن أصغر من ابنته ودوافع حليم والمفروض أنه مربي للنشئ، وقررت أن أتتبع القصة بقدر ما تسمح الظروف وبقدر المعلومات التي تصلني خصوصاً التي تأتي أثناء المصادمات والاشتباك بين الأطراف. وتذكّرت قصة كمال ابن مدام هالة صديقة سنية أختي وكانت زميلتها في الخدمة بمدارس الأحد.. وتتلخص هذه القصة بأن كمال أحب فتاة مراهقة تَعّرف عليها في إحدى السهرات الشبابية التي أصبحت موضة التحرر في نظر بعض الشباب وأتذكر ماقالته لي مدام هالة عندما احضرتها سنية لمكتبي:

– لو كان أحب فتاة مسيحية.. وحصلت منهم المصيبة دى كنا جوزناهم.. لكن المصيبه الأكبر إن البنت دى بنت مستشار.. وممكن يوديه في داهية ويسجنه..

– وأزاى الموضوع بينهم تطور بالصورة دى ؟... أقصد.. ازاى يقعوا فى المحظور؟

– طيش شباب يأستاذ سعيد.

– والمطلوب منى أنا إيه ؟

– تشوفلنا حل فى المصيبة دى.

– إزاى يعنى ؟

– مأنا مش عارفه.. انا غرقانة.. وجيالك عشان تشوف المواد القانونية اللى تحميه من انتقام أبوها إذا عِرْف ؟

– هو ده اللى يهمك بس يا مدام هالة ؟ الحماية لإبنك وبس ؟

والمشاكل الاجتماعية اللى نتجت عن هذا العمل الطايش.. مالوش اهمية بالنسبة ليكى؟

– أنت بتساعدنى.. وألا بتوبخنى يأستاذ سعيد ؟

– توبيخى مش حايحل المشكلة.. أنا بس بأعبر عن حزنى على الخلل فى المجتمع.

– وهو ذنب ابنى إيه.. إذا كانت البنت هى اللى حبيته وجريت وراه ؟

مأحنا دايماً نْطلّع أولانا أبرياء.. والطرف الآخر هو اللى جره للخطية!!

وخرجت مدام هالة مندفعة خارجة من مكتبى وهى تتمتم بكلام غير مفهوم وخرجت وراءها سنية.. وبعد يومين عرفت من أختى بأن هناك طبيباً أشار عليهم أن يذهبوا لأحد الأطباء – ويدعى الدكتور أديب وهو يقوم بعملية جراحية لإعادة غشاء البكارة.. وفعلاً ذهبت هالة وكمال والفتاة إلى عيادة الدكتور أديب وأعاد إليها غشاء البكارة ودفعنى حب الاستطلاع إلى الذهاب لعيادة الدكتور أديب مدعياً بأننى فى مأزق مع إحدى المراهقات وأننى أطلب مساعدته. ونظر إلى الدكتور أديب نظرة التاجر الذكى الذى يعرف استغلال الموقف :

– بس العملية حاتكلف كتير يأستاذ.

– مأنا عشمان فى كرم سيادتك وتخفض لى التكاليف.

– طب ما توفر التكاليف وتتجوزها وخلاص.

– أصل أنا متجوز.. وممنوع عندنا نتجوز أكثر من واحدة.

– ما دام عارف إنه ممنوع.. ليه ما حافظتش على بنت الناس.

– الشيطان شاطر يا دكتور أديب.

– مش أنت غلطت.. سواء كان الشيطان شاطر أو أنت شاطر.. تبقى تتحمل تكاليف غلطتك.

– ايوة غلطت صحيح.. بس مش لازم تدبحنى فى الأتعاب.

– شوفلك يأستاذ دكتور تانى.. مادام مش عاجبك الثمن.

– مش حرام عليك تاخد كل الاتعاب دى من الغلابة اللى زى

– غلابة؟ ما الغلبان يحافظ على نفسه من الوقوع فى المحظور.

– ماهى يعنى العمليات اللى بتقوم بها بتعتبر بحكم القانون مخالفات.

– وليه ماتبصلهاش على إنى بانقذ فتيات من الفضائح.

– يعنى حضرتك بتعتبر نفسك بتعمل عمل خير ؟

– ليه لأ؟ هو أنا اللى وزيت فى ودانهم بأنهم يعملوا الفحشاء والمنكر؟ أنا بأستر على البنات المستهترات.

وبعد أن تركت عيادة الدكتور أديب.. أحسست بفقدان فى المعايير التى يتشدقن بها الكثيرون.. ففى الريف يتفاخر أهل الفتاة بالمنديل الذى عليه دم الفتاة العذراء كدليل البراءة وبعد أسبوعين حضر الأستاذ ميخائيل إلى مكتبى لنفس موضوع منى.. ولكن هذه المرة هربت منى من زوجها عندما رفع عليها السكين

وأراد قتلها.. فأتت إلى والدتها التى ارسلت فى طلب إبن عمها لكى يجد حلاً مع هذا الوضع الجديد. فأتى الأستاذ ميخائيل لمكتبى لكى أشير عليه بما يفعل حيال هذا الموضوع، وسألته :

– عرفت حاجة عن تفاصيل الموضوع ؟

– ايوه.. الزوج بيشك فى وجود علاقة بين منى ومدرسها حليم.

– وإيه اللى خلاه يشك ؟

– إلحاح حليم بسرعة عقد القران خلاه يشك.

– مش فاهم.

– كان حليم بيقوله فى الأول لما طلب منه يتزوج بنت جميلة.. قاله طلبك عندى.. وإنه حايهديه بنت حرُمت من عطف الأب.. فحا ترضى بيه فوراً.

– يعنى إيه برضه اللى خلاه يشك.. مادام أقنعه بأن البنت كانت محرومة من عطف الأب.. وعشان كده رضيت بيه.

– كانت بترّجع .. وتعبانه.. وبعت جاب دكتور.. فقاله.. "مبروك المدام حامل فى ثلاث شهور" فالراجل قال لنفسه "ازاى واحنا متجوزين من اتناشر يوم بس؟" وطبعاً شريط الأحداث مرقدامة : حليم مستعجل على الجواز.. فأدرك بأنه عايز يلزّق له البنت دى اللى اعتدى على شرفها.. ولما واجهها بشكوكه – حاولت تهرب من الاجابات.. فضغط عليها فانهارات.. فدخل يحضر سكينا فهربت من أمامه وهى بملابس البيت وجرت وأخذت تاكسى إلى منزل والدتها.. وسألنى الأستاذ ميخائيل عن الحل لهذا الموضوع فقلت:

– هيا بنا نأخذ من منى عنوان حليم ونذهب له لكى يتزوجها بعد رفع قضية طلاق بين منى والعريس العجوز.

– وهل يمكن الحصول على طلاق ؟

– يمكن بعد تغيير الملة وفى هذه الحالة ينفذ القانون الإسلامى ويتم الطلاق. وذهبنا لمقابلة حليم الذى إرتبك عند رؤيتنا وبعد تقديم أنفسنا له بادرنا بجملة غريبة :

– تخيلوا يأساتذه.. أن الراجل العجوز اللى أنا عملت فيه جميل وجوزته بنت جميلة.. عمره ما كان يحلم بواحدة زيها.. عايز يقتلنى ؟

– ويقتلك ليه يأستاذ حليم ؟ دأنت راجل خدوم.. وراجل عظيم.

– قصدك إيه يأستاذ ميخائيل ؟

– اللى على راسه بطحة بيحسس عليها.. مش برضه الناس بتقول كده ؟
– بطحة إيه بس يأستاذ ميخائيل؟
– أنت فاهم كويس قوى كل حاجة.. ولازم تعالج الموضوع بنفسك.
– مش فاهم.
– فهّمه أنت يأستاذ سعيد.. فهمه على حكاية تطليقها من العجوز.. وهو يتجوزها
– أتجوزها؟ دأنا راجل متجوز وعندى أولاد.. ممنوع إنى.....
– ممنوع إنك تتجوز ؟ مش كده.. لكن مش ممنوع إنك تعتدى على أعراض بنات الناس..
– انا مراتى مريضة.. ومحروم.. والشيطان .. (وبكى).
– إحنا مش حانكرر الكلام.. قدامك أسبوع.. وتتمم الطلاق بين منى والعجوز.. وبعدين تطلق مراتك.. بنفس طريقة تغيير الملة.. وتتجوز منى.

وخرجنا من منزلة والحزن يتملكنا.. فنحن نعرف بأن الموضوع ليس له حل.. وها هى مشكلة اجتماعية خطيرة تحدث للكثيرات من المراهقات... وأصطحبنى الأستاذ ميخائيل إلى ملهى ليلى وأنا مندهش لهذا التصرف.. فقال لى :

– تعال وحاتعرف أنا جبتك هنا ليه.

وبعد ن جلسنا فى ركن من الصالة نادى الأستاذ ميخائيل على الجرسون وطلب منه احضار "سونيا" لكى تجالسهم. وحضرت سونيا وظهر عليها الارتباك عندما وقع نظرها على الأستاذ ميخائيل ولكنها جلست معنا على نفس المنضدة فأشار عليها وقال لى :

– أقدملك يأستاذ سعيد مارسيل.. ضحية..
– أرجوك يأستاذ ميخائيل.. تتركنى فى حالى.. وأنا دلوقتى ما اسميش مارسيل.. اعمل معروف ماتقطعش عيشى.. أنا دلوقتى سونيا.
– صدقينى يا مارسيل.. أنا نفسى أساعدك.. عايزك تغيرى..
– (مقاطعة) خلاص.. أنا طبق انكسر ومش حا يتصلح تانى.
– ممكن اللى انكسر يتصلح.
– ده متهيأ لك يأستاذ ميخائيل.. وعن إذنكم اروح أشوف شغلى سيبونى فى حالى.

وتركتنا سونيا، وبعد تناول المشروب تركنا المكان وسألت الأستاذ ميخائيل.

– إيه قصة مارسيل دى؟
– دى ضحية من ضحايا جماعة الهداية.

– ماسمعتش عن الجماعة دى ؟

– دى نشاطها بدأ من سنة أربعة وستين وهدفها زى ما شفت يزقوا شبان متدربين يغازلوا فى بناتنا ويورطوهم ويتجوزوهم كمان– مافيش مانع– لأنهم حايطلقوهم.. وحايرموهم فى الشارع.

– طب وحايفيدهم ده فى إيه ؟

– يحطموا الروابط الأسرية. وللأسف بيعتبروا هذا جهاد فى سبيل الله. تخيل يا سعيد؟

– ربنا يحفظ بناتنا من كل سوء.

وبعد أن ذهبت لمنزلى أحسست برأسى يلف وأحسست فعلاً بالدوار.. وبضغط الدم يرتفع لدى.. وذهبت للسرير والدوار يزيد.. وشريط الأحداث المؤلمة فى هذا اليوم التعيس لايبارح مخيلتى.. وانقباض قلبى يزداد.. وذهبت للصيدلية لكى يعطينى دواء مهدئ.. وحبة منومة لكى أنام وأنسى المآسى التى يعانى منها مجتمعنا ولا يدرى الكثير عنها شيئاً، ولا تتعظ البنات مما حدث للضحايا اللاتى سقطن وضاع مستقبلهن وهن حالمات فى الكلمات الخادعة المعسولة وينزلن بأرجلهن إلى الهاوية وعندما يقعّن تكونن طريدات المجتمع.. طريدات الحنان والحب الحقيقى.. طريدات البيوت الدافئة.. وتتمرمغن فى التراب وحدهن.. فى حين يضحك المجرمون الذين حطموهن ويضحك معهم عدو الخير..

ونسمع الأنين الذى يؤلمنا.. لكن هذا السيناريو لا ينتهى طالما أن هناك تفكك أسرى، وتباعد بين الكبار وبين الشباب عديمى الخبرة بالشياطين الذين يسيرون بينهم ولديهم وسائل الأغراء، ومادام لا توجد توعية كافية بأن الذئاب البشرية أخطر من القتلة.. لأن القتيل يرتاح من آلام العالم.. أما الضحايا فيعيشون فى الأوحال والآلام حتى الممات .

وبعد حوالى أسبوع من تعاطى الدواء المهدئ والحبة المنومة يومياً.. بدأت أسترد توازنى.. وقررت أن أستمر فى دراسة المجتمع عن طريق القضايا التى تأتى إلى... وقررت أن أنضم إلى أى هيئة أهلية تهتم بتقديم يد العون لضحايا المجتمع.. وتهتم بتوعية بناتنا من الذئاب البشرية.. بل تهتم الجمعية باتخاذ خطوات ايجابية سريعة وفعالة لتخليص المجتمع الأسرى من أمثال هؤلاء المجرمين.. ولو تم إعدام بعضاً من هذه الذئاب بعد محاكمة سريعة وحاسمة سيحجم الكثير عن تقليد هؤلاء الذئاب– أعداء المجتمع.. وأحسست بالراحة بعد أخذ هذه القرارت وسأقوم بالاتصال بمن يهتمون بهذه المسألة مثلما

أهتم أنا.. بعد ذلك ذهبت إلى سنية لكى تقوم بزيارة وفاء وتقنعها بتحديد موعد بينى وبين والد وفاء لكى نتقابل ونتحدث بخصوص الخطوة الهامة وهى تحديد موعد الخطوبة.

نجحت سنية فى تحديد مقابلة بينى وبين والد وفاء وكان هذا بالطبع عن طريق وفاء وذهبت فعلاً لمقابلة الأستاذ عبد الله الذى وافق على عمل خطوبة بالدبل فقط حتى يتم دراستنا لبعضنا وتتم دراسة الأسرة لى فهو يرى بأنه لا يقف فى طريق رغبة بنته ولكنه يعرف بوجود تردد لديها فى مسألة الزواج بالذات. وفهمت من كلامه بأن وفاء تحتاج لمن يفهمها جيداً وأحسست بأنه يعطى ابنته كل فرصة ممكنة لدراسة الخطيب دراسة جيدة.. ولأننى انظر بمنظارى الوردى كنت واثق بإننى سأكسب الجولة وأن مجرد موافقتهم الموافقة المبدئية على الخطوبة حتى ولو كانت دبل فقط فإنها خطوة جيدة للأمام.. وتكرر خروجنا سوياً وأحياناً نجلس فى البلكونة عندهم وكانت زوجة أبيها تلقى على بالسلام عندما يتصادف وجودها بالصالة وأنا أعبر باب الشقة والشئ الغريب فعلاً هو تقلب حالات وفاء ففى إحدى المقابلات كانت فى قمة السعادة ودار الحديث التالى :

– ياترى إيه احساسك نحوى يا وفاء ؟ اقصد بترتاحى معاى.. وألا..

– الحقيقة مش عارفه.. ساعات باحس بالخوف.. لكن من يومين حسيت برعشة جواى.. رعشة جميلة.. رعشة هزتنى جداً.. وقلت ياترى إيه اللى حصلك ياوفاء ؟

– يمكن سهم كيوبيد كان متجهاً نحو فؤادك.. زى ما اصاب فؤادى. فابتسمت ومدت يدها وامسكت يدى ونظرت إلى بهيام وقالت :

– يبقى لازم احنا الاثنين نشكر إله الحب.. الطفل البرئ كيوبيد.. صحيح ؟! هم ليه بيرسموه كطفل ومعاه سهم ؟

– لأنه شقى.. ومابيسيبش الناس فى حالهم.. يلاقى اثنين مناسبين.. فيروح راميهم بسهمه.

– يبقى الطفل الشقى ده بيعمل خير فى الناس.. بيجمع القلوب.. وبيجمع الأرواح عشان تعيش سوا فى عالم الروح.

– بس عيبه هو أنه بيؤرق العشاق.. وزى ما أم كلثوم بتقول :

"أهل الهوى ياليل.. تركوا مضاجعهم"

– مش مهم النوم.. طالما البال مشغول.. وكمان الفؤاد مشغول.. وفكرى لك على طول.

– ياترى يا وفاء.. وهج الحب بيستمر والا بيبرد بعد الجواز ؟

– ده يتوقف على الاثنين...لأن الحب ده زرع اخضر رقيق محتاج باستمرار إننا نرعاه عشان ينمو.. ولازم نحافظ عليه عشان نحميه.

– نحميه من مين ومن إيه ؟

– هم مش دايماً فى الأفلام بيوروا أن الحب دايماً يبقى جميل بين حبيبين لكن لازم يكون فيه عزّال.. ولازم الاشرار يعكننوا على الأحبة ؟

– بس ده فى الافلام.. لكن احنا مالناش عزّال.

– مين يعرف يا سعيد؟ هو آدم مش كان سعيد مع حوا فى الجنة وطلع لهم الشيطان من تحت الأرض عشان يعكنن عليهم وعشان يتم طردهم من الجنة ؟

وتوقفنا قليلاً ننظر لبعضنا دون أن نتكلم واحسست كأن فكرها توقف وأن علامات الضيق بادية على وجهها ثم نطقت فجأة :

– الدنيا مالهاش أمان.. مين يعرف إيه اللى مستخبيلنا.. مين يعرف بكره يحصل إيه ؟

ووجدت أنه من الأفضل أن أقطع هذا الحديث المتشائم فسألتها :

– ياترى إيه هوايتك المفضلة يا وفاء؟

– أنا أعشق الأدب.. وأحب الشعر والموسيقى.. وأحب عملى كمدرسة لأن طبيعتى كأمراة حنون ترشحنى للقيام بدور تربية النشئ.. النشئ المظلوم.

– ليه النشئ مظلوم ؟

– لأن الدنيا غروره.. مالهاش أمان (وتنهدت وأعادت جملتها) مالهاش أمان ؟

وبعد أن عدت لمنزلى احسست بان حالتى تشبه الفترة التى تمر فيه البلاد.. فكل شئ غير واضح.. والضباب يسود الاحوال كلها.. الاحوال السياسية والاحوال الاجتماعية.. بل حتى الضباب يحيط بقصة حبى التى أصبح يكتنفها الغموض.

ما معنى ترديدها لمعنى الظلم؟ والشباب الذى يعنى فترة الأمل والتطلع والبناء يتعرض أيضاً للظلم؟ لماذا الشباب مظلوم؟ وما معنى فقدان الأمان؟ وطرد آدم من الجنة؟ وما معنى الدنيا مالهاش أمان؟ لماذا تخاف من العُزّال؟ وأن الأشرار يعكننون على الأحبة؟ كيف أصل إلى الأسرار التى تفسر لى تلك المخاوف التى تسيطر على تفكير حبيبة قلبى وفاء ؟

إن موضوع وفاء يحيطه الغموض.. ولا أعرف وربما هى نفسها لا تعرف لماذا تتذبذب العلاقة بيننا من حب جارف إلى تباعد فجائى عنى وبعدم ثقتها فىّ ولا فى الحياة ولا فى السعادة؟ انها تحمل مشاعر متناقضة داخلها.. فالحب يعطى اللون الوردى للحياة

ولكن عدم الثقة يعطى اللون الرمادى الأقرب إلى اللون المقبض.. أنها قليلة الكلام عن أسرتها. ولم تخبرنى عن موت والدتها ولماذا تصغرها أختها بثلاث سنوات فقط بالرغم أنها شقيقتها.. إذن هناك أحتمال أن تكون والدتها قد ماتت وهى طفلة صغيرة لأنه تقديرياً تكون قد ماتت منذ واحد وعشرين أو اثنين وعشرين عاماً.. ولكنها لم تتحدث نهائياً عن والدتها بل لم تشير إلى وجودها مع زوجة أبيها منذ عشر سنوات فقط.

بل إننى عرفت ذلك من بعض الاحاديث بينى وبين والدها الأستاذ عبد الله وقطعاً عندما كنت أسمع اثناء الحديث بأن وفاء عاشت معهم منذ عشر سنوات لا أستطيع ان اسأله وأين كانت قبل ذلك.. وهى نفسها كانت تقول أحياناً بأنها كانت سعيدة فى فيلا جدها التى قضت فيها طفولتها.. وأنها تكره زوجة ابيها لأن العشر سنوات التى عاشتها معها لم تخلو من "العكننة والنقار" بل قالت أحيانا أنها لاتعرف إذا كان أبوها يحبها فعلاً أم أنه يؤدى واجبه نحوها كأب مسئول عنها.. وسألتها ذات مرة أن كان والدها وجدها والد والدتها على علاقة طيبة؟ فكان ردها السريع :

– دول بيكرهوا بعض كره العمى.. وانا ما بأقدرش أجيب سيرة جدى قدام بابا.

– طيب إيه سبب الكراهية ؟

– ربما لأن بابا كان من أسرة فقيرة وجدى غنى جداً.

– لكن بابا مبسوط دلوقتى.. وعربيته وشقته فاخرة.

– بابا مهندس شاطر.. وهو اللى كوّن الثروة دى من تعبه وشطارته.

– بس والدك مدير فى القطاع العام.. يعنى موظف محدود الدخل.

– هو بيعمل الصناعات بتاعته فى ورشة الحاجة فاطمة شريكته.. لأنه كموظف ممنوع يبان.. وكانت فاطمة بتحميه من الضرائب، لأن الورشة بإسمها.

حاولت أن أضع المعلومات التى عرفتها من أحاديث وفاء سوياً لكى أحدد شخصيتها فوجدت أن هناك حلقات مفقودة فى كل قصصها.. ولاحظت أن والدها كان جافاً معى عندما كنت أذهب لأخذها من منزلهم والخروج معها إلى النزهات والحدائق والسينما والكازينوهات.. وكنت دائماً اتساءل ان كان لايريدنى فلماذا وافق علىالخطوبة أو سمح لى بالخروج معها ؟! إن أبيها غامض جداً بالنسبة لى، وزوجة أبيها تنظر لى نظرة متعالية تحمل معنى الإشمئزاز والكراهية.. ووفاء متقلبة ومقابلاتها وأحاديثها كانت تزيدنى حيرة.. ولا أنسى يوم الذهاب إلى القناطر الخيرية.. فقد إقترحت عليها أن نسافر بالباخرة لنستمتع برحلة نيلية جميلة ثم نتناول الغذاء فى كازينو هناك ونقضى اليوم بين

الخضرة ونعود فى نهاية اليوم... ووافقت بل وكانت سعيدة جداً بفكرة الرحلة النيلية الخلوية فى أحضان الطبيعة حيث الخضرة والهواء والمناظر الجميلة والجلوس تحت الأشجار اليارفة كما أن منظر المياه حول المركب يهدئ الاعصاب.. والمناظر الطبيعية دائماً تعطى رومانسية جميلة فتنطلق الاحاسيس وتعيش فى جو أشبه بقصص الف ليلة وليلة.. وأخذتها من منزلها فى تاكسى وذهبنا للمركب وجلسنا وهى مغمضة العين "هى إيه تكملة الاغنية؟ - هى "تلنا آمانينا؟" فلم أتذكر ولم أعطى جواباً فقالت :

- مش مهم دلوقتى.. قولى يا سعيد.. إيه التأثير اللى بيسيبه النيل عليك؟

- تقصدى الماء والخضرة والوجه الحسن ؟

- لا.. أنا عايزة اعرف ارتباط النيل عندك بإيه ؟

- النيل معناه الحياة المتجددة - كل سنة بيجيب الخصوبة لأرضنا.. ولولا النيل لصارت مصر صحراء.. النيل هو النهر الهادئ المنساب.

- طب والبحر؟

- قصدك البحار غدارة؟

- بالضبط.. ومع ذلك.. بأحب أبص على الموجة الشديدة.. لكن لما بأشوف الامواج فى الحلم باصرخ.. وبأقوم مفزوعة.. بابا بيقول إنى لازم اروح لدكتور عشان الكوابيس دى.

- طب مارحتيش ليه؟

- الاطباء النفسيين. بيحبوا يسحبوا فلوس من المرضى.. ومعظمهم واخدها بالتكال لأنهم بيعتمدوا على الإيحاء وبس.

- ياترى ياوفاء.. أنت قضيتى طفولة سعيدة؟

فتنهدت ثم ركزت نظراتها نحو الماء وشرد ذهنها واشارت إلى فرع شجرة يطفو على سطح الماء وأخذت تستنشق نَفَّساً عميقاً ثم نظرت اليّ وقالت :

- شايف يا سعيد فرع الشجرة ده.. اللى ماشى زى لما التيار يمشيه؟

- ايوه شايفه.. ماله ده ؟

- احنا كلنا زى الفرع ده.. مالناش إرادة ولا اختيار.. (وتنهدت) مش برضة الإنسان مسير.. بالضبط زيه زى فرع الشجرة ده.. واللى بتلعب بيه الميه زى ما هى عايزه؟

- احنا صحيح مسيرين فى حاجات.. لكن مخيرين فى حاجات..

– تقدر تقولى مخيرين فى إيه؟ دى حتى أسمائنا ماخترناهاش.. ولا اخترنا أهالينا.. ولا اخترنا بإننا نعيش فى الدنيا دى.

– يظهر يا وفاء أنك متأثرة بفلسفة معينة.

– كل إنسان له فلسفته.. وأنا شخصياً بتعجبنى قصيدة إيليا أبو ماضى.

جئت لا أعلم من أين.. ولكنى أتيت.

– وأبصرت طريقاً امامى طريقاً فمشيت.. يعنى هنا فيه إرادة منك.. إرادة بأنك بتقررى المشى.

– مأنا ماقررتش.. أنا مشيت لأن فيه طريق قدامى ولازم أمشيه.

– ليه لازم تمشيه؟ ممكن تقفى.. ما تتحركيش.

– أنت حاتعمل زى بابا.. دايماً يقولى ماتتحركيش قبل ماتفكرى.

– ياترى إيه علاقتك ببابا؟

– هو بابا.. وأنا بنته.. هو بيدينى طلباتى.. وأنا بأشكره.

– مأنا عارف أنه باباكى.. بس فيه حاجة عايز اسأل عنها..

– إيه هى ؟

– هل بابا موافق على جوازنا وألا عنده اعتراضات؟

– أشمعنى بتسأل السؤال دة ؟

– أصل الأهل اللى بيشترطوا نص إكليل وشبكه.. مش دبل وبس.

– هو بابا مابيحبش المشاكل.. بيقولى ما إرتاحناش مع بعض نرجعله الدبلة وخلاص.

– وياترى هو لغاية دلوقتى مش مطمئنيلى؟

– مش عارفه.. صدقنى يا سعيد.. مش عارفه.

– طب وأنت موقفك إيه؟ يعنى حاتقدمى على الخطوة التالية إمتى؟

– (بلغة عربية فصحى) لست أدرى.. لست أدرى.. صدقنى يا سعيد.. أنا مش فاهمه ليه أنا مترددة.. ليه أنا خايفة.. فعلاً خايفة.. خايفة من المجهول.. كل الناس بتخاف من المجهول.. لأنه مجهول.

– وهو أنا غامض بالنسبة لك؟ يعنى أنت لسه مافهمتنيش؟

– مش عارفه ليه أنا حاسة بأن قصتى حاتبقى زى قصة "إنى راحلة"....

القصة دى أنا بأحبها جداً.. لأنى حاسة أن مصيرى حايبقى زى بطلة القصة.

– ليه التشائم ده؟

– ده مش تشائم.. ده رومانسية راقية.. المشاعر الصادقة أجمل حاجة فى الحياة والحب الحقيقى.. ده نعمة.. وهم دول اللى ناقصينا فى الدنيا.

– هل فيه عندك تجارب أثرت عليكى ياوفاء؟

فانفعلت وقالت بضيق : أنت إيه؟ نازل فىّ استجوابات.. استجوابات.. أنا عايزة ارجع أول لما المركب توصل القناطر.. عايزة أروح البيت.

وهذا ما حدث بالفعل.. رغم أننى حاولت تهدئتها.. وحاولت إضحاكها ببعض النكات.. ولكنها لم تتراجع عن تصميمها بالعودة.. وأخذنا الاتوبيس لأنه كان خالياً حيث أن الناس تحضر للقناطر فى الصباح فلذلك تعود الاتوبيسات شبه خالية.. وفى طريق العودة لم نتحدث بتاتاً.. وأوصلتها لباب منزلهم وهى لازالت متضايقة وسلمت عليها وتركتها وأنا فى حيرة من أمرها.. ووجدت أننى محتاج لاستشارة صديق عزيز مخلص ليخرجنى من حيرتى فذهبت إلى منزل عبد العزيز عمرو وأخبرته بكل ما حدث مع وفاء وكان تعليقه محيراً لى :

– ماتظلمش وفاء يا سعيد.. البنت دى مسكينة.. دى بنت ممزقة.. ماتنساش أن علاقتكم ببعض ماوصلتش لدرجة تخليها تبوحلك بالغليان اللى جواها.

– تفتكر كده يا عبد العزيز ؟

– طبعاً.. لأنها لو مش عايزاك.. كان سهل ترد لك دبلتك.. وأنت نفسك حسيت بأنها فى فترات بتبوح بحبها.. وحبها من النوع الرومانسى.. مش كده برضة ؟

– بس لما بأجيب سيرة أهلها.. بتتقلب خالص.

– ماهو ده السر ياسعيد.. هى متضايقة وفيه حاجات مضايقاها... وهى بتتضايق منك لما أنت بتقرب من الحاجة اللى هى مش عايزه تقولها. هنا فيه علامة استفهام!!

– هى فعلاً انفعلت فجأة وقالت هى الحكاية إستجواب وألا إية؟

لقد هدأتنى محادثتى مع عبد العزيز عمرو.. وقد تدرج حديثنا بعد ذلك إلى أحوال البلاد.. وكانت آخر كلمة لعبد العزيز: "أنت قدامك الضباب فى قصة حبك.. زى مأحنا كلنا فى مصر قدامنا برضه "الضباب" وأخذ شريط متداخل من الاحداث التى مرت بها البلاد يدور فى مخيلتى.. كان هناك مزيج من الغليان واليأس والأمل والحزن.. فلم يكن الشعب مستسلماً لما كان يدور بل كان ثائراً على أوضاع كثيرة وكانت المظاهرات هى الدليل على وجود شرخ فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم والحكومة والشعب.. وأصحاب القرار والمتض[illegible]ين من القرار.. لقد كان قرار اتحاد مصر وسوريا مظهره جميلاً..

ولكن حدوث الانفصال بعدها بثلاث سنوات أحدث شرخاً آخر فى جدار معبد الوحدة العربية.. وكان أثر هذا الشرخ عميقاً فى نفسية عبد الناصر بالذات، فقد كان دائم الوصف لسوريا بأنها "سوريا الحبيبة" وهو الذى أنقذ سوريا من الحكم الشيوعى.. وكان الشعب مبتهجاً بهذه الوحدة وكانت الكاريكاتيرات ترسم والكماشة تطبق على إسرائيل وكان عبد الناصر يُشبه القضاء على إسرائيل بما يفعله الفلاح المصرى للتخلص من "السنطة" فكان يقول "أن الفلاح المصرى حين يصاب بالسنطة فإنه لا يقطعها بحد السكين وإنما هو يربط حولها شعره من ذيل حصان ثم يشدها ويحكم الشد حتى يمنع وصول الدم إليها وحينئذ يموت نموها وتسقط على الأرض".

والانفصال ذاته له معنى التفكك.. بدلاً من الوحدة وكان رد الفعل فى بعض الاقطار العربية هو الشماته والتهجم على سياسة عبد الناصر فى الوحدة.. وإحساسه بالمرارة من فشل سياسة تجميع الصف العربى بعد انفصال سوريا هو الذى جعله يبادر إلى مساندة ثورة اليمن وأصبحت المشاكل الخارجية تشده بعيداً عن وضعه كرئيس لجمهورية مصر.. والشعب يدفع الضرائب ويشد الأحزمة على البطون ويعانى من توقف النمو.. والقيادة السياسية الشمولية هى التى تتخذ القرار بغض النظر عن موافقة الناس.

وكانت أخبار سقوط ضحايا من الشباب على أرض المعارك سبباً فى الملل والضيق بين الأسر المصرية.. ولم يكن يجرؤ أحد على التصدى لهذا مباشرة ولكن حدثت معارضة فى صورة تقديم طلبات لتحسين أحوال المدرسين والموظفين..

وحدثت بعض الإعتصامات فى المصانع.. وحدثت اعتقالات على نطاق كبير.. كما حدث تفتت فى المجتمع المصرى بسبب فقدان الثقة بين أفراد الشعب بعضهم ببعض.. وكانت هناك أقوال تتردد بأن الحكومة تشغل الناس بمشاكلهم الداخلية لكى تلهيهم عن المشاكل الخارجية.. ثم كانت النكسة طعنة فى صدر مصر والعرب.. ورغم سيطرة مراكز القوى بوسائل البطش بحجة حماية البلاد من الإنقسام حتى يستطيعوا مواجهة العدو الرابض على أرض الوطن.. إلا أن الطلبة قامت بمظاهرات وأشهرها مظاهرات ١٩٦٨.. بل أن هناك حادثة عابرة أظهرت فوران الناس.. فى مباراة الأهلى والزمالك عندما احتُسبت ضربة جزاء لصالح الزمالك هاج الناس وكسروا الملعب واتجه التدمير إلى السيارات واشتبكوا مع البوليس.. ولم تكن جوهر المشكلة هو احتساب ضربة جزاء من عدمه بل هى ثورة غضب زاد ضغطها داخل النفوس وإنفجرت فجأة.. وكان اليأس يلقى بظلاله على الناس الذين كانوا مطمئنين إلى القيادة العسكرية وفجأة ظهر شرخ كبير

أفقد الناس ثقتها فى قدرة القوات المسلحة على مجابهة إسرائيل وحدها.. وكانت نبرة المخاطبة تظهر الصلف الإسرائيلى وتحولت مشكلة محاصرة إسرائيل لكى تحمل عصاها وترحل إلى مشكلة أخرى هو ضروة تحرير الأراضى التى إحتلتها إسرائيل اثناء حرب ١٩٦٧ ففلسطين بأكملها تحت سيطرتهم وسيناء والجولان تم إحتلالهم بالكامل.

كان الأمل يعاود الناس عندما أغرقنا السفينة إيلات وعندما أسقطنا طائرات الفانتوم أو عند نجاح العمليات الفدائية داخل سيناء وكانت أهم عملية فدائية هى ماقامت بـه الضفادع البشرية المصرية عام ١٩٦٩ بتدمير سفينتين فى ميناء إيلات.. وكانت معركة رأس العش بالقرب من بورسعيد مؤشر على تصميم أبنائنا على التصدى للغرور الإسرائيلى.. ولكن مع الأمل كان هنـاك مسحة من الحزن على الأوضاع التى وصل إليها العرب ومصر بالذات.. لقد دفعت مصـر من دم شبابها أعداداً كبيرة وتأثر إقتصادها وأصبح شبابها الآن داخل الخنادق.. وكان السؤال الدائم هو إلى متى يستمر عدم وضـوح الرؤيا؟ ولذلك كان تعبير "الضباب.. الضباب" يحمل معنى عميق وكبير. حتى الحق فى تكوين أسرة صغيرة أصبح أمل بعيد للكثيرين من الشباب خصوصاً أنهم يحملـون السلاح ويقال لهم "لا صوت يعلو على صوت المعركة".. لقد عانت أسرتى مثلها مثل الكثير من الأسر المصرية، فسنية ووداد قد تم إرتباطهما ولكنه على الورق أكـثر مما يجب أن يكون فى أرض الواقع.. وإننى أتذكر هذه المحادثة بين سنية ومسعد عندما حضر فى أجازة لمدة أسبوعين :

– مكتوب علينا يا سنية أننا نبقى زى عمال التراحيل.. نتقابل كل فترة وبعدين أرجع تـانى لموقع العمل.

– ياريت كنتوا زى عمال التراحيل.. لأنهم بيبعـدوا عن بعض لكنهم مطمئنين على سلامتهم.. لكن أنا بأبقى قلقانة واقول ياترى أنت بخير يا حبيبى؟

– والله أنا عينى على البندقية ومراقب تحركات العدو.. لكن قلبى وعقلى فى القاهرة.

– إمتى ينقشع الغيم.. وتعود الابتسامة لبيتنا؟

– هو بس بيتنا؟ ده كل وطنا.. الحال كان أهوّن لما الانجليز كانوا محتلين البلد لأنها إسمها دولة عظمى.. مش إسرائيل بتاعت إمبارح تعمل كده.

كان الناس بتقول أن الانجليز حايجيلهم يوم ويرحلوا... لكن إسرائيل أصبحت زى السرطان اللى بينتشر فى اجزاء كثيرة من الجسم.

حتى عبد الله عبد السميع البواب أصابته شظية وتم بتر أحد ساقية.. وعاد للقاهرة وتم تسريحه من الجيش وكان بيقول ساخراً:

– اليهود أصروا أنهم يدونى شهادة بأنى كنت فى ميدان القتال.

ولكنه كان يشكر الله أنه عاد إلى أهله بساق مبتورة فإن كثيرين غيره لم يعودوا.. أما عن حبى فقد كنت أعيش فيه بكل كيانى.. ولكن ظهرت فى الأفق سحب بدت بسيطة فى البداية ثم أصبحت سحباً داكنة.. لقد كان حبى لوفاء حباً عميقاً.. ولكن اهلها كانوا يعتقدون بأننى غير مستعد مالياً ولذلك كان إصرارهم على "الدبلة" فقط.. وأعتقد أن الأب أعطى الفرصة لإبنته لتتأكد بنفسها أن تكوين عش الزوجية عبء علّى.. وحسب أقوالهم عنى أننى أجيد الكلام المعسول فقط.. وكان يعتبرون قصة حبنا مجرد طيش شباب يتم تحت سمعهم وبصرهم ينتهى خير من أن يتم فى الخفاء وتتأثر بى أكثر وتصر على زواجها منى!! أننى لن أنسى اليوم الذى طلب فيه والدها أن يقابلنى فى مكان هادئ فى إحدى الكازينوهات التى تطل على النيل.. وبعد الكلام العادى عن البلد وعن غلاء المعيشة.. وصعوبة الزواج والكساد فى البلد.. والاستعداد للحرب.. وبعد أن تناولنا المشروبات إلتفت إلى وقال بهدوء:

– بص يا سعيد يابنى.. أنت شاب مكافح.. وأنتوا كشباب تنقصكم الخبرة متهيأ لكم.. أنكم بتميلوا لبعض.. لكن.. (وتوقف عن الكلام فنظرت إليه مليا وسألته ونبرات القلق واضحة فى كلامى :)

– تقصد إيه حضرتك بكلمة "متهيألكم" وكلمة "لكن" فيه حاجة حصلت منى ؟

– لا مافيش حاجة حصلت منك.. لكن ياريتك تفوق.

– أفوّق؟ وهو أنا مش فايق ؟

– انت لسه عايش فى أحلام المراهقين.. الحياة الواقعية تختلف تماماً عن خيال الحب والهيام.

– أفهم من كلام حضرتك.. أنك بتعتبر خطوبتنا زى الأوهام ؟

– يابنى الحب نزوة عابرة.. وبينتهى لما يفوق الاثنين من أوهامهم.

– حضرتك بتسمى الحب نزوة وأوهام ؟

– طبعاً أوهام.. ياترى الحب حايوكلكم ويشربكم ويجيبلكم هدومكم وسكنكم وكل متطلبات الحياة؟ لازم تبقى راجل واقعى.

– الحياة بدون مشاعر عاطفية بتبقى حياة جدباء.. كأنها أرض قاحلة.. الحب ده نعمة من ربنا للبشر.

– الكلام ده يبقى مضبوط لما يتم الجواز.

– أنا مستعد أتجوز... ومشتاق أننا نخطو خطوة إلى الأمام.

– حلوة قوى تخطو للأمام.. حاتخطوا بإيه يأخى؟ بعنيك وبكلمات هيام وإلا بشراء الشقة المناسبة.. وتجهيز العفش.. وشراء العربية وخلافه..

– يظهر أن قدام حضرتك عريس لقطة.. فعايز تنهى خطوبتى أنا ووفاء.

– وهو أنتوا من الأول كنتوا مخطوبين ؟

– أمال كنا إيه ؟

– كنتوا فى فترة إختبار.. وأنا سمحت بيها.. عشان تواجهوا الواقع.. وحضرتك تفوق من شوية الجمل اللى أنت حافظها.. وهى كمان تحس بنفسها لما تفكر أنها حاتعيش فى القوضتين الضيقين اللى حضرتك فرحان بيهم.

– أنا أجرْت شقتين واحدة للسكن وواحدة حأعملها مكتب.

– نصيحتى ليك يا سعيد.. انتبه لمشاكلكم الأسرية أولاً... أقصد إلتزاماتك الأسرية.. أنا سألت عنك وعرفت ظروفك كويس.

– أنا ظروفى كويسة والحمد لله.

– ياسعيد كوّن نفسك زى لما أنا عملت.. وساعتها تبقى عريس ترحب بيك الأسر اللى عايزه تطمئن على مستقبل بناتها.

كانت هذه المقابلة ضربة مباشرة لأحلامى.. وكان أثرها عميقاً.. نفس الاحساس الذى أحسسنا به عندما أفقنا على هذه الحقيقة المرة وهى – النكسة التى تعرضنا لها فى معركة الأيام الست.. ولم أحس باليأس من كلامه لأننى واثق من حب وفاء.. وأتوقع أن تتمرد عليه وتناصر الحب الذى يربط بينى وبينها.. وكانت دهشتى كبيرة فى أن يكون الأب هو العزول.. إن موقفه المعادى جعلنى اتمسك بوفاء وأتمسك بالإصرار على المعركة ضد الأفكار البالية فهو يهتم بالماديات ولا يهتم بالحب والعاطفة.. إنه مثل الكثيرين من الأهالى الذين يرون أن الغنى هو الشرط الأول للعريس المناسب حتى أننا نسمع جملة مثل :

"ربنا يسعدك براجل غنى" على لسان معظم الناس وكأن مصدر السعادة يكمن فى الغنى فقط!!

أننى لا أعرف لماذا ربطت بين النكسة وبين حبى لوفاء؟ ربما لأن النكسة جعلتنا نفيق على واقع يختلف عن الواقع الذى كنا نحلم به.. وفعلاً كلام والد وفاء جعلنى أفيق على واقع أليم بالنسبة لى.. فالأحلام الوردية تصاحب قصة حبى وهى التى تعطينى الدفء والحيوية.. ولكن بمقاييس الواقع فإن الأحلام لا تفتح بيت الزوجية بمسئولياته.. ودخلى كمحامى دخل تافه خصوصاً فى وقت الكساد الذى نعيش فيه.. وقفز أمام عينى كلام رشدى صديقى عندما قال :

– لا تنس ياسعيد أن الإنسان مسير فى تسعين فى المائة من الأحوال.. فمن ساعة كتابة شهادة ميلاده يتحدد له موقعه فى المجتمع وبتتحدد له الأمراض والصفات الوراثية.. فابن الفقير حايطلع نفسه فقير.. واللى مربوط بمشاكل أسرته مش حايعرف يفك منها.

ورغم صدق كلامه فإننى قلت :

– يجب أن يغير الإنسان الواقع.. الفقير مش حايقعد عمره فقير .

– خلينا فى مشكلتك أنت ياسعيد.. أنت فرحان قوى بالشقتين الصغيرتين اللى أنت أخذتهم.. ودخلك يادوب مغطى الإيجار ومصاريفك اليومية.. فإيه اللى يخلى البنت تتهافت عليك ؟

– المسألة مش تهافت.. المهم هو أننا نعيش بجسدنا وعواطفنا وروحنا وكياننا.

– الكلام حلو قوى ياسعيد.. لكن الواقع شئ تانى.

– وفاء بتحبنى يا رشدى.

– لما بتعيش فى الجو العاطفى بتنجذب ليك.. لكن لما بتعيش بعقلها حاتوافق على كلام أبوها.. مضبوط وألا لأ؟

– مش قادر أحدد.. ولازم اقابلها وأعرف إيه الموقف بالضبط.

– مافيش أب مش عايز يفرح ببنته.. يعنى كل أب يهمه أن بنته تتجوز ومش حايطفّشْ العريس.

– ماهو تلاقى فيه عريس أفضل ظهر له.. يمكن كان سايبنى أنا أحتياطى.

– يعنى أنت متخيل يا سعيد.. ان الأب هو اللى واقف ضد حبكم؟

– أيوه.. لكن مازلت أعتقد أن النهاية السعيدة هى اللى بتنتظر الحبيبين.

– الكلام ده فى السيما يا سعيد.. عشان الناس تخرج مبسوطة من الفيلم.. لكن هل فى الحياة بنلاقى أن كل الحبايب بيوصلوا للنهاية السعيدة؟

أحسست أن رشدى قد لمس الجرح الذى بدأ يدمى.. فنحن فى الجلسات الرومانسية نتبادل كلام جميل.. وكانت تقول بأنها تحس بالسعادة ونحن سوياً نعيش فى أحلامنا الوردية وفى مشاعرنا الجميلة.. وفى المقابلات التى نتناول فيها مستقبل حياتنا تحسها إنسانه مختلفة تماماً فهى تتحدث عن صديقتها التى تعيش فى شقة فاخرة مليئة بالأثاث الوثير.. وعن قريبتها التى تعيش فى فيلا فاخرة ولديهم سيارة آخر موديل وهوايتهم تمضية الصيف بين أوربا وبعض المصايف المصرية الجميلة.. وأنهم يذهبون لأسوان فى الشتاء.. وهذا الوصف لحياة أقاربها يدل على انها تتمنى أن تعيش مثل قريبتها.. لذلك قررت أن أحسم الموقف فذهبت إلى منزلهم وكانت وفاء وزوجة أبيها وأختها وأخيها الصغير هم فقط الموجودين ولم يكن والدها موجوداً بالمنزل.. وكأناس مهذبين استقبلونى استقبالا فيه ترحيب ولكنهم نظروا لبعضهم.. وبادرتنى زوجة أبيها بالسؤال :

– أنت مش قلت لعبد الله أنك خلاص حاتؤجل التفكير فى الجواز ؟

– حأجل شوية لغاية لما نستعد أكثر.

– أحنا فهمنا أنك حاتؤجل الموضوع إلى أجل غير مسمى.

– مش فاهم قصدك إيه يا طانت ؟

– عبد الله قالنا أن سعيد أدرك بأنه تعجل فى موضوع الجواز.. يعنى بصراحة أنت لسه مش جاهز.

فقالت وفاء لزوجة أبيها :

– لو سمحتى يا طانت.. بعد إذنك خلينى أقعد أنا وسعيد فى البلكونة وندرس ظروفنا كويس.

وفعلاً جلسنا فى البلكونة وأحضرت أختها زجاجة بيبسى لى ثم فنجان قهوة بعد ذلك وتركتنا وحدنا نحدد مصيرنا..كانت الجلسة أشبه بندوة فكرية تتناول موضوع "حق الشباب فى العيش الكريم" ولاحظت أن وفاء مترددة بين العاطفة التى تغلغلت داخلها وبين طموحها فى العيش فى مستوى معيشى لا يقل عن مستوى أسرتها وكان تعليقى :

– يا وفاء... بيت ابوكى كامل من ناحية التجهيزات والأثاث لأن ده أستكمل فى فترة أطول من عشرين سنة.. لكن احنا لسه مبتدأين.

– بس ماعندناش إمكانيات خالص.

– ماتنسيش أن أنا لسه فى أول الطريق.

– وزى أنت ما قلت.. حالة الكساد خلت الناس تصطلح وماترفعش قضايا.. لأنهم ماعندهمش فلوس كفاية.

– ماهو الكساد مؤثر على الكل.. والتجار والكل عايشين فى نفس الظروف.

– هو الأفضل إننا نؤجل خطوة الزواج فعلاً.. ولو كانت الناس بتعيش على الحب بس. كنا نتجوز النهاردة.

– يعنى أنت مش مهتمة بإننا حانخنق العاطفة بايدينا ؟

– وهو احنا فى ايدينا إيه؟

– يبدو أننا عندنا انفصام فى التفكير.

– يعنى إيه انفصام فى التفكير؟

– يعنى بنفصل بين الحب وبين الزواج اللى هو مسئولية اجتماعية.

– ماهو حانوازن إزاى بين العاطفة وبين ضروريات الحياة ؟

– يعنى أنت بديتى تؤمنى بالمثل : "إذا دخل الفقر من الباب خرج الحب من الشباك"؟

– هو المثل ده واقعى جداً.. وأنت يا سعيد محتاج فترة تكوين طويلة.. واللى خلق وفاء خلق غيرها.

– يعنى والدك قال الحقيقة.. وأنا اللى كنت فاكر..

– فاكر إيه؟

– فاكر إنه بيحاول يفرّق بيننا.

– هى الظروف هى اللى بتفرق بيننا.. وأحسن لنا أن الظروف تفرق بيننا وأنا فى الخطوبة بدل لما تفرق بينا وإحنا معانا أطفال ويطلعوا ضحايا.

كان هذا اللقاء حاسماً وخرجت من منزلهم مصمماً ألا أفكر فى الزواج ألا وأنا مستعد تماماً.. ولم أذق طعم النوم هذه الليلة لأن صدمتى كانت كبيرة فلم أكن أتوقع أن وفاء تتنكر لحبنا.. لقد إهتز كل وجدانى.. هل حبى كان وهماً.. أريد أن أفيق من هذا الوهم.. الحب وهم كما قال لى الأستاذ عبد الله أم أن الحب هو زرع أخضر فعلاً كما قالت وفاء.. وأنه ضعيف فعلاً فى مواجهة الأعاصير المعادية.. الحب يحتاج لحماية مستمرة لكى يصمد.. ولماذا نظلم الحب.. الحب نفسه ليس وهماً ولكنى انا الذى توهمت أن هناك حب تحمله لى وفاء.. ولكن فترات الغرام كانت حقيقة ولم تكن وهماً لقد سبحت معى فى بحر الغرام ثم قفزت فجأة إلى الشاطئ بعيداً عن هذا الغرام لأنها ادركت أن الحب لا يساعد فى مواجهة التحديات الاجتماعية... لقد كان الأستاذ عبد الله محقاً فى قوله أن

الزواج مسئولية اجتماعية قبل أن تكون أحساسيس دافئة وقصة غرام عابرة من وجهة نظره.. إن تحقيق الحياة الزوجية يتم حسب المقاييس الإقتصادية.. أما الفنانون والشعراء فإنهم يعبرون عن العواطف الانسانية على الورق وقصص حبهم يعيشون فيها بين صفحات الكتب ولكن اكتمال السعادة عن طريق الرباط المقدس لا تتحق للفقراء أمثالى.

وبعد أن عشت فى دوامة الأفكار المتناقضة خطر ببالى أن أكتب خطاباً لوفاء أحثها فيه على الوفاء بعهودها.. أريد منها أن تكون صريحة وتخبرنى عن حقيقة مشاعرها، لقد ألهبت مشاعرى بحب فياض والآن رضخت لرأى أهلها وظهر موقفها من حبنا.. ربما تكون هناك اسباب أو أسرار وراء تغير موقفها منى.. أحساسى يقول لى أنها تحبنى.. لوعرفت الحلقات المفقودة سأصل للحقيقة.. ولكن كيف سأصل إلى معرفة الحلقات المفقودة؟ لماذا لا أبدا بالأتصال بها.. لماذا لا اجرب أن أرسل لها خطابا على جهة عملها.. فكلماتى ستحرك فيها المشاعر وسترد على تساؤلاتى.. فأمسكت القلم وجلست إلى مكتبى وتركت لنفسى أن أسترسل فى الخواطر لكى أخفف الضغط عن البركان المتفجر داخلى وكتبت أول خطاب لحبيبتى وفاء.. كنت أود أن يحمل اشتياقى ولهفتى لمقابلتها وأن يكون خطاب عاطفى رقيق لا أن أكتبه بعد أن تلقيت الصدمة القاسية.. وتنهدت ثم بدأت الكتابة :

" حبيبتى وفاء.. ألمْ تتعهد قلوبنا أن تغنى سوياً لحن الحب الخالد ؟ ألم تنقل عيونا الرسائل المتبادلة بين روحينا.. الروحان روحاً واحدة تعبران عن وجدان واحد.. دقات قلبينا كانت تتناغمان سوياً فى هرمونية رائعة.. وأنغام كيوبيد كانت تربطنا فكنا نرقص فرحين.. وقد انتقلت فرحتنا بهذا الشعور الجميل الذى طالما تغنى به الشعراء إلى كل شئ فى حياتنا فتغيرت نظرتنا للحياة فأصبحت نظرة وردية واصبحت الحياة جميلة لها طعم لذيذ وتستحق أن نعيشها.. إن الحب هو الشرارة التى تنطلق إلى النفس والروح فتنير الطريق أمامنا .. لقد عاش روميو وجوليت فى اجمل عاطفة انسانية وتحدوا رغبة الاهل فى ابعادهما عن بعض.. تحدوا العداء الأسرى الذى وقف فى طريق سعادتهما.. فالحب جعلهما أقوياء .. جعلهما يتهافتان على لقاء بعضهما لأنه لقاء عاطفى لقاء الروح.. لقاء القوة الكامنة وراء أوتار الحب فتحركها وتنطلق من الأوتار نغمة حلوة جميلة. نغمة أشبه بالنغم الملائكى الذى يُخدر كل ألم فى الإنسان ويجعلنا نتابع هارمونية رقيقة تحسها الروح قبل أن تسمعها الأذن.. الحب بالنسبة للأحباب هو الهدف الخالد فانتحار روميو وجوليت ما هو إلا المعادل الموضوعى لمعنى فقدان الاهتمام بالحياة التى فرقت بين الأحبة..

فالحياة نفسها تتوقف مع انتهاء الحب.. أن الناس تذكر قيس وليلى وانطونيو وكليوباترا وروميو وجوليت كرمز للوفاء لهذه العاطفة السامية التى نحب إسمها.. وننطق كلمة "الحب" لكى نسعد.. ولكن هل كان حبنا غير عميق فلم يتغلغل فى وجداننا.. هل إنتهت هذه النسمة والبسمة لأن أهلك اقنعوكى بأن الحب وهم كما قال لى والدك؟ وإن كانت هذه وجهة نظرهم فما هو موقفك من هذا؟ هل هناك أشياء لا اعرفها؟ هل خدعتنى العيون الجميلة فأعتقدت أنك تبادلينى الحب؟ هل أنا غير جدير بحبك؟ .. ربما تغيرت مشاعرك.. وليس من حقى أن أحاسبك على تغير مشاعرك. إن كانت العاطفة مستمرة لكانت جذبتنا وشدتنا لبعضنا.. ولكن إن فترت هذه العاطفة الآن فإنها تكون قد فشلت فى أول اختبار لها.. ولاقيمة لها.. فقد كانت النبراس الذى أنار لنا الطريق.. لماذا استخدم كلمة "لنا".. وأنت قد "أفقت" حسب قولك.. أفقت من الوهم عندما بدأت ملامح الواقع تظهر .. فالواقع يقول أن عدم استعدادى للزواج يقف حائلا كبيرا.. والحب هو حلم تعلقنا به ولأنه حلم بعيد عن الواقع فعليه أن يتبدد مع طلوع النهار.. ومن يعرف ربما كان الزوج نفسه هو مقبرة الحب.. وقد كُتب على حبنا هذه النهاية الفجائية.. فسواء أكان الزواج مقبرة للحب أم كانت ظروفى هى مقبرة الحب.. فالنتيجة واحدة.. لقد كتب عليه النهاية.. وأسفاه.. "كل شئ راح وانتهى واللى بينا خلاص مضى" كما كانت تغنى نجاة الصغيرة .. اننى لا أصدق ان تكون هذه هى النهاية.. إن قلبى يناديكى.. إن روحى تترنح فى الهواء فليس لها هدف محدد تتجه اليه.. انها كالطير المذبوح يقفز إلى أعلى ثم يسقط على الارض جثة هامدة.. لقد كتب لحبنا النهاية العاجلة.. تعالى يا حبيب قلبى .. نكمل حبنا الغالى.."

وامسكت الخطاب بعد أن توقف قلمى عن الكتابة وأعدت قراءته فاغرورقت عينى بالدموع.. واخذت أتمتم "يا دنيا ايه لسه عندك كمان.. هاتى اللى يرضيك يا دنيا".. اننى احس قلبى يعتصر ألما بعد أن كان يغنى مع العصافير .. أصبح قلبى ثقيلا بعد أن كان يطير مثل الريشة الخفيفة ويقفز ويطير فرحا.. كان يطير .. "كان" تعنى الماضى.. وخطر ببالى خاطر غريب.. كيف افكر فى إرسال هذا الخطاب اليها؟ هل الحب إستجداء؟ بالقطع لا .. "الحب جميل للى عايش فيه" كما تقول اغنية ليلى مراد.. ولكن هناك سؤال هام هل نحن "عايشين فيه؟ لا .. لن أرسل لها اى خطاب.. الموضوع لم يعد موضوع عتاب أو مصالحة أو إيصال الود.. الموضوع الآن اصبح موضوع كرامة.. اهلها وهى رفضونى فيجب أن اتحمل الموقف مهما كان مُراً.. اذا كانت المسألة مواقف وتذبذب فى العواطف وانجذاب وابتعاد فيمكن ان نتذكر الأيام الحلوة سويا .. والعاطفة ستقوم بدور

عودة المياة إلى مجاريها.. ولكن الآن تطرق الشك إلى وجود العاطفة أو نفترض ان العاطفة كانت موجودة وفترت أو تغيرت .. ومهما احسست بخيبة الأمل فلا فائدة ..وإن الدموع تريد ان تنهمر من عينى لتغسل الضيق والحزن.. فان كل هذا لا يبرر أن أنسى موضوع الكرامة.. كرامتى تأبى على أن استجدى الحب.. لن أسمح لأحد حتى ولو كانت الفتاة التى أحبها ان تدوس كرامتى. إن كرامتى هى كيانى وتأتى فى المقام الاول قبل العاطفة.. يمكن ان أصدمْ يمكن أن أحزن ولكن لا يمكن ان افرط فى كرامتى.. فالعاطفة متقلبة ولكن الكرامة ثابتة لا تقبل التنازل عنها.. فمن يتنازل عن كرامته افتقد آدميته افتقد نفسه.. لذلك نظرت إلى الخطاب وحاولت ان أقرأة مرة أخرى فلم أتمكن لأن كرامتى الآن هى التى ثارت علىّ فمزقته.. وأنا أهتز وقطعته إلى قطعا صغيرة وكأننى أقاتل من شدة عنف حركة يدى وهى تمزق الخطاب.. لا .. لن أفكر أن أشترى من باعتنى.. والموضوع لم يعد مجرد موضوع شراء وبيع .. الموضوع هو الإحساس بالمرارة.. وعلى ان أتجرع المرارة ولا أذل نفسى.. انها لحظة صعبة.. ولا الأصعب منها التهاون فى كرامتى..

إن قصة حبى مع وفاء لم تكن أول قصة حب أعيشها ولكنها كانت أول حب فيه مواجهة مع حبيبه أى أول حب متبادل.. فإننى لا أنسى قصة حبى الاول "مريم" زميلتى فى الكلية وكان ذلك فى السنة الثانية بكلية الحقوق ولكن قصة حبى لمريم بدأت وانتهت داخلى أنا فقط لا نها قصة حب من طرف واحد فاننى لم افاتح مريم بما كنت أحمل لها من مشاعر جميلة.. كانت مريم قد تلقت تعليمها فى المدرسة الانجليزية وفيها إختلاط بين الجنسين مثل الجامعة تماما.. ولذلك كانت طبيعية فى تعرفها على الزملاء من الجنسين.. أما أنا فقد فسرت طريقتها اللطيفة بأنها تحبنى ولكنها لا تظهر حبها بسهولة مثلما أفعل أنا .. وأخذت أكتب خواطرى وأهديها قبلاتى وأمنياتى الطيبة فى ورق الخطابات التى لم ترسل لها ابداً ولكنى احتفظت بها فى مكتبى ولاتزال فى درج المكتب وكنت اقرأها من آن لآخر.. فقد دق قلبى لاول مرة وكنت اعيش فى أحاسيس جميلة أفقت منها عندما رأيتها فرحانة وتُرى لزميلاتها الدبلة فى يديها.. فقد خطبها طبيب من عائلتها.. فأدركت الموقف وأفقت على الحقيقة وتجرعت مرارة الهزيمة وإجترت الألم إسبوعين كاملين.. ثم أخذت أقرأ كتب علم النفس وخصوصا التى تتناول المرأة لأننى أريد أن أفهم المرأة جيدا لأنى لم أدرسها ولم أفهمها لأنى تربيت فى اسرة لا تعترف بالإختلاط.. ولذلك نشأت خجولا وشبه منطوى على نفسى.

قرأت كتاب سيكلوجية الجنس.. وكيف تعرف المرأة.. والأوجه المختلفة للحب.. ووجوه حواء المتقلبة وغيرهم من الكتب ولازلت لا أفهم المرأة جيدا فالفهم لابد أن يأتى من التعامل مع الإستزادة بالمعلومات.. والمشاكل المختلفة التى أسمع عنها بين الزوج والزوجة تؤكد أن المرأة سر غامض بالنسبة للكثيرين ربما لانها عاشت فى مجتمعا يفرض عليها ألا تتحدث عن نفسها وألا تعبر عن أحاسيسها وألا تتصرف بحريتها .. ولازالت الكثيرات يقيمن فى خدرهن ينتظرن عريس الهنا.. بل إن كثيرات تخشين معارضة أهلها عندما يختاروا لهن أزواجهن تظهر المشاكل بعد الزواج ولكن الأهل يعتقدون أن هذه أشياء عادية وأنها الفلفل فى الطعام!! وتساؤلاتى عن العلاقة بينى وبين وفاء لم تعطينى الراحة النفسية.. فأنا الآن لا أفهم الكثير من تصرفاتها.. وقلت فى نفسى قد يكون العيب كامن داخلى أنا أيضاً فربما عدم الاختلاط هو السبب فى عدم فهمى للشئ المتقلب الذى يسمى حواء !! الم تحير حواء الكثيرين قبلى.. وستحير الكثيرين طالما اننا لم نعترف بكيانها كإنسانة لها مشاعرها ولها أحلامها ولها أمانيها ولها ميولها وأحاسيسها.. وطالما لم نعطيها فرصة التعبير عن نفسها جيدا.. فالمجتمع دفعها لأن تكون سلبية تنتظر العريس الذى يطرق باب بيتها ويطلبها ويمنعها الحياء من أن تقول الصراحة.. ولكن فى موضوعى أنا هناك أشياء كثيرة لم افهمها وأطلقت عليها كلمة "الحلقات المفقودة" وفى هذه الحلقات يكمن السر أو الأسرار التى جعلتها ترتد بسرعة عن السير فى طريق المشاعر الفياضة.. وأخذت أسترجع بعض كلماتها وبعض مواقفها واتوقف دائما عندما أتذكر إنفعالها ونحن فى المركب فى رحلتنا للقناطر الخيرية عندما إقتربت من موضوع أهلها.. ماذا يضايقها فى التحدث عن أهلها؟

وماذا عن الأب؟ إن نظرته للحياة مادية ولكنه – والحق يقال – ترك لنا فرصة

اللقاءات للتعارف وأعطانا فرصة أن نفهم بعضنا ونتبادل العواطف.. ولم يهين كرامتى ابدا.. ولم ينتقد تصرفاتى أو يستهزئ بأسرتى مثلا.. ولكنه كان واضحا فى مواجهة الحقائق.. وأظهر العوائق التى تقف حجر عثرة فى طريق زواجنا وهو دبلوماسى فى كلامه.. ودبلوماسى فى تكتيكه بأنه ترك وفاء نفسها تبتعد عنى .. ولكن هناك سؤال يلح على باستمرار.. ما الذى يجعلها فى هيام تام عندما نتحدث عن الحب والعاطفة.. ولم نكن نتحدث فقط كنا نعيش فى الحب.. وأنا رومانسى وهى أيضاً رومانسية.. والتقت أرواحنا ووجدت هذا فى نظرات عينيها إلى وفى امساكها ليدى.. فى ايمانها بالحب.. ولكن هناك

سحابة تظهر فجأة.. وهنـاك تشـائم.. إنـى أتذكـر شـرودها وهـى تتحـدث عـن قصـة "انـى راحلة" التى تعشقها لدرجة انها تتقمص شخصية البطلـة وهـى تعيـش اللحظـات المأسـاوية عند فقدان حبيبها الذى سهرت بجوارة وكانت أسرة البطلة أيضاً تقف موقـف معـادى لهـم ولحبهم.. فرغم زواجها ممن إختاره إهلها فان قلبهـا وكيانهـا كلـه كـان مـع حبيبهـا والتـى انتهت حياتهما نهاية مأساوية.. ماسر هذا الإحساس؟ هنا يكمـن سـر لا أفهمـة.. وربمـا لا تفهمه هى نفسها لأن هذا الموقف ينطوى على أثار موجودة فى العقل الباطن.. كيف أصل إلى أغوار نفسها وأنا ليس لدى أى فرصة الآن بعد أن قطعت العلاقات بإنهاء الخطوبـة.. هل أقول لوالدها ابنتك تعانى من أفكار غامضة؟ سينظر إلى لحظتها نظـرات ارتيـاب فـى قواى العقلية.. وربما رد على رداً قاسياً وربما جرح كرامتى.. إنها كانت تطرب لكلمـاتى الحلوة عندما كنا نعيش فى عشق لحظات الصفاء والمغازلة والهيام.. ولكن كـان يعاودهـا الخوف من شئ ما.. إن كلام عبد العزيز عمرو يوحى لى بأنهـا تحتـاج لشـخص مخلـص يقف بجانبها للعبور من أزمتها النفسية.. فعبد العزيز يرى بأنها تمر بأزمة نفسـية وليسـت مجرد فتاة رفضت الخطيب.. ولكن ما هى هذه الازمة؟ وكيف أقف بجوارها وأنا عريـس رفضتنى هى ورفضنى ابيها ورفضتنى زوجة ابيها بعدم ترحيبهـا بـى منـذ البدايـة وحتـى النهاية.. ربما السـر يكمـن فـى زوجـة ابيهـا فهـى مغـرورة ودائمـة التحـدث عـن أسـرتها الغنية.. فزوجة ابيها غنية وجدها والد أمها غنى جدا.. وقد حكت لى وفـاء عـن الرفاهيـة التى يعيش فيها جدها وأنها كانت سعيدة وقت أن كانت تعيش مع جدهـا.. ولكـن وفـاء لـم تحدثنى أبداً عن أمها أو عن ذكرى أمها ولم تذكر لى لمـاذا عاشـت مـع جدهـا حتـى سـن الثالثة عشر.. إنه سن الحضانة للبنت.. ولكن لماذا كان الجد هو الحاضن لها فان هذا حق الأم فقط.. ربما لم يكن الجـد هـو الحـاضن ولكـن والدهـا تركهـا مـع جدهـا وجدتهـا فتـرة طفولتها بعيدا عن زوجته الثانية، وعندما اصبحت مدركة للحياة اعادها إلى شقته هو؟؟

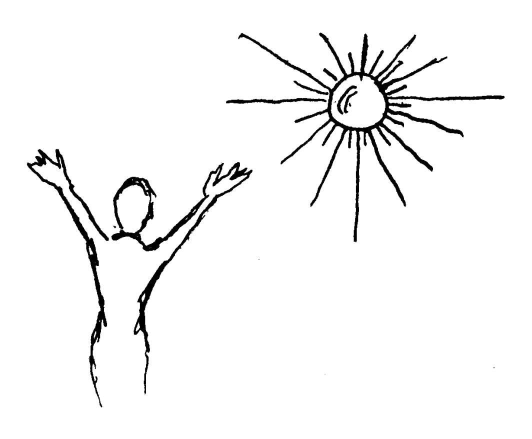
إن والدهـا نفسـه يخفـى اشياء عنــى فإنــه فــى أحاديثــه معــى فــى اللقــاءات القليلــة بيننـا كـان يتحـدث عـن أسـفاره الكثيرة لألمانيـا.. ولا اعتقـد أنهـا كـانت بسـبب العمـل فقـط.. ثـم مـا صلتـه بفاطمـة شـريكته.. هـل هـى علاقـة عمـل فقـط؟ إن زوجتــه الثانيــة كــانت تتشــاجر معــه بســبب فاطمــة هــذه.. وقــد حكــت لــى وفــاء بعضــا مــن هــذه الخناقـات.. ووفـاء ذاتهـا تتسـاءل احيانـا.. لمــاذا لـم يشــارك رجــلا بـدلا مــن فاطمــة؟ فوفــاء تكــره زوجــة أبيهــا كراهيــة عميقــة والزوجــة ووالــد وفــاء فــى شــجار دائــم ولكنهمـا يظهـران أمـام النـاس كمـا لـو كانـا علـى وفـاق تـام.. إنهـم مظهريـا مـتزنين

ويحضـران سـويا للمناسـبات ولكـن مـن يراقـب جيـدا التعبـيرات التلقائيـة علـى وجهيهمـا يكتشـف أن السطح يختلـف عـن الاعمـاق... ان هنـاك الكثـير مـن الانمـاط مـن النـاس المختلفـة وهنـاك نوعيـات مختلفـة مـن العلاقـات.. هنـاك البسـطاء الذيـن ينطـق لسـانهم بمـا يوجـد داخـل قلوبهـم وهنـاك الغـامضون ذوى الابتسـامة الصفـراء ولكـن مـا فـى القلـب فـى القلـب.. هنـاك المنـافقون والمـراوؤن.. وهنـاك الصرحـاء والطيبـون.. هنـاك الانـانيون وهنـاك المحبـون للنـاس.. هنـاك المخـادعون وهنـاك المعينـون للنـاس.. هنـاك العدوانيـون والذيـن لا يريـدون خـيرا للآخريـن.. وهنـاك المضحـون فـى سـبيل الآخريـن.. والتضحيـة واجبـة فـى العلاقـات الاسـرية حتـى يـتربى الاولاد فـى داخـل معبد الاسرة ويستنشـقون هـواء الحـب العليـل ويشـربون مـن نبع الحيـاة الـذى يـروى ويجـدد النشـاط.

كلمـا فكـرت فـى موضـوع الخطوبـة الفاشـلة كلمـا زاد الغمـوض وكلمـا أصبـح الضبـاب كثيـف امـامى.. يجـب ان استسـلم للواقـع فالحقيقـة الثالثـة هـى أنـى خطيـب مرفـوض.. وأى محاولـة ثانيـة مـن جـانبى تعتـبر امتهـان لكرامتـى.. مـن الافضـل أن اعيـش فـى مشـاكل النـاس لكـى أنسـى مشـاكلى.. وعملـى نفسـه هـو بحـث مشـاكل النـاس فـى القضايـا والمحاولـة إلـى الوصـول إلـى حـل لهـا.. ودراسـة القضايـا تعطينـى فرصـة افضـل لفهـم المجتمـع.. وحتـى موقعـى الاجتمـاعى يحتـاج إلـى تغيـير.. نحـن فقـراء ولكننـا لسـنا معدوميـن.. ولكـن مـا الفـرق بيـن الفقـير والمعـدم عنـد التقـدم لشـريكة الحيـاة.. فأنـا فـى نظـر الاستاذ عبـد اللـه مُعْـدوم لأنـه الآن غنيـا رغـم أننـى عرفـت مـن القصـص العارضـة أنـه عصـامى وأنـه كـان فقـيرا بينمـا أهـل زوجتيـه الاولـى والثانيـة أغنيـاء.. يجـب أن أصعـد السـلم أولا.. يجـب أن يكـون مسـتواى المـادى افضـل حتـى لا ترفضنـى عروسـة أخـرى.. الحـب جميـل حقـا ولكنـه لا يعطينـا الدخـل والأكـل والمعيشـة المناسـبة وإننـى أتذكـر جملـة قالهـا لـى زميـل بالكليـة كـان قـد تعـرض لصدمـة عاطفيـة فقـد قـال "كـلام الحـب لا بيقـدم ولا بيـأخر" وتنهـدت وأنـا أتنفـس بعمـق وأقـول: "آه.. حتـى الحـب محـرم علـى الفقـراء!!"...

لقد كـان رأى برناردشو السـاخر مـن الـزواج حقيقـى.. فـالفقير يـتزوج لأن ليـس لديـه مصـاريف خادمـة.. ان الـزواج بالنسـبة للفقـير هـو البحـث عمـن تقـوم علـى

خدمته.. لقد أحب كثير من الشعراء وأعطونا أحسن الأغانى واحسن الأشعار التى تعبر عن الحرمان واللهفة لأنهم غير قادرين على تحقيق "ذاتهم العاطفية".. وقطعا لن يندمل الجرح بسرعة فنحن عندما نقتلع شجرة من التربة فإنها تترك حفرة مكانها.. فاقتلاع الحب مثل إقتلاع الشجرة بل إن مكان الشجرة قد يمتلئ بسرعة بتراب آخر.. ولكن الاقتلاع من داخل النفس البشرية يترك آثارا أكثر عمقا وتستمر فترة طويلة.. وربما لا ينتهى تأثيرها ومهما غاص هذا الأثر فى اعماق العقل الباطن فانه سيقلق المضاجع ويؤثر على التفكير ويؤثر على مواقفنا تجاه الحب والناس والحياة.



الفصل الرابع

ماذا بعد النصر؟

إن الفكر هو الذى يقلق مضاجعنا خصوصا إذا كان يدور حول مشاكل لم تحل... وانشغال البال واضطراب الوجدان يلازمان الإنسان الذى يمر فى تجارب فاشله... والصدمات العاطفية وخيبة الأمل هما الشحنة المضادة للحركة الوثابة للأمام.. والإنسان فى المجتمع الإنسانى يمر بتفاعلات متعددة وانفعالات متنوعه.. إن الحياة أشبه بسلسلة من الدوامات المتعددة الاتجاهات وقد يصاب فيها الإنسان بالدوار أو بالضياع أو بفقدان التوازن... وقد تصبح الرؤيا أمامه متعثرة بسبب الضباب أو بسبب عدم إدراك أمور غامضة.. إن الأرق الذى يلازمنى هذه الأيام افقدنى الراحة الجسدية والراحة النفسية، فتركت السرير وجلست أمام مكتبى وأمسكت بالورقة والقلم لكى أدون الخواطر التى تتنازعنى وكتبت:

"أحلم باليوم الذى نتحدث فيه بصدق المشاعر والاحاسيس.
أحلم باليوم الذى ندرك فيه أن القلب له مطالبه والجسد له مطالبة والروح لها مطالبها.
أحلم باليوم الذى نحيا فيه دون قهر فكرى أو خزعبلات الدراويش.
أحلم باليوم الذى يوجد الحب بين القلوب الشابة ولا شئ غير الحب.
ونخضع فيه لسلطان الوجدان وتفتح العقل.
أحلم باليوم الذى يعيش فيه المواطنون أحرارا لهم حقوقهم ووجباتهم.
أحلم باليوم التى تحكم فيه طبقة الحكماء العقلاء
فتشع بيننا نور الحكمة ويسود فيه العدل.
أحلم باليوم الذى يتنفس فيه أولادنا نسيم الحرية ويتحدثون فيه.
بلغة المساواة التى تعبر عن الجمال والصفاء.
احلم باليوم الذى نشجع فيه أطفالنا على الابتكار.
ونطلق لهم عنان الخيال ليعرفوا حلاوة الحياة.
أحلم باليوم الذى تنتهى فيه وصاية الجهلة على مجتمعات
الفكر الحر فلا يصادرون كلمات الحرية والمحبة والتسامح.

أحلم باليوم الذى يؤدى فيه كل فرد دوره حسب ما وهبه الخالق.
من قدارت فالسيف لن يعمل منه مفكرا خلاقا حرا .
أحلم باليوم التى تدرك فيه القيادة الحكيمة ان الشعب الحر
لا يمكن قهرة بالسوط ولن يحرك العنف أوتار القلوب.
أحلم باليوم الذى لا يشترى فيه القرش ضمائرنا
ولا يساومنا الشيطان على أخلاقنا الحميدة.
أحلم باليوم الذى يعتز فيه كل فرد بكرامته وآدميته.
ولاتهان فيه العزة والكرامة والعدالة والحرية.
أحلم باليوم الذى يسترد فيه المصرى إحساسه الفطرى.
بأنه يعيش فى وطنه وينعم فيه بحقه كمواطن .
أحلم باليوم الذى نُعيد فيه الجرزان إلى جحورها
ونقضى على الخفافيش وكل أنواع طيور الظلام.
أحلم باليوم الذى تنعم فيه الاسرة براحة البال.
ونغمات الحب وغذاء الروح من الموسيقى الحالمة.
أحلم باليوم الذى يأخذ فيه كل صاحب حق حقه.
ونكفكف فية دمع المظلومين ونخفف عنهم الأنين والألم.
أحلم باليوم الذى تنقشع فيه سحابة الانانية.
وسحابة الفساد القاتمة والداكنه والمقبضة.
أحلم باليوم الذى تغرد فيه الطيور بهجة وفرحا وتنطلق فيه.
الأطفال تمرح وتغنى وتضحك عندما تسطع فيه
شمس المعرفة والنور ويهفهف فيه نسيم الحرية.

وبالنسبة لوطنى ولأسرتى فالضباب استمر ثلاث أعوام كاملة وحدثت خلالها مصادمات بين الناس والسادات وقامت مظاهرات تطالبه بتنفيذ وعده أن تكون السنة "سنة الحسم" كما كان يؤكد.. ثم أتى طردالمستشارون الروس بعد عام من معاهدة الصداقة مع السوفيت.. وهذا جعل الضباب كثيفاً أمام الرؤيا فالناس لم تعد تدرك هل نحن سنحارب أم لا؟.. وحالة اللاسلم واللاحرب زادت من معاناة الناس.. فالكساد زاد والضيق زاد وعدم الثقة بين الناس والحكومة زاد رغم أن الشئ الوحيد الذى ابتهج له الناس هو القضاء على

مراكز القوى التى طالما عذبت الناس وجعلتهم يعيشون فى رعب.. ولكن كان الناس يهمسون أن المسألة ليست نشر الحرية والديمقراطية التى يتعطش لها الناس قدر ما هى تصفية حسابات مع أعدائه فالصدام بينهم كان جلياً وعرف الناس بتطاول اعضاء اللجنة المركزية على رئيس الجمهورية ولذلك قام الحرس الجمهورى بأعتقال كل اعدائه حتى لا يحس الجيش أو الشرطة بما كان يضمره لهم.. كان الغليان كبيراً والاضطربات مستمرة وقدم المثقفون وثيقة إلى انور السادات أشاروا فيها إلى أن الشباب فى حالة تمزق.. وقد تم صياغة هذه الوثيقة فى مكتب توفيق الحكيم بجريدة الأهرام وبحضور كوكبة من الأدباء والمفكرين ومنهم نجيب محفوظ وهذا يدل عن عدم رضا أصحاب الرأى عما يجرى فى البلاد.. وأطلت الفتنة الطائفية برأسها وهذا شرخ خطير فى الوحدة الوطنية وأهم أحداث هذه الفتنة هى أحداث الزاوية الحمراء وبعض الأحداث الفردية فى أسيوط والمنيا وفى أماكن متفرقه من الصعيد. ونجح أخى فادى فى البكالريوس وقدم نفسه للقوات المسلحة دفعة إبرايل ١٩٧٣.. وضاعت فرحتنا بنجاحه لأن تجنيده معناه الابتعاد عن المنزل وكانت والدتى شديدة التعلق به.

كانت هناك مفاجأة لى فى قصة وفاء.. فقد تزوجت وفاء ابن عم سامى زوج أختى وعرفت هذا عندما قال بأنه مسافر إلى أسيوط لحضور حفل زفاف إبن عمه وقرأت الكارت الذى كان موضوعاً على المنضدة.. ولفت نظرىاسم العروسة وفاء واسم الأب عبد الله وسألته أليست هى من مصر وتظاهرت بأنى أعرف والدها الذى وكلنى فى إحدى القضايا.. وقد تضايقت حقاً عندما قرأت كارت الدعوة لحضور حفل زفافها.. وهذا يظهر بإننى لم اتخلص من تعلقى بوفاء وبدأت استرجع بعض احاديثها معى علنى أجد تفسيراً لهجرانها لى.. ولكن مالافائدة.. ومثلما قال عبد الناصر وقت معركة ١٩٥٦ "كتبت علينا الحرب وما كنا نريدها" فإننى أقول كُتب علينا الفراق وما كنا نريده".

وبعد ظهر يوم ٦ أكتوبر أذاعت مصر أن بعض الطائرات الإسرائيلية أغارت على الضفة الغربية وتصدت لها وسائل الدفاع الجوى وردت عليها طائراتنا بالمثل وكنا نعتقد أن هذه العملية استمراراً لعمليات حرب الاستنزاف ثم ادرك الناس أن الحرب بدأت بالفعل خصوصاً بعد أن اذاعت الإذاعة المصرية عبور قواتنا لقناة السويس واقتحام بعض النقاط فى خط بارليف المنيع ثم أذاعت الإذاعات الأجنبية عن الاشتباك بين القوات المصرية والإسرائيلية وبين القوات السورية والإسرائيلية فى الجولان.. وكانت اللهفة لدخول

المعركة هو رد الفعل الطبيعى للمكوث بالخنادق طوال سبع سنوات.. كما أن حالة البلاد الاقتصادية قد ساءت للغاية.. وتوالت أخبار الانتصارات فى الجبهة وتم أسر الكثيرين ومنهم قائد المدرعات "ياجورى".. ورأى الناس فى التليفزيون المقابلات مع الأسرى الإسرائليين، وغمرت الفرحة الناس.. وكان تعليق المشير أحمد اسماعيل ألا يتعجل الناس التقدم أكثر إلى داخل سيناء مشيرا بأن تحرك الجيش المصرى يسير طبقاً لتخطيط سليم فحتى الإذاعات الأجنبية بدأت تقول بأن المتحدث المصرى يقول "بينما كانت تستخدم فى حرب ١٩٦٧ لفظ "يدعى" المتحدث المصرى وهذا يدل على أن إعلامنا تغير واكتسب مصداقية القول.. وكانت فرحة الناس تزداد يوماً بعد يوم ويزداد ثقته بقواتنا المسلحة التى نجحت فى عبور القناة.. وكان قائد روسى قد قال بأنه يلزمنا قنبلة ذرية لتحطيم خط بارليف وهاهم مهندسينا اخترعوا المدفع المائى الذى فتح الثغرات فى الساتر الترابى الكبير ودمروا مواسير النابالم.

لاحظ الناس بأنه لم توجد غارات جوية على القاهرة.. وصدّق ما سمعه عن أعمال البطولات عن أفراد القوات المسلحة فبالرغم من حدوث الثغرة لم تنهار القيادة وتأمر بانسحاب بل تصد الشعب مع الجيش لمحاولات الاستيلاء على السويس أو الاسماعيلية واستمر الجيشين الثانى والثالث متمسكين بمواقعهم وتوقف اطلاق النار ثم حدثت مباحثات الكيلو ١٠١ ثم زيارات كيسنجر المكوكية بين القاهرة وتل أبيب وبين أسوان وتل أبيب لأن الرئيس السادات انتقل لأسوان بعد أن تم النصر. ثم الزيارات المكوكية التى قام بها كيسنجر ايضاً بين دمشق وتل أبيب. وتم وضع خطوط فصل القوات والإتفاقات بخصوص الانسحاب من سيناء.. وكما قلنا أيام بناء السد العالى "قلنا حانبنى وأدى إحنا بنينا السد العالى" يحق لنا أن نقول "كنا حانعبر وأدينا عبرنا قناة السويس" والعبور ليس عبور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية أنه عبور من اليأس إلى الأمل.. هذه هى اول حرب حقيقية بين مصر وإسرائيل لأنها قامت بعد تخطيط وتدريب عنيف واندفاع وحماس الشباب المؤمن بقضيته والمتعطش لتحرير أرضه.

وبعد أن توقف اطلاق النار تلقينا صدمة كبرى أخرى فقد استشهد أخى الصغير فادى فى منطقة الدفرسوار.. وبالطبع حرصت القيادة العامة على عدم الابلاغ عن المصابين والشهداء إلا بعد توقف اطلاق النار..

كانت صدمة عنيفة للأسرة كلها وعلى وجه الخصوص والدتى التى كانت مرتبطة ارتباطاً خاصاً بفادى.. وما العمل؟ أنها الحياة بحلوها ومرها فهى خليط من الفرحة والحزن والمتعة والمعاناة.. أنها أرض الآلام.. ألم يكتب على آدم بان يكسب عيشه بعرق جبينه.. وكُتب علينا أن نحرر بلادنا بدماء شبابنا الذكى؟

إذا كنا قد أدركنا عقب الصدمة الكبرى التى تلقيناها فى مصر وفى العالم العربى بأكلمه بأننا محتاجون لوقفة مع النفس حتى نعرف أخطائنا ونعرف الأسباب التى أدت بنا إلى النكسة، فإننا الآن محتاجون لوقفة متأنية مع النفس.. كلنا كأفراد وكحكومة محتاجون لهذه الوقفة ولابد أن تكون متأنية لإننا الآن مثلما عانينا واستطيع أن أقول أننا جيل المعاناة فكل من وصل إلى سن الإدراك والوعى فى الخمسينات يمكن أن نطلق عليه وصف "جيل المعاناة" لا يمكن أن نتعرض لحياتنا الفردية أو حياتنا الأسرية بدون أن نتعرض للحياة السياسية :

فساكنى الخنادق منذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ لم يختاروا لأنفسهم هذه السكنى ومعاناة الناس من الكساد لم تكن باختيارهم.. وأزمة المساكن وأزمة المواصلات وأزمة البطالة وأزمة الخدمات لم تكن من صنع "جيل المعاناة" وما نقوله عن جيل المعانة ينطبق على مختلف الناس من مختلف الجنسيات وفى مختلف الأماكن ومختلف العصور.. فكل من ماتوا أو شردوا أثناء الحرب العالمية أو أى حروب محلية لم تكن لهم سلطة الاختبار أو الإرادة.. هذه فى الحياة ولو كان إيليا أبو ماضى حاضراً اثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ لقال "ووجدت أناس يطرودننا فتركت ديارى خوفاً من المذابح وخوفاً على حياة أولادنا". لقد كان قدر هذا الجيل أن يحضر أربعة حروب وكلها اثرت على بلادنا وعلى البلاد العربية المحيطة بإسرائيل.. فبدلاً من حل المشاكل الإجتماعية والاقتصادية وجدناانفسنا فى صراع مع الاستعمار وفى صراع مع الملكية وفى صراع مع المتغيرات السياسية والاجتماعية.

وإذا كنت أربط بين حياتى الشخصية والصراعات الموجودة فى المجتمع فإننى أنظر نظرة تحليلية للحياة لإننى – كأى فرد آخر – نشأت فى أسرة وهى النواة الأولى للمجتمع وتأثرت بظروفها وكما يقول علماء الاجتماع :

نشأت فى بيئة اجتماعية معينة فى زمان معين وظروف سياسية واقتصادية معينة.

وإذا كانت المعركة الخارجية تعتبر منتهية بعد تحقيق النصر فإننا نواجه المعركة الداخلية وهى معركة متفرعة ومتعددة وتتناول حياتنا اليومية بصورة أكثر عمقاً. ويمكن أن نضع الخطوط العريضة لهذه المعركة : هناك معركة التنوير للتخلص من الجهل والتخلف وهناك معركة التنمية لنصلح أحوالنا الاقتصادية، وهناك معركة الحرية والتخلف وهناك معركة التنمية لنصلح أحوالنا الاقتصادية، وهنام معركة الحرية والديمقراطية لكى لا ندفع ثمن أخطاء الأفراد - حتى ولو كانت بحسن نية وحتى لو كانت الظروف السياسية معاكسة لهم - فالشعب هو الذى يدفع الثمن فلابد أن يكون له رأى فى تنظيم حياته خلال المؤسسات التشريعية والتنفيذية.. وهناك مشاكل الرعاية الاجتماعية والتنشئة السليمة لرجال الغد متمثلة فى المدارس والجامعات وكل دور العلم.. وهناك المشاكل الملحة وتحتاج لحلول وعلى رأسها مشاكل الخدمات والاسكان والمواصلات والبطالة والتليفونات والطرق.. أن المعركة الداخلية تحتاج إلى تضافر الجميع لنحل مشاكل تراكمت فترات طويلة.

لقد كان استشهاد أخى فى حرب التحرير هو أكبر صدمة لنا خصوصاً لوالدتى المريضة، فهذا حطم معنوياتها وزاد عليها المرض فلم ينقطع بكائها ليلاً أو نهاراً.. لقد كان "فادى" هو "آخر العنقود" وكان الطفل المدلل والمرتبط بوالدته ارتباطاً وثيقاً.. فأنا بالنسبة لوالدتى بديل الأب فى تحمل المسئولية.. ووضعى كمسئول عن الأسرة يعطيهم الحق فى أن يتوقعوا الأخذ منى، فالأختان تحسان بأنهم محتاجين لحمايتهم وقت الضرورة. أما "فادى" - رحمه الله - فكان يتمتع بتدليل الجميع له.. ورغم حصوله على المؤهل الجامعى فكان فى نظرنا الدلوعة" بتاعنا. وبعد أن اختطفه الموت أصبحت أنا ووالدتى نعيش فى شقة الأسرة.. وكانت سنية تزورنا أكثر لأن وداد انتقلت لأسيوط مع زوجها لأنه توسع فى مشروعاته الخاصة فى الزراعة فقام بتربية العجول وعمل مناحل لعسل النحل وعنابر لتربية الدجاج.. فكانوا يقضون ما بين أسبوع وعشرة أيام فى أسيوط وثلاثة أو أربعة ايام فى شقتهم بالقاهرة لكى ينظم عملية التسويق.. وكانت تحضر لنا وداد فى فترة تواجدها بالقاهرة.

وفجأة أخذت والدتى تتنفس بصعوبة وبنهجان وأحضرنا طبيباً وشخص الحالة بأنها "نيموسوركس" وشرحها لى بأنها أشبه بانفجار فص فى الرئة وأنه لابد من تركيب ابرة مثبته فى جهاز لكى تسحب الهواء من هذا الفص. وقد أوضح لنا بأن هذا الجهاز موجود

فى القصر العينى أو الدمرداش فلابد من نقلها إلى هناك فوراً, وساعدتنا الدكتورة سلينة قريبتنا فى الدخول فوراً فى القسم الخاص بحالة والدتى.. وقضت والدتى أسبوعاً بالكامل لم تتحسن خلاله واصبحت نفسيتها فى الحضيض. فالأطباء الذين يزورنها هم طلبة الامتياز ونائب القسم. كان الاهمال كبيراً والرعاية من ناحية التمريض والنظافة والهدوء تعتبر صفراً.. وإذا كانت الدولة – مشكورة– تقدم الخدمات الطبية مجانا فيجب أن تكون هناك خدمات حقا والمسألة ليست سرير وبعض الأدوية وطعام لا طعم له ولكن تنبعث منه روائح غير سارة.. فالطبيخ فى قزانات ضخمة والطاهى يلقى الخضار بها. وفى معظم الاحيان لا نتعرف على نوع الخضار الذى يُقدم وكانت اللحوم المجمدة المستوردة صعبة المضغ ومليئة بالدهون الكثيفة التى تجعل المرضى يشمئزون منها.

وأشار علىّ عبد العزيز بفكرة رائعة خطرت على باله ثم استفسر عنها وبعد أن تأكد منها أخبرنى بها.. وهذه الفكرة هو أننا من حقنا أن ننقلها إلى مستشفى عسكرى لأنها أم شهيد.. وتعتبر البداية بالنسبة للعلاج هو موعد نقلها إلى المستشفى العسكرى.. فالرعاية تامة والممرضين والممرضات خاضعين للنظام العسكرى، والدقة والمحاسبة والنظافة متوفرة والإجهزة المطلوبة موجودة.. وهذا شئ مؤسف جداً بالنسبة للأهمال فى المستشفيات المجانية.. والشئ الأعجب أن بعض الممرضات تنهرن المرضى وسمعت إحداهن تقلن لمريضة فقيرة :

"اشكرى ربنا أنك بتتعالجى مجانا" فردت المريضة بأن الحكومة هى التى تدفع مصاريف العلاج فأنفجرت فيها وتطاولت عليها.

هل هناك صفاقة أكثر من هذا ؟ الممرضة الفقيرة "تعاير" المريضة الفقيرة وكأن جناب الممرضة هى التى تنفق عليها!! وبعد أن تحسنت والدتى تركت المستشفى ولكن القدر كان لها بالمرصاد فبعد أقل من شهرين اشتد عليها المرض وأحضرنا الطبيب ليحدد إذا كان سيعالجها بالمنزل أم ننقلها للمستشفى ولم يكد يضع الطبيب سماعته على صدرها حتى شهقت فجأة.. وأرتبك الطبيب وكان وجهه يعبر عن الحقيقة : لقد اختطف الموت والدتى.

إعترانى شعور عميق بالكآبة.. والمثل البلدى يقول "خبطتين فى الرأس توجع" وقد أتت الخبطتين بفارق زمنى بسيط.. وقبل الخبطتين تلقيت صدمة عاطفية وأحسست بمعنى كلمة "وحدانى" فأنا فعلاً وحدانى – عاطفياً واجتماعيا ولكن هل أحد منا يختار قدره ؟ هل

أحد منا يحدد الظروف المحيطة به ؟ ففكرت أن ابتعد قليلاً عن القاهرة علنى أفيق من تأثير الظروف القاسية.. ولكن بدأت القضايا تأتى لمكتبى.. والغباء أن أخسر زبائنى فبذلك أخسر مورد رزقى.. وقلت فى نفسى أن العمل والانغماس فى العمل هو خير علاج لحالتى النفسية المضطربة.. يجب أن أكون مشغولاً دائماً حتى لا أفكر فى الظروف القاسية التى أمر بها.. وبعد عمل الإعلام الشرعى اقترحت على سنية ووداد أن نُصَفى التركة أى أن نبيع البيت ونوزع النقود الموجودة بدفاتر البريد.. أن بيتنا القديم يذكرنا بأيام سيئة وكانت أسوأ هذه الأيام هى الفترة التى زادت فيها المشاكل مع السكان بسبب تخفيض الايجارات وكانوا يتعمدون ترك حنفيات الماء مفتوحة.. وفعلا عرضنا المنزل للبيع وانتهينا من تصفية التركة.. حتى الذهب الخاص بوالدتى فقد اعطيته للبنتين ليقسموه مناصفة بينهما. كما تركت الشقة التى كنت أنوى أن أتزوج فيها فشقة الأسرة أوسع وأعيش فيها بمفردى.

إن معظم زبائنى الآن أتوا لى نتيجة لكسبى عدة قضايا عمالية منها طرد صاحب العمل عبد الله ابن عبد السميع البواب وكان طرداً تعسفياً وعبد الله حاصل على دبلوم صنايع ويعمل فى مجال التكييف وكانت الشركة التى كان يعمل بها قد طلبت منه البقاء أكثر من ثلاث ساعات بعد ساعات العمل الرسمى.. وكان المهندس الذى يرأسه شابا مغروراً ويعتقد أن المؤهل الجامعى يعطيه الحق فى معاملة الناس كما لوكانوا عبيداً له، خصوصاً أن هذا المهندس ابن ناس ذوات وكانوا قد وضعت أموالهم تحت الحراسة.. وكان ناقماً على الثورة وكترجمة لهذه الكراهية كان يسئ معاملة العمال لأن الدولة جعلتهم "يدلدلون رجيلهم" كما كان يقول دائماً. وذات مرة كان هذا المهندس منفعلاً وخاطب عبد الله بألفاظ تهين كرامته إذ قال له "تعال يازفت أنت!!" فنظر له عبد الله بغيظ ولم يرد فأكمل المهندس كلامه بصورة أقسى "إيه؟ بتبحلق ليه ؟ هو أنت يعنى مش ابن عبد المسيع البواب؟ "ففقد عبد الله صوابه وأحس بأنه يهين كرامته ولا يحترم آدميته ولا يحترم قوانين العمل التى تحتم على الرئيس معاملة مرؤوسيه معاملة طيبة تنم عن الأحترام... لأن العلاقات بينهم لا تتعدى علاقة عمل.. وأنهم ليسوا فى حوارى السفلة.. فما كان من عبد الله إلا الامساك به وهزه بعنف.. وتوبيخه لما بدر عنه من إهانة.. وتصاعد الموقف وتماسكوا بالأيدى.. وناصر صاحب الشركة المهندس وطرد عبد الله طرداً تعسفياً دون اعطائه أى ش من مستحقاته.. فتوليت هذه القضية ورفضت بشدة أخذ

أى أتعاب من عبد الله وكانت هذه القضية فاتحة خير لى فأتت الىّ القضايا العمالية.. لأن عبد الله أخبر كل العاملين معه بأننى كسبت القضية لصالحه.

لقد أحسسنا جميعاً بالاعتزاز بعد حرب التحرير لأننا قد غسلنا العار والذل اللذين عانينا منهما بعد النكسة.. وأثناء مفاوضات فك الاشتباك الأول والثانى ومع زيارات كيسنجر المكوكية بين مصر وإسرائيل وبعد زيارة نيكسون لمصر سنة ١٩٧٤ ومع مهاجمة السادات للروس وأنهم لم يفوا بتعهداتهم بتقديم السلاح لنا وامتدح أمريكا وبأنها الدولة التى لديها ٩٩٪ من الأوراق فى يديها أعتقد البسطاء من الناس بأن امريكا ستفتح خزائنها وتعطى لمصر ما يعوضها عن سنين الحرمان.. وكانت الجرائد تردد أحياناً بعض أقوال السادات بأن مصر تحتاج إلى مساعدات أمريكية على غرار "مشروع مارشال" الذى ظهر بعد نهاية الحرب العالمية.. وبدأ تعبير جديد يجرى تداوله وهو "الانفتاح" وصدر قانون ٤٣ الخاص بجعل بورسعيد منطقة حرة وأن المشروعات الاقتصادية ستعطى إعفاء من الضرائب لمدة عشر سنوات وبمقتضى هذا القانون يحق لأى إنسان يملك عُملْة صعبة أن يقوم بالاستيراد فظهرت سوق ضخمة للأتجار بالنقد وتدهور سعر الجنيه المصرى وكان هناك ثلاث اسعار للدولار (٤٨ قرشاً كسعر رسمى، ٨٠ قرش كسعر تشجيعى، ١٢٠ كسعر فعلى يتم تداوله فى السوق السوداء) ووجدت السلع المستوردة إلى بورسعيد طريقها إلى السوق المحلى.. وجرت النقود فى أيدى التجار وأصحاب الحرّف ولا أنسى يوم أن تجرأت وقررت شراء كيلو ونصف تفاح أمريكانى مستورد وكان مكتوب أن ثمن الكيلو تسعة جنيهات وكنت افاصل التاجر لكى يبيع لى الكيلو بخمسة جنيهات والتاجر ينظر لى شذراً ويقول "ده تفاح أمريكانى مستورد.. هو أحنا كنا بنشوفه"؟ وأتى ميكانيكى بملابسه المليئة بالزيوت والشحوم وطلب من البائع كارتونة كاملة ودفع ثمنها.. وبالطبع أمر التاجر أحد صبيانه بتوصيل الكرتونة لسيارة البيه الميكانيكى!!

لقد كان الناس يحسدون الموظف أثناء فترة الكساد لأن مرتبه ثابتاً.. بل أن الحكومة اعطت للموظفين رواتبهم وزيادة.. وكانت الرواتب تكفى الموظف لسد احتياجاته الشخصية، أما الآن فهناك بوادر بتغير الأوضاع المالية بالبلاد.. أن الانفتاح يخبئ فى طياته تغيرات اجتماعية غير واضحة.. فمثلا وجود البضائع الأجنبية وقصور محدودى الدخل على اقتنائها تعنى الكثير.. وبدأ الناس يطلقون عليها "البضائع الاستفزازية" لأنها

تستفذهم بأسعارهم التى لا يقدرون عليها.. أين تقريب الفوارق بين الطبقات؟ أين تحسين أحوال الموظفين ورفع مستوى المعيشة؟ أين ثمرة النصر بعد معاناة طويلة وربط الأحزمة على البطون؟

لقد بدأ تدفق الأموال إلى الإسكان الفاخر وإلى أعمال المقاولات وإلى السياحة وإلى السلع الاستهلاكية الترفيهية. وزارنى عزت بك وسرحان بك سوياً فى الوقت الذى كنت على وشك اغلاق المكتب فيه وبادرنى عزت بك بالقول :

– إحنا اخترنا الميعاد ده عشان تكون زباينك مشيت وخلى الفراش كمان يروح.

– ازاى... لازم يعملنا قهوة أو شاى.

– ولا حاجة.. احنا عايزين نتكلم براحتنا ولوحدنا.. عندك ارتباط دلوقتى؟

– ابدا.. ابدا.. (وقلت للفراش) روّح أنت يا محمد.. وإقفل الباب وراك وأخذنا نستعرض سويا بعض الأحداث وبعض التغيرات التى تحدث فى المجتمع الآن وكان سؤال سرحان بك لنا هو :

– تفتكروا إيه معنى اصرار إسرائيل على تعمير مدن القناة.. يهمها إيه أننا نرجع الأهالى لبيوتها وألا لا؟ إيه رأيك يا سعيد؟

– زى مابيشاع.. هم عايزين مدن القناة تعمر عشان تبقى فى مرمى مدافعهم لو احنا قمنا بحرب تانى.

– إذن شكلها أن فيه معاهدة سلام بعدما تم فك الاشتباك بيننا.. مش كده برضه ياعزت؟

– الكل عايز سلام.. بس يا ترى إيه نوع السلام؟.. سلام قائم على العدل واللاسلام تفرضه القوة الحربية ؟

– أياً كان الوضع.. إحنا مانعرفش إيه اللى بيجرى ورا الكواليس.. إحنا لازم نجهز نفسنا بعمل مشاريع عشان نستفيد من سياسة الانفتاح دى.

واستمر نقاشنا ينتقل من موضوع إلى آخر واستقر راينا على عمل مشروعات للغد.. والمشروع المربح يكون قطعاً الاستيراد والتصدير لاشتياق الناس إلى اقتناء السلع الأجنبية التى أختفت من مصر أكثر من عشرين عاماً.. وكان هناك اقتراح بتصدير المنتجات الزراعية التى يتم تصنيعها مثل المربات والعسل النحل والعسل السود ومنتجات الالبان والخضروات المحفوظة.. والمشروع الأخير سيفيد البلاد فى الحصول على عملة

أجنبية وفتح فرص عمل للشباب الذين عاشوا فى الخنادق سبعة سنين.. وأعطينا أنفسنا فرصة شهر ندرس خلاله كيفية تنفيذ المشروع بعد دراسة الامكانيات المتاحة وقال عزت بك بأن العزبة كلها تحت أمر المشروع وأنا أخبرتهم بأننى سأزور اختى بأسيوط وادرس كيفية الاستفادة من الامكانيات هناك خصوصاً أن زوجها مهتم بتربية الأغنام والمواشى وإقامة مبانى لتربية الدواجن ومناحل عسل النحل.. وفعلا قمت بزيارة أسيوط فى عطلة نهاية الأسبوع ولما لم يكن هناك قضايا فى الثلاثة ايام التالية فبذلك أستطيع قضاء أربعة أيام مع أختى فتحس بأن أخوها الكبير يزورها وفى نفس الوقت أعرف منهم معلومات تفيد المشروع وقد يدخل زوج أختى شريك.

فَرِحْت وداد جداً بزيارتى لها وأخذت تحكى لى مشاكلها مع زوجها ومع حماتها.. ورغم أن وداد طيبة ومتدينة جداً ألا أنها لا تعرف متى تقول الكلمة المناسبة فى الوقت المناسب وحماتها من النوع المتسلط الحشرى وتضع أنفها فى كل شئ وتشير عليهم بما يعملون وباصرار وكأنهم أطفال أمامها وهى تقوم بتربيتهم فقلت لها :

– يا وداد.. ألست الذكية هى اللى تعرف تهدى سرها بدون امتهان كرامتها طبعاً.. وأنت تقدرى تاخدى حماتك على قد عقلها.. عشان ماتخليش جوزك فى صراع بين أنه يرضى مراته أو أمه.

– أنا حاولت أعاملها كأنها أمى.. لكن هى امرأة لا تحتمل.. هى بتتخيل أنها سمعتنا بنتكلم عنها.. وإذا ضحكنا تفتكر أننا بنستهزئ بيها.

– معلش يا وداد.. ماهى دى الضريبة اللى بيدفعها المتعلم فى مواجهته للجهالة.

– أنا عيبى أنى صريحة وأقول للأعور فى وشه إنه أعور.

– وهى دى اسمها صراحة.. دى اسمها عدم لباقة.. لازم تغيرى اسلوبك وده لمصلحتك ولمصلحة بيتك.. البيت اللى فيه نكد يبقى عذاب فى عذاب.

وحضر سامى من الخارج وفرح جداً بالزيارة وأشرت إليه بأننى افكر فى مشروع تصنيع منتجات القرية وتصديرها.. وأهتم جداً بالموضوع خصوصاً عندما اقترحت عليه بأن يكون شريكاً خصوصاً أنه سيفيد المشروع وهو فى مكان الانتاج الزراعى – وفى حالة التوسع يمكنه أن يستفيد من منتجات أرض صموئيل إبن عمه.. واقترحت عليه أن نزوره لنتناقش سوياً فى الصعوبات وفى الإمكانيات المتاحة.. وبعد تناول طعام الغذاء ذهبنا لفيلا صموئيل ابن عمه.. لقد كانت عندى رغبة فى هذه الزيارة لأتعرف على

الشخص الذى قَبلته وفـاء فـى حين أنهـا رفضتنـى أنـا.. ومـن مناقشـاته أحسسـت بعقليتـه التجارية وأنه حاضر البديهة ويجيب على الأسئلة بوضـوح.. وعرفت أنـه حـاصل علـى ماجستير إدارة أعمال ولأنه يمتلك تسعون فداناً فإنـه يضـع خبرتـه الخاصـة تحت أمرهـم وأنه مستعد أن يكون شريكا مع سامى زوج أختى ومع عزت بك وسرحان بك.. ثم اقترح علينا أن نعمل مشروعاً سياحياً فالسياحة هى الورقة الرابحة فى وقت السلام وأن مصـر لها رصيد هائل من الآثار وأن الأجـانب سيتدفقون لمصـر كلمـا احسوا بـأن هنـاك سـلام يسود المنطقة كلها.

ولأن وداد أختـى كـانت بصحبتنـا أنـا وزوجهـا فكـان مـن الاتيكيت أن تحضـر وفـاء وتتحادث معنا ومع أختى.. وعندما قدمهـا صموئيل لـى تظاهرنـا بأننـا نتقـابل لأول مـرة وقلت لها وأنا اسلم عليها :

– فرصة سعيدة يا مدام أنى أتعرف عليكى وعلى جوزك.. ده عقليته تجاريـة وإنسـان ذكى ومتفتح وطموح.. ربنا يهنيكم ببعض.

ولاحظت الارتباك عليها.. وهى أحست بارتباكى ولكن لـم يلاحـظ أحد أى شـئ غير عادى.. خصوصاً أن الحديث تركز بينى وبين سـامى وصموئيل واتفقنـا أن نتقـابل عـدة مـرات لنـدرس المشـروع دراسـة وافيـة مـن ناحيـة التمويل والأعـداد والمراسـلات مـع المستوردين فى الخارج ومن ناحيتى سأقوم بتجهيز كافة العقود اللازمة بعد ذهابى للقاهرة والتردد على كافة المكاتبات المختصة بالتجارة الخارجية وتحويل العملة وكافة الإجراءات القانونية والاقتصادية وكانت جلسة ممتعة واستكملنا الحديث فـى السـهرة بمـنزل أختـى.. وألمحت بأننى رأيت "وفـاء" فـى إحدى الرحـلات إلـى الأديـرة وكـانت معهـا أختهـا غير الشقيقة وكانت المفاجأة لى بأن أكمل سامى توضيح الصورة قائلاً :

– وفاء مالهاش إخوات أشـقاء لأن والدهـا طلـق والدتهـا وتـزوج بـأخرى وان والدتهـا استمرت حاضنة لها حتى سن الثالثـة عشـر.. ولمـا ابوهـا أخذهـا بحكـم قضـائى تزوجـت والدتها.

– عجيبة.. احنا ماعندناش طلاق إلا لعلة الزنا وعجز الزوج واسباب متشابهة.

– ابوها غير الملّة ورفع القضية وفى الحالـة دى يخضـع الطـلاق للشـريعة الإسـلامية طالما اختلفت الملة.

– وعرفت ازاى القصة دى؟

– فيه بيننا وبين والدتها صلة قرابة من بعيد.. ولكننا على صلة وثيقة ببعض.

– يعنى وفاء ضحية خلاف عائلى بين أبوها وأمها.

– هى فعلاً ضحية.. ولغاية النهاردة بتحصل لها حاجات غريبة.. كوابيس.. اضطربات نفسية.. تضك وهى غاية فى الانبساط.. وفجأة تبكى بكاء مر.

– طيب وجوزها ماعالجهاش ليه؟ أقصد ليه أهمل فى علاجها؟

– هى لازلت تحت العلاج.. وصموئيل بيعاملها معاملة طيبة.. لأنه كان موجود لما حصلت لها الصدمة العاطفية العنيفة.

– صدمة عاطفية؟ هى كانت بتحب؟

– لا.. لا.. الصدمة من أمها.. هى تعلقت بيها جداً.. وكانت تعتبر أم واب ليها.. وبعد لما والدها ضمها.. عاشت مع ابوها.. وامها اتجوزت من غير ماتعرف وفاء.. ومرة راحت تزور جدها وكانت امها وجوزها هناك.. وساعتها انتابتها موجة من الانفعالات الهيستيرية ةأخذت تخبط على صدر أمها.. وشعرها كان يسقط ونقلوها بمستشفى الأمراض العصبية والنفسية.

– ضرورى جوزها بيعطف عليها علشان هو اللى عارف قصتها.

– صموئيل ابن حلال فعلاً.. وكريم.. وجنتل.. وإبن ناس.. أنا مش بامدحه عشان هو ابن عمى.. هو إنسان كويس فعلاً.

وبعد انتهاء زيارتى لأختى عدت بالديزل ووجدت شريطاً للأحداث الماضية يمر أمام مخيلتى.. لقد ظهرت حلقة من الحلقات المفقودة التى كنت أتساءل عنها لكى أفسر تصرفات وفاء الغريبة.. وقفز أمام فكرى ما قاله عبد العزيز عمرو عنها من أن الفتاة مسكينة وهى فى صراع نفسى وأن علاقتها بى لم تسمح لها بعد أن تطلعنى على أسرارها الخاصة.. الإنسان فعلاً بئر عميق من اللاشور كما قال فرويد عن العقل الباطن الذى يختزن الخبرات القديمة... وأن البيوت حوائط تخفى ورائها الكثير من الأسرار مثلما كانت تقول والدتى "أهى حيطان مدارية الناس" وفعلاً تدارى عن الحقائق التى يعيش فيها الناس.. أن عقدتى كفقير هى التى كان لها التأثير الأكبر عندما تعاملت مع موضوع وفاء.. فقد كان هذا يشكل بالنسبة لى حساسية زائدة .. وأول تفسير لرفضها لى – من وجة نظرى طبعاً – هو أننى فقير وهى غنية من ناحية أبيها ومن ناحية جدها والد أمها.. كان الأستاذ عبد الله يريد لبنته أن تختار لنفسها من تميل إليه وهو نفسه قد أحس بميلها

لى ولم يكن يريد أن يصدم ابنته مرتين.. مرة عندما انهارت عصبياً عندما رأت زوج أمها.. والمرة الثانية لو كان هو الذى وقف حائلاً دون تحقيق رغبتها.. أقصد لو كان هو الذى رفضنى فى حين أنها تميل إلى .. ولكن هناك حلقة مفقودة بالنسبة لى:

ما الذى غير مشاعرها نحوى؟ ما الذى جعلها تردد معنى الأمان؟

إن الأمان بالنسبة لها قطعا أمانا نفسيا رغم إدعائها بأنه أمان مادى لقد اهتزت ثقتها بأبيها لأنه ترك امها وهى لا تعرف لماذا؟ واهتزت ثقتها بامها عندما قبلت الزواج.. فهى الصدر الحنون لها ولا تتخيل امها فى منزل شخص غريب عنها .. أن هذه الخواطر مجرد محاولات لفهم القصة التى عشت فيها مع وفاء ولم تتحقق لها النهاية السعيدة كما كنت أتمنى.. كنت أعرف أن هناك أسرار ما لا أعرفها ولازالت هناك حلقة مفقودة فى قصة طلاق أبيها وأمها .. ما السبب؟ طبعا لم أستطع أن اسأل سامى هذا السوءال حتى لا أظهر أننى مهتم بها بدرجة كبيرة.. المفروض أننى أسمع القصة كشئ عابر.. مع أننى بكل وجدانى عشت فيها مرة أخرى عندما حكاها سامى لى بمنزله... المفروض أن القصة إنتهت بالنسبة لى بزواجها من صموئيل ولكن هناك شئ غامض داخل الإنسان لا يفهمه وهو ما نسميه المشاعر الكامنة المخزونة وهذه تجعل حب استطلاعنا زاد فى المسألة الخاصة بموضوع مثل موضوع الحب هذا .. هل أنا لازلت احبها؟ اعتقد نعم لأنه ما معنى اهتمامى بها؟ ربما يصعب على الإنسان ان يعترف بأنه مرفوض ويحاول ان يثبت لنفسه انه ليس هو شخصيا المرفوض لكن هناك أسباب أخرى يجهلها.

لماذا يحب الإنسان ان يغالط نفسه ولماذا يهرب من مواجهة الواقع بتخيل أشياء تشبع غروره وترضى نرجسيته؟ لماذا أتخيل أن وفاء كانت تحبنى فعلا؟ أنا أحببتها بل واندفعت فى حبى لدرجة أننى لا أتصور أن تكون نهايته بهذا السرعة.. هل صوب كوبيد حقا سهامه نحوى ونحوها؟ نحوى أنا أحس بذلك.. ولكن نحوها.. لا أستطيع أن أجزم.. قد تكون قد أحسست بارتياح وقتى أو إنجذاب عابر وإنتهى هذا الاهتمام والارتياح والانجذاب.. من يدرى؟ لماذا أُضخم الموضوع وكأنى واثق من حبها مع أنه لا توجد أى براهين؟ لم يكن الهدف الحقيقى وراء سفرى إلى اسيوط هو دراسة الموضوعات الخاصة بالاستيراد والتصدير فقد كان يمكننى ان انتظر حضور أختى وزوجها للقاهرة وأستفسر منهما.. ومن ناحية القيام بواجب الزيارة لاختى بوصفى الأخ الأكبر فكان ممكن ان يتم ذلك أيضاً بالقاهرة.. لقد كان هناك "غرض فى نفس يعقوب" كما يقول المثل فقد كنت

أهدف إلى مقابلة وفاء.. وكان خيالى مريض لدرجة أننى ظننت بأنها ستعترف لى بأنها خسرت حبى وأنها نادمة لأنها الآن تعانى من سوء معاملة زوجها ومن بروده العاطفى فى حين أن العاطفة المتأججة كانت موجودة بيننا.

وانتقل تفكيرى إلى مشروع عزت بك وسرحان بك.. وكانوا يعتقدون بان "تحت القبة شيخ" واننى سأشاركهم على أقل تقدير بمقدار العشر حتى يكون لدى حافز للاهتمام بالمشروع.. وقطعا دخلى كشريك سيكون اكثر بكثير من الاتعاب والعمولة اللاتى سأخذها بعد نجاح العمليات التجارية.. ولكن ليس أمامى سوى الاتعاب والعمولة.. وخطر ببالى خاطر آخر وهو أن أتوسع فى تعاملاتى.. وأسعى إلى القضايا التجارية لان نسبة العمولة فيها ترتفع مع زيادة القيمة المادية للقضية. فمثلا هناك عقود شركات كبيرة وتوكيلات عالمية والدخول فى المناقصات وكسب القضايا الهامة التى تقترب فيها المبالغ إلى المليون بنسبة الـ ٢,٥٪ عمولة ستصل إلى خمسة وعشرون الف جنيه.. وهذه هى الارقام التى تتشكل منها ثروة فى حالة تكرر قضايا من نفس النوع.. أننى أسمع الناس يقولون "عايزين نقب لوش الدنيا" وتساورنى نفس الرغبة ولكنى اتساءل كيف؟ يمكننى ان أحقق ذلك لو تعاملت مع الاثرياء كشريك وليس كوسيط فقط.. إن هذا الخاطر هو الذى يراودنى الآن اكثر من أى وقت مضى: أريد أن أُكَوّن ثروة أفتخر بها.

لماذا لا أسكن فى فيلا؟ لماذا لا اشترى سيارة فاخرة جديدة؟ لماذا لا أستمتع بالحياة مثل الاخرين؟ لماذا لا أستفيد من معلوماتى ومن مهارتى وذكائى أليس من حقى أن أطفو إلى السطح هل كتب على أن أكون من المطحونين؟ أصبحت كلمات الموظفون والعاملون والمكافحون مرادفة لكلمة "المعذبون على الارض" وأنا أصبحت الآن فى مستوى لا يزيد كثيرا عن الموظفين والعاملين المكافحين إذا أردت أن أستمتع بالحياة فلابد أن أُغير من نظرتى للحياة نسمع الآن عن القطط السمان وانا لازلت أسير على رجيم قاس جدا بالمقارنة بهؤلاء القطط السمان الذين ملاؤوا أنحاء البلاد.. يجب أن أتعلم كيف اصبح فأرا سمينا بدلا من أن أستمر من فئران المركب الذين يعيشون على ظهرها سواء طفت أو غرقت.. ألم يقل لى الاستاذ عبد الله الحقيقة وأنا ذاتى لا أريد أن أعترف بها؟ كنت أعتقد باننى حققت كثيرا بتأجير شقتين صغيرتين وبشراء سيارة قديمة عمرها الافتراضى إنتهى.. لقد اشتريت هذه السيارة اللعينة التى اجبرتنى على التردد على الميكانيكى والكهربائى وعمال السمكرة والدوكو وذلك لكى يعرف زبائنى أننى أمتلك

سيارة!! وكنت حريص خصوصا فى الفترة التالية لشرائها أن يعرف زبائنى أننى أملك سيارة فكنت أشكو لهم بأن الشوارع مزدحمة وكان أهون على أن أركن "سيارتى" على جانب الطريق واحضر على قدمى .. والمقصود بالشكوى هو أن يستنتج المستمعون بأننى أصبحت صاحب سيارة.. وكما كنا نقوم بترقيع البنطلون والحذاء وكذلك كان يقوم الميكانيكى بترقيع قطع غيار قديمة للسيارة ليوفر على المصاريف.. إننا الدولة الوحيدة التى يعمل فيها الناس من الفسيخ شربات والتى يغزل فيها الناس برجل حمار.

هل تحسنت أحوال الناس الآن بعد الانفتاح؟ لا أعتقد.. وكما قال "سرحان بك" ان الانفتاح تم تفصيله للصوص. فيستطيع كل واحد منهم أن "يهبش له هبشة" ويبلعها فى كرشه "وأنا لست من أنصار هؤلاء الذين يلقون اللوم على عصر بعينه ولا على رئيس دولة بعينه – لأن جوهر الموضوع هو الناس.. أننى لا أُلقى اللوم على "الانفتاح" فى حد ذاته بل ألقى اللوم على الناس.. فالناس هى هى منذ أيام قايين وهابيل .. فيهم الطيب وفيهم المجرم.. المواقف فقط هى التى تكشف عن معدن الإنسان .. وفى كل زمان ومكان سنجد المحب والعدو.. سنجد المخلص والغدار.. سنجد المضحى والأنانى.. هناك من يساعد .. وهناك من يضر.. هذه هى الطبيعة البشرية.. قد تتأثر الناس بدرجة ما بالظروف المحيطة .. ولكن المهمة الرئيسية للناس هى المحافظة على الأخلاق والتربية والعادات والتقاليد المبنية على القيم الدينية والاجتماعية.. فهذا هو أهم معبد فى المجتمع ويجب أن يحتمى فيه الناس ويحافظوا عليه حتى لا ينهار.. ودائما أردد هذا السطر الخالد:

إنما الأمم الاخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

لا يوجد إنسان كله خير ولا يوجد إنسان كله شر .. وكل شئ نسبى ... والشئ الثابت والدائم هو وجود اختلافات بين الناس .. هذه هى طبيعة الحياة وهذه هى طبيعة البشر.. ولابد من وجود غنى ولابد من وجود فقير.. وهذه مسألة نسبية أيضاً فهناك درجات مختلفة من الغنى وهناك درجات من الفقر.. هناك اغنياء بنقودهم وهناك اغنياء النفس وهؤلاء أغنى من كل الاثرياء .. فى أوربا الفقير لديه رعاية صحية مجانية وإعانة اجتماعية ضد البطالة أى أنه يضمن لقمة عيشه وعلاجه أما الفقير فى بلاد العالم الثالث فمعظمهم دون خط الجوع.. ونسمع عن الكثرين الذين يموتون جوعا فى بلد مثل الهند.

هناك أيضاً عجلة الحظ التى تلف فترفع أناس إلى فوق وتنزل اناس إلى تحت.. وهناك كفاح من أجل الحياة وهناك كفاح من أجل تحقيق نوع ما من الطموح.. ينطبق هذا القانون على الافراد وعلى الدولة.. هناك أناس يبيعون أجسادهم مثل العاهرات وهناك أناس يبيعون انفسهم مثل المتملقين وشهود الزور والمختلسين والمزورين.. وهناك أناس يبيعون أرواحهم للشيطان بالسقوط فى الخطيئة سعيا وراء لذة محرمة.. وعندما أفكر "أين أنا" من هذه النوعيات المختلفة من الناس فاننى أجد نفسى ضمن المكافحين من أجل البقاء ولم يزد طموحى عن ذلك حتى الآن. ولكن عندما أفكر فى عجلة الحظ فأننى أتعجل العجلة لكى تحملنى إلى فوق.. ولماذا انتظر العجلة لكى تقوم بهذه المهمة واكون أنا سلبيا؟ لماذا لا استخدم خططى وفكرى وأقفز إلى السطح بسرعة وأصعد إلى فوق بصاروخ؟

والسؤال المصاحب لهذا السؤال هو كيف؟؟

ومع زيادة التعاملات التجارية زادت المشاكل بين الناس وظهرت كميات هائلة من النقود فى صورة بضائع وحركة بضائع.. ولأن النقود تجذب كل الطامعين فى الثروات وكل النصابين والمخادعين والمختلسون "السلكاوية" والطفيليون والقائمون بالتسهيلات المشبوهة فقد امتلأت المحاكم بالعديد من القضايا.. وكما يقول المثال "مصائب قوم عند قوم فوائد" فان مصائب الناس الذين خُدعوا والذين سرقت اموالهم تعود بالنفع على المحامين بالذات وزاد دخلى بطريقة مضطردة.. ووجدت نفسى وسط هذه التجارة الجديدة الممنوعة قانونا ولكنها منتشرة فى كل مكان وهى "تجارة العملة" ولم تكلفنى اكثر من شراء عملات اجنبية من بعض الزبائن القادمين من بلاد النفط وبيعها للتجار الذين يريدون أن يستوردوا بضائع من الخارج وكان تسلم وتسليم النقود يتم بعيدا عن منزلى وعن مكتبى حتى لا أوضع موضع مساءلة فعندما يطلب منى أحد التجار عملة اجنبية أرسل الفراش لأحد الزبائن الذين يجمعون هم أيضاً من العاملين بالدولة العربية وكان الفراش قد تدرب على الحذر وكنت أعطيه مكافأة من كل عملية ثم عرض على احد المعارف أن يفتح لى حسابا بالعملة الصعبة عن طريق ارسال شيكا من الخارج ويأخذ والده قيمة الشيك المحمول وكان هو يقوم بجمع النقود من زملائه العاملين بالخارج.. لقد أحسست الآن بأن العمل الحر هو الوسيلة لزيادة الدخل باضطراد فى حين أن زملائى

الذين لا يزالوا يعملون بالوظائف الحكومية أو القطاع العام يعانون من قلة الدخل خصوصا وان التضخم زاد جدا مع وجود سياسة الإنفتاح.

وذات مساء زارنى فى منزلى زميل الدراسة رفعت السمنودى كنا نجلس على نفس الدكة اثناء المرحلة الثانوية وإلتحق هو بكلية التجارة ويعمل الآن مأمورا للضرائب فى منطقتنا.. وبعد مقدمات طويلة عن التغيرات الاجتماعية التى حدثت بعد انتصار اكتوبر فاتحنى فى موضوع غريب.. ويتلخص هذا الموضوع فى أننى أعطيه اسماء الممولين الذين وكلونى فى كل قضاياهم الخاصة بخصوص مصانعهم أو مكاتبهم التجارية أو المحلات الكبيرة ونظرت له بدهشة وسألته:

– حايقيدك بايه يا رفعت انك تاخذ أسماء الممولين؟

– اصبر ياسعيد.. ما هو ده الشغل اللى حانعمله سوا..

– أنا باحضر فى القضايا وبأترافع وبأخذ اتعابى.. يعنى علاقتى بالمحاكم وكل اللى له صله بالمنازعات القانونية.. فأنت ايه علاقتك بده كله؟

– حافهمك .. أنا عندى ملفات للممولين دول فأنا حابعتلهم نموذج "١٨ ض" فلما يجيله تقدير الضرائب الجزافى حايلجأ لمين؟

– حايلجأ لى .. عشان أقدم له طعن فى التقدير.

– عليك نور.. طبعا أنا حأزودها قوى فحايجيلك جرى ويقوللك "إلحقنى" فأنت تترسم عليه .. وتقوله.. ربنا يسهل وأقدر أنزلك المبلغ.

- طب إنت حاتستفيد ايه من ده؟ أنت جاى تخدمنى .. وألا ..

– هى .. "وألا" .. إنت تتفق على اتعاب كبيرة .. وهو حايوافق طبعا..

ولما تحصل المصالحة بعد التخفيض الكبير .. حايدفعلك .. ونقسم الربح.

ترددت كثيرا فى هذا الموضوع.. وأول شئ خطر على بالى هو خوفى من الوقوع فى المحظور.. وفى لحظات كنت أردد "مش ده يبقى حرام؟" هى دى مش عملية نصب؟ يعنى احنا حانبقى نصابين.. لا بسين هدوم فاخرة والناس بتجرى ورانا.. ويتوسلوا لينا اننا نخدمهم".. وقد لاحظ رفعت هذا التردد ولكنه بحاسته التى تعلمها من تعامله مع التجار والممولين الاثرياء فإن صوت المال يعلو على اى صوت آخر فابتسم وقال لى:

– ماترددش دلوقتى يا سعيد.. خذ وقتك فى التفكير والمناقشة .. وحأجيلك مرة واثنين عشان تقتنع وتبعد عنك الخوف نهائيا.

– أنا عارف أن منظرنا إحنا والاتنين كويس على أساس اننا بنؤدى خدمة للمتعاملين.. بس التقدير الجزافى حايضر بعض الممولين.

– ما هو لازم نخوفهم عشان يجولك جرى.. وبعدين ما هم جالهم فلوس من الهوا..

قبل الانفتاح كانت الارباح محدودة.. لكن دلوقتى فيه نهر من الفلوس بيصب فى جيوبهم.. شفت بقى النصر أفادنا ازاى.

وفجأة تذكرت يوم ابلاغنا باستشهاد فادى.. وكيف أن الخبر نزل على كالصاعقة.. وكيف اعترانى الحزن والضيق.. فهو صورة للشباب الذين تعبوا فى المذاكرة وحاربوا من أجل بلادهم وانتقلوا إلى رحمة الله.. ولم يجنوا اى شئ لهم.. ولكن هؤلاء التجار الجشعين يجنون ثمار لم يتعبوا هم فى زرعها.. فالشباب دفعوا دمائهم الغالية ثمنا لمحو عار الهزيمة ولم تكتب لهم الا الشهادة فى سبيل الوطن.. اما باشوات الانفتاح فمعظمهم أفاقين انتهازيين لصوص على مستوى عالى أو كما يطلق عليهم أحد الكتاب الساخرين "لصوص خمس نجوم".. كنا نسمع فى بداية الثورة عن "حرامى الفراخ" "وحرامى الغسيل" أى اللصوص من المحرومين الذين يريدون أن يسدوا رمقهم والآن لصوص الانفتاح يطلقون عليهم صفات لا تمت لهم بصلة فكلهم اصبحوا يخاطبون بفلان بيه وفلان باشا وبرنس ولورد والجرائد تطلق عليهم "القطط السمان" وهم قطط متوحشة حقا ينهشوا اللى هم عايزين.. وقانون "شيلنى واشيلك" قانون أبدى ينفذه أصحاب المصالح المشتركة وبالذات فى طريق الشر .. وهذا القانون يختلف باختلاف الزمن وباختلاف قيمة المسروقات.. فاثناء القطاع العام كان بعض المديرون وبعض المسئولون عن المشتروات يتفاهمون مع الموردين تحت احكام نفس القانون وتصلهم النقود "من تحت الترابيزة" وترتفع قيمة الرشاوى حسب كمية البضاعة التى يتعاملون فيها – وكان يسكن امامى فى منزلى القديم الاستاذ منتصر الذى يعمل باحدى محلات القطاع العام وزوجته كاميليا التى كانت تقف على "الكونتر" كبائعة فى نفس المحل وقد تعارفا على بعضهما وتحابا وتزوجا وهم موظفون محدودى الدخل لذلك سكنوا فى الحى الشعبى القديم الذى ولدت فيه وكان يملك أبى فيه منزلنا البسيط.. وبدأ الخير يظهر عليهما وكانت كاميليا تزور الجيران وتحكى قصة ورثتها لمنزل من والدتها فى المنصورة ويدر عليها دخل مقدارة ثلاثون جنيها وان والدها حتى الآن يأتى لها أول كل شهر ويعطيها الإيجار.. ثم بدأت الثلاجات الفاخرة والمكانس الكهربائية والغسالات "الفول أوتوماتيك" والتليفزيونات الملونة والمراوح

ثم اشتروا شقة جميلة وتركوا شقتهم القديمة وأتى بسيارة يستخدمها فى تنقلاته.. وقابلته ذات مرة وقلت مداعبا:

– سلامات يا أستاذ منتصر.. يعطى من يشاء من غير حساب.

– أنت حاتحسدنى والا ايه؟ خمسة وخميسة فى وش العدو (وابتسمنا ثم أكمل حديثه) أنا شريك فى مصنع ملابس.. والمصنع ده هو اللى جابلى الخير والحمد لله.. وعرفت بأن أصحاب المصنع أعطوه نصيبا بإسم إبنه وكان يوافق على العينات التى يقدمونها لقسم المشتروات فقد عرف كيف يتفاهم مع الرؤساء.

أما الآن فيدخل فى قانون "شيلنى وأشيلك" أناس عديدين.. وفى كل مكان هناك بعض الناس الذين يعرضون ضمائرهم للبيع لمن يدفع أكثر.. والاتفاق مع القطط السمان يأتى بأرباح أكثر .. وظهرت "جماعة السطو والنهب" على أراض الدولة التى يجهل الكثيرون بوجود مستندات لها أو قد تختفى هذه المستندات .. وهناك الذين أخذوا مساحات شاسعة من الاراضى تحت مسمى "الامن الغذائى" وقاموا باستخدام جزء من هذه الابعاديات للهدف الذى بسببه أخذوا هذه الاراضى.. وتركوا الباقى لتقسيمه إلى أراض للبناء عندما ترتفع قيمة الارض هذا بخلاف جالبى السموم من الخارج وزادت وتغيرت أشكال هذه السموم ولم يعد "الحشيش" فقط هو الذى يجلب من الخارج بل اشتملت القائمة على البانجو وحبوب الهلوسة وحبوب السعادة وغيرها مما يدمر طاقة الشباب.. الشباب المسكين الذى خرج معظمهم من خنادق ميدان القتال ودخل "خنادق الفقر"

هناك الكثيرين الشرفاء التى زادت رؤوس اموالهم بطرق شريفة.. ويعتبر كل من كان يحتفظ بأرض مبانى فى فترة الكساد من المحظوظين وذلك لارتفاع أثمان الارض فجأة إلى أكثر من ثلاثون ضعفا.. واذكر قصة قريبى كمثال مما يحدث فى مجال الاراضى والبناء، فقد اشترى قطعة أرض مساحتها خمسمائة متر له ومثلها لزوجته من شركة المعادى –وهى قطاع عام – بسعر المتر اربعة جنيهات وبالتقسيط أى أن الاثنان دفعا مبلغ أربعة الاف جنيه ولأنهما لا يملكان تكاليف المبانى فعرضوا الارض للبيع وقبضوا مائة وعشرون الف جنيه واشتروا بهذه القيمة شهادات استثمار "أ" أى أنهم سيقبضون بعد عشرة أعوام ما قيمته أكثر من نصف مليون جنيه.. هذا مثال لاثنين موظفين إدخرا جزء من دخلهم لكى ينفعهم فى تجهيز أولادهم عندما يصلون إلى سن الزواج.. ولا غبار على هذا المكسب الشريف.. إن زيادة ثمن الارض بهذه الصورة الخرافية اصبحت عقبة أمام

الراغبين فى الزواج لان أسعار المبانى أيضاً ارتفعت.. وقطعا ستعقد مشكلة الاسكان وتجعلها مشكلة مزمنة مثلما يطلق الاطباء على الامراض بانها أمراض مزمنة.. وخطر ببالى أن أتخذ الخطوات المناسبة لكى أعيش فى هذا الجو الذى ارتفع فيه صوت الدولار بالذات.

وذهبت لرفعت السمنودى فى منزله واعطيته قائمة بالممولين الذين يتعاملون معى .. وهناك بالطبع ملفات لهم فى مامورية الضرائب وبدات الخطابات تنهال عليهم.. وينتابهم الفزع ويحضرون إلى مكتبى .. وكنت أتقن التمثيلية واتظاهر بصعوبة الموقف وأننى سأبذل أقصى جهدى وأحاول أن أتفاهم مع مصلحة الضرائب لتخفيض هذه الضرائب العالية.. وبعد أخذ الأتعاب وتقاسمها مع رفعت نحتفل سويا بعمل حفل صغير يضم بعض الاصدقاء النشيطين فى مجالات الاستثمار والاستيراد والتصدير والمقاولات.. وانتشرت بين الممولين الشائعة التى اريدها أن تنتشر وهى أنى أستطيع إقناعهم بتخفيض التقدير لما امتاز به من بلاغة وقدرة على الإقناع.. وأننى أعرف الثغرات القانونية التى تساعدنى لأن أحصل لزبائنى على أقصى التخفيضات.

هناك مثال نردده كثيرا وهو أن "الماء المالح لا يروى" ولم أتعمق فى معنى هذا المثال إلا عندما زاد دخلى كثيرا بدون بذل مجهود كبير ولكننى أحس بأننى متعطش إلى زيادة الثروة لكى أروى ظمأى من هذه الرغبة العارمة الكامنة أريد أن يقفز رصيدى فى البنك لا أن يزيد فقط.. أريد أن اصبح أحد رجال الاعمال بل أريد أن اكون من كبار رجال الاعمال.. ولما لا؟ .. هناك فوضى اقتصادية الآن ولماذا لا أستفيد من هذه الفوضى.. ولا يحتاج هذا الا إلى الفهلوة والمخادعة والتهليب ومتابعة القوانين الاقتصادية التى تتغير تقريبا كل يوم وبالنسبة لى أفضل مجالين بالذات: التشييد والبناء لان أزمة المساكن يحسها الجميع.. وظهرت طبقة فى السوق لديهم الاموال العديدة منهم العاملين فى الدول العربية ومنهم التجار والمستوردين والمصدرين وجماعات التسهيلات وينضم اليهم كل الانواع المختلفة من المنحرفين.. والمجال الثانى هو السياحة فالسلام سيجذب الناس إلى المنطقة لأن السائحون يريدون الأمن والأمان وهناك كثير من الناس يحبون أن يأتوا إلى المناطق الأثرية ولدينا العديد منها من الاسكندرية شمالا إلى اسوان جنوبا بل إلى معابد ابى سمبل ومن الواحات غربا إلى سيناء والبحر الاحمر شرقا، بالاضافة إلى عمولاتى من شركة الاستيراد والتصدير التى يمتلكها عزت بك وسرحان بك.

وقمت بزيارة صديقى سيد حسانين فى مكتبه فى الشركة التى يعمل بها وفاتحته برغبتى فى البدء فى مشروعات التشييد فابتسم سيد وقال:

– حتى أنت يا سعيد.. بتفكر فى مكاسب المبانى

– الظروف والاحوال بتتغير .. ومادام حاجة بتكسب نمشى فيها.

– أنا فعلا عرضت على جماعة معرفة إنى أخذ اجازة بدون مرتب ونعمل مشروعات سوا

– اعتبرنى أنا كمان شريك معاكم.. وإدينى فكرة عن المكاسب والتكاليف فأخذنى إلى الشباك وأشار على عمارة تحت الشييد وقال:

– تعرف العمارة دى يا سعيد كسبت كام؟

– ٣٠ أو ٤٠ فى الماية؟

– مية وأربعين فى الميه.. ورأس المال اللى بدأ بيه كان الأرض فلوس الاساسات بس

– وباقى التكاليف؟

– لمها كلها من الملاك.. وطبعا عملها بالتقسيط على سنتين ونص.. يعنى على بال ما خلصت العمارة كان معاه فلوسه ومكسبه.

– للدرجة دى المكاسب؟

– طبعا.. وهو دلوقتى حايبتدى فى واحدة جديدة كان اشترى أرضها بالتقسيط.. وكان يدفع الفلوس من الاقساط اللى بياخدها.

– يعنى دورة رأس المال مستمرة.. ماتيالله بينا يا سيد.

– معاك فلوس تغطى ثمن الارض والاساسات؟

– معاى جزء كبير واقدر آخذ من الممولين اصحابى الباقى بشيكات

وقدمنى سيد لعدد من المقاولين الذين يتعامل معهم فى الشركة وأبدوا استعدادهم للتعاون معنا.. وطلب المعلم بشرى مقاول كبير أن اكتب عقود التمليك لساكنى العمارة عندما يبدأ ببناء الدور الأول لكى يضمن هو حقه ويضمن الملاك حقهم بدون منازعات وقمت بتحرير العقود ثلاثة فى اربعة فى سبعة حسب عدد المشترين وكنت آخذ خمسمائة جنيه مقابل تحرير العقد أى أن متوسط العمارة كان عشرة ألاف جنيه وأعجبت الفكرة المقاولون الآخرون ولما زاد الطلب فى هذه اللعبة البسيطة طبعت عدة عقود متشابهة وتركت فيها فراغات بسيطة لإسم المالك الأصلى للعقار والمالك الجديد للشقة وأصبحت

جلسة واحدة أكتب فيها الإسمين وأختم العقد بخاتم المكتب آخذ فيها خمسمائة جينه.. إن التعبير الذى استعمله رفعت بأن نهرا من النقود يدخل جيوب التجار أصبح ينطبق على.. بدأت تنتابنى عادة غريبة.. وهى مراجعة النقود التى معى والنقود المطلوبة منى فى فترة معينة.. وأصبحت الآن مشغول جدا ولا يدور فى ذهنى إلا الأرقام.. وقد ينظر لها البعض على أنها متعة ولكنى بدأت اضيق بها ولكنى لا أستطيع الاستغناء عنها – حتى اثناء تناول كوب الشاى أو فنجان القهوة أخرج ورقة من جيبى وأكتب ارقاما سواء أضيفت إلى رصيدى أو مطلوب دفعها.. هذه هى الضريبة التى يدفعها رجال الاعمال: يمتلئ وقتهم وخيالهم وصدقاتهم ومعارفهم بالمسائل المالية.

حتى أثناء تناول غذائى بمنزلى تلقيت مكالمة تليفونية بالترنك وكان المتحدث سرحان بك فهو يريد تحديد ميعاد بينى بين شخص مهم يعرف كل شئ عن التخليصات الجمركية فى الميناء.. وإسم هذا الشخص "حازم باشا" كما يلقبه ويسألنى إذا كان من الممكن السفر للاسكندرية فورا وأنه سيحجز لى فى فندق سيسل لقربة من منتصف المدينة.. ولما وجدتت إلحاحه حددت له اليوم التالى لأكون قد وزعت القضايا فى الثلاث أيام التالية على المحامين الذين يعملون عندى فى مكتبى.. وبالفعل سافرت واتجهت إلى الفندق ووجدت الحجرة المحجوزة باسمى مع رسالة فى الاستعلامات بأن الموعد بالفندق الساعة الخامسة بعد الظهر.. وقبل حضور "حازم" تحدثت وعزت بك وسرحان بك عن زيادة نشاط التصدير والاستيراد سيتم هذا التطوير بدخول "حازم" باشا شريكا لهم وأستمر أنا المستشار القانونى للشركة الجديدة.. وقد عرفت أن لديه مساعدين فى ميناء الاسكندرية (فى الجمرك على الأخص) ومعظمهم من المستخلصين ومن الشيالين وقال عزت بك:

– ما تستهونش بالمستخلص والشيالين يا سعيد.

– أنا لا أستهين بهم بل أنا مندهش أن شوية النكرات دول اصبحوا مليونيرات بسرعة .. وأنا عارف بصلتهم بالمافيا السرية.

– الله ينور عليك.. فى إدين شوية التافهين دول المفاتيح اللى حاتساعدنا فى عملنا.. الباشوات اللى مشغلينهم مستخبين ورا البارفان ودول اللى فى الوش.

واثناء مقابلة "حازم" هذا كان ذهنى يأخذنى بعيدا عن الاجتماع فحازم باشا هذا طلب منا الا نسأله عن مساعديه لأن هذه الأعمال لابد أن تبقى فى مجال السرية والمهم ان دوره اساسا ينصب على تقديم التسهيلات وإبعاد جماعة المعوقين لأى مشروع عندما

تأتيهم التعليمات بإعاقته.. وتنهدت تعبيرا عما يدور داخلى من ضيق وغليان.. وبعد المقابلة أخذت حنطورا لكى يسير بى الهوينا اثناء تأملى لمياه البحر الزرقاء والتى تخفى تحتها اسرارا لا نراها لاننا نرى السطح فقط وأخذنى فكرى إلى الماضى.. كان فيه قصص كفاح وقصص بطولة ستفتخر بها بلادنا على مر العصور..حمل أولادنا أعلام الحرية إلى بلاد كثيرة وحاربوا الاستعمار معهم وحصلت كثير من الدول الافريقية والعربية على استقلالها.. قصص أبنائنا الذين أقلقوا مضاجع الانجليز فى القناة عام ١٩٥١.. وأخذنى فكرى بعيدا إلى القرن الماضى وأتذكر منه صفحات مشرقة لجماعات التقدم والعلوم وجماعات التنوير وكامثلة خالدة منهم لدينا رفاعه رافع الطهطاوى والإمام محمد عبده وعلى مبارك وهؤلاء أمثلة فقط فالصفحة طويلة بأمثال هؤلاء الأبطال وهناك المطالبون بحقوق الشعب ويوم ٩ سبتمبر من كل عام والذى يسمونه عيد الفلاح وهو اليوم القومى لمحافظة الشرقية يعتبر عيدا لصوت الحق الجرئ فعرابى كان ممثلا للشعب المحكوم فى مواجعة الخديوى الحاكم وانتصر هذا الصوت ورغم تعرض البلاد للإحتلال إلا أن أصوات الحق لم تخمد ابدا.. وكأمثلة بسيطة من الامثلة الكثيرة هناك صوت الادب وصوت الفن.. هل ننسى صوت سيد درويش وهو يصيح من أعماقة "بلادى بلادى بلادى لكى حبى وفؤادى" هل ننسى سعد زغلول وهو يقود الامة ضد الظلم وضد الاحتلال؟

هل ننسى مصطفى كامل ومحمد فريد فى مقاومة الاحتلال..؟ هل ننسى طلعت حرب محرر الاقتصاد المصرى لكى يثبت فى مواجهة القوى الاجنبية وانشأ بنك مصر وكل الشركات التابعة له؟ فاسم مصر مطبوع داخلنا جميعا وستجد فى مصر دائما من يصلحون ما اتلفه الدهر وما أفسده المنحرفون والأفاقون واللصوص وقوى الشر.

هل نعتبر "حازم باشا" الذى يتملقه رجال منتجون مثل عزت بك وسرحان بك لكى يساعدهم فى مشروعهم الذى يفيد بلادهم وأولاد بلادهم.. مثالا للرجل الوطنى؟ .. هل يمكن أن نقارن أمثال "حازم" والذين يرتدون قناع اصحاب السلطة بالعمالقة امثال رائد الاقتصاد القومى طلعت حرب باشا والذى يستحق ان نقول عنه "باشا" .. طلعت حرب باشا بنى اقتصاد البلد وفتح فرص العمل لابناء مصر ولا زالت مدينة المحلة الكبرى شامخة كالهرم لأنها تمثل قلعة صناعة المنسوجات المصرية.. أما "حازم" هذا فماذا سيترك من بعده؟ سيترك سجلا طويلا من أعمال اللصوصية والانحراف وعندما يأتى

شخص آخر مكانه سيكشف للعالم كله السلبيات والمهازل.. فنحن فى مصر نعرف المهازل السابقة والانحرافات عندما يأتى مدير جديد.. ويظهر المدير الجديد بأن يده نقية ويكشف كل الأسرار المخزية للمدير السابق.. وياليتنا نتخلص من هذا العيب.. ويمكن أن نتخلص من هذا العيب إذا منحنا مزيد من الحريات التى تسلط الاضواء على كل شئ فينكشف كل شئ والخفافيش لا تستطيع ان تعيش فى النور.

وفى صباح ١٧ يناير ١٩٧٧ صدرت الصحف الرسمية بقائمة طويلة بالسلع التى تم رفع سعرها وكانت الصدمة الكبرى للناس الذين عانوا طويلا وربطوا الاحزمه فوق البطون وتحملوا على امل غد مشرق وتنفسوا الصعداء بانتصارهم فى حرب الكرامة التى حرروا فيها ارض الوطن.. وصبروا طويلا على الوعود الكثيرة بالرفاهية القادمة مع السلام.. وانتظروا وانتظروا بينما يجترون الألم عندما يرون باشوات جدد قفزوا إلى الصفوف الاولى والى المواقع الحساسة المؤثرة على إقتصاد البلاد.

ويروا الفوضى الاقتصادية حولهم يغترف منها الأفاقون والطفيليون ويصبح الأغنياء اكثر غنى وتزيد معاناة الفقراء ويصبح الفقراء اكثر فقرا ويصبحون حقا وفعلا "المعذبون فى الارض" فثاروا وخرج الشعب عن بكرة أبيه بدون تنظيم سابق فى مظاهرات كاسحة يومى ١٨، ١٩ يناير.. ويجب أن نحتفل بهذين كيومى "الانتفاضه الشعبية" التى تعبر عن انفجار المرجل الذى زاد فيه الضغط إلى درجة لا تحتمل.. وستبقى ذكرى الانتفاضة الشعبية التى أجبرت الحكومة أن تتراجع عن رفع الاسعار .. وفى هذا نجاح لمطالب الشعب الثائر الصبور.

الفصل الخامس

البقرة الحلوب

إننى ابن النيل العظيم الذى لم يبخل عن أرض الكنانة بمائه العذب الذى إرتوى منه العطشان وارتوت منه الأرض التى أخرجت الخير للناس.. وحتى أولاد يعقوب (إسرائيل) هرعوا إلى أرضنا أربعة قرون كاملة. واليوم يريدون بنا شراً. وحتى أبناؤنا المخدوعين يمسكون معاول الهدم وكأنهم يريدون تحطيم المعبد من الداخل.. وانتابنى الضيق وأنا أرى الغوغاء والنصابين والأفاقين يسرقون خيراتنا وأموالنا ويهربونها للخارج.. ولا تزال مصر هى البقرة الحلوب التى امتص الأغراب لبنها وخيرها.. ويمتص الفاسدون والمنحرفون إنتاجها. إننى حزين من التغيرات التى تحدث حولى والتى توجع القلب فأمسكت قلمى وسجلت خواطرى:

حماك الله يا مصر

حماك الله يا مصر حتى لا يأتى مثل هذا اليوم اللعين

حماك الله يا مصر حتى لا تغرب عنك شمس الحرية والضياء

حماك الله يا مصر حتى لا تندثر القيم والمبادئ تحت التراب

حماك الله يا مصر من الطامعين فيك والمتربصين بك

حماك الله يا مصر من إمبراطورية القوة الغاشمة

حماك الله يا مصر من الأفاقين الحاقدين الراغبين فى ثرواتك

حماك الله يا مصر من الخراف الضالة التى تحولت لذئاب

حماك الله يا مصر من معاول الهدم ومن أفكار المتخلفين

حماك الله يا مصر ممن يحاولون طمس هويتك

حماك الله يا مصر ممن أخذوا خيراتك وتنكروا لكِ

حماك الله يا مصر لتحمى شعبك الأبى الذى لم ولن

يتخلى عن الأخلاق الحميدة وعن روح الحق والعدالة

وأخذت أقلب فى الصفحات التى نقلتها من مذكرات الأستاذ فؤاد الملوانى واستوقفتنى

هذه الصفحات والتى كتبتها تحت عنوان "اذكر يا تاريخ" فأعدت قراءاتها وأعدت التأمل فيها:

"إن الشعب المصرى العظيم سليل صانعى أول حضارة فى العالم ليس بأناس سذج.. حتى الفلاح الذى يظهره بعض الكتاب بأنه ساذج وأن من السهل خداعه ليس هكذا.. تحدث مع الفلاح فتجده ينظر لك ولا يظهر على وجهه تعبير محدد، ويسمع لك ويقول "أيهيه" وكأنه مندهش.. ولكن هذه الكلمة البسيطة تعنى استفسار منه اذا كان ما تقوله حقيقى؟ ومعناه فى الباطن بأنه لا يصدقك.. وأدباً منه تَقَبّل كلامك، بدون تجريح لك.. وما قاله الرئيس السادات عن أخلاق القرية وقانون العيب إنما يعنى بأنها هى جوهر الأخلاق التى استخلصها أهل القرية من معبد القيم والأخلاق التى يحتمون فيها جميعاً.. فحتى الفلاح المطحون والمعدم يَقْتل دفاعاً عن الشرف وإنتقاماً ممن خدعوه وتأثراً على تصرفات الخسة والندالة.. لقد تحمل شعبنا فى كل فترات الضيق ورغم طول فترة إحتلاله التى امتدت إلى ألفين وخمسمائة عام لم يفقد هويته ولم يستسلم.. لقد قلد الحكام الإغريق الملوك المصريين وأخذوا ألقابهم وحاولوا أن يجدوا ارضاً مشتركة للمعتقدات المصرية واليونانية وكتب كثير من الأباطرة الرومانيين اسمائهم داخل خراطيش مقلدين الفراعنة.. والإغريق أيضاً كتبوا أسمائهم باللغة الهيروغليفية داخل خراطيش وكانت الإله المصرية ايزيس تُعبد فى كل مصر ووصلت عبادتها إلى أرض الرومان بل فى روما نفسها عاصمتهم.. وايزيس تمثل الزوجة المخلصة والأم الرؤوم وهذه نظرة المصريين منذ القدم إلى المرأة فيحترموها ويبجلوها ويعتزون بها ويحبونها وأعطوها حقوقها كاملة.. فالمرأة مع الرجل هما عماد **معبد الأسرة** التى تحافظ على الترابط والمحبة والتفانى والتعاون والأخلاق.. حتى **معبد العلم**.. فكان مناراً يسطع فى كل أنحاء البلاد وما قام به رجال معبد العلم ظاهر فيما خلفه أجدادنا من آثار كالأهرامات والمعابد والمقابر الصخرية والعلوم المكتوبة على أوراق البردى.

قد يجهل الكثيرون بأن الجامعة السكندرية هى أول جامعة فى العالم وكانت قِبْلَه ورجال الفكر منذ العصر الإغريقى وحتى نهاية العصر البيزنطى. وكانت الجامعة وعلمائها يجمعون ثقافات وعلوم ثلاث حضارات: الحضارة المصرية والحضارة الهيلينية والحضارة الرومانية.. حتى عندما حاولت بيزنطة (القسطنطينية – استامبول حالياً) أن تجذب الأنظار إليها على أساس أنها عاصمة الإمبراطورية البيزنطية استمرت الاسكندرية

متفوقة عليها بمكانتها العلمية. وكان البطاركة المصريون يمثلون الاستقلال الوطني في صورة العقيدة الأرثوذكسية ولم يخضعوا لكل ضغوط الأباطرة البيزنطيين واختلفوا معهم في بعض المفاهيم الدينية واستقطبوا معهم السريان واليونانيين والروم الأرثوذكس.. إن الرسالة التي يعنونها هو أنهم رغم خضوعهم للبيزنطيين كمحتلين لبلادهم إلا أنهم لا يخضعون لفكرهم واستمروا يحملون لواء الفكر والهوية المصرية.. وحتى بعد الفتح العربي والإحتلال العثماني لاتزال الشخصية المصرية متماسكة.. وإذا قارنا بين القرية الحالية والقرية المصرية أيام الفراعنة فنجد تشابهاً كبيراً بينهما.. وقد استمر سلوك سكانها بما يتميزون به من صبر وعمل وجد وتدين لم يتغير بتاتاً".

هناك فارق كبير بين تحمل النوائب والضيق وبين الاستسلام.. المصري لم يستسلم على مر العصور.. تحمل وصد.. ورغم الاحتلال البريطاني والحكام الأتراك متمثلين في الملكية كان هناك كان فوران دائم: ثورة عرابي – مطاردة الانجليز في دنشواي.. وقبل هذين الحدثين قاوم الأهالي الحملة الفرنسية، ويكفي أن نفتح صفحات المقاومة الشعبية ففي كتاب "وصف مصر" الذي كتبه الفرنسيون أثناء حملتهم على مصر، نجد القائد الفرنسي في قرية جهينة في الصعيد يسلم السيف لأحد الصبيان باعتزاز وتقدير لاعجابه بشجاعة هذا الطفل المحارب.. ولم ينسى الرافعي أن يسجل هذا المشهد في كتابه عن الحملة الفرنسية.. ثم ثورة الشعب بعنصريه الذين يكونا نسيج الشعب المصري ضد الانجليز بقيادة زعيم البلاد سعد زغلول.. ثم اضربات عام ٣٥ ومقاومة الشعب في القناة عام ٥١ ثم في بورسعيد عام ٥٦ وكانت ثورة ٥٢ هي تتويج ونجاح لهذا الفوران ضد الظلم والفساد ثم اضرابات ٦٨ التي تعبر عن الغليان والتي طالبت بالحريات واضرابات ٧٢،٧١ واشتراك الكتاب والمفكرون – وهم ضمير الأمة – في التعبير عما يجيش في صدور الناس والشباب.. ومن إحساس الشباب بالتمزق.. فقد اجتمع لفيف من المفكرين والكتاب في مكتب الأستاذ توفيق الحكيم وأرسلوا لرئيس الجمهورية في ٧ مارس ١٩٧٣ ما يعرف بإسم "**عريضة الكُتّاب**" وتعرضوا فيها لعدد من القضايا بينها قضايا الشباب.. وكان الأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ ثروت أباظة هم أعضاء الوفد الممثل للكتاب والمفكرين والذين قابلوا الدكتور حاتم ممثل رئيس الجمهورية. وآخر تعبير صاخب عن هذا الغليان والفوران هو الانتفاضة الشعبية.

لقد شهد يوم ١٨ يناير انفجاراً شعبياً هائلاً بدأ أولاً فى الاسكندرية – وبعد قليل وبدون تنسيق – انفجر فى القاهرة.. اندفعت إلى الشوارع فى كل مكان كتل بشرية من عشرات ألوف الرجال والنساء فى مظاهرة ساخطة صاخبة تعلن معارضتها القوية لقرارات انقضت على رؤوسهم مفاجئة كالصواعق، كان من شأنها أن تجعل الحياة مستحيلة بالنسبة لهم ولأسرهم.. وكان السادات وقتها يرتب لزيارة تيتو مصر.. واشتدت المظاهرات يوم ١٩ يناير عنفاً لأنها كانت انفجاراً شعبياً دفع إليه اليأس والغضب ومات فى الشوارع مائة وستون شخصاً. واضطرت الحكومة إلى فرض الأحكام العرفية وحظر التجول واستدعت القوات المسلحة لكى تمسك بزمام الأمور ولكن خوفاً من أن ينضم العساكر – وهم أبناء الشعب الثائر – إلى هذا الطوفان، **أعلنت الحكومة تراجعها عن هذه الزيادات**.. وهذه المظاهرات تعنى ان صوت الغضب عم وارتفع، وتراجع الحكومة يعنى قبول مطالب الشعب على مضض.. والمعنى الأخطر لهذه المظاهرات هو أن صورة السادات كقائد وطنى قاد حرب التحرير وكـ "كبير العائلة" كما كان يحب أن يطلق على نفسه قد تم تمزيقها فى شوارع القاهرة خلال ساعات عاصفة وهذا يشكل شرخ كبير وعميق فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

كان الجميع يطلقون على هذه المظاهرات "مظاهرات الطعام" ولابد أن بعض المحرومين وبعض المنحرفين قد إندسوا وسط الناس واستولوا على لحوم ومأكولات من الجمعيات التعاونية.. وهذا شئ طبيعى.. ولكن السادات الذى ملأت نفسه مشاعر المرارة أطلق عليها "انتفاضة حرامية" دبرها الشيوعيون والناصريون ولأنهم أعدائه فقد دبروا مؤامرة خطيرة ضده.. ووجد السادات فيهم الشماعة التى يعلق عليها فشله فى معالجة التضخم وفى تحسين الأحوال الاقتصادية للبلاد.. وبعد أن نجح السادات فى أحكام قبضته على البلاد بعد أن منحه الاستفتاء – الذى ابتكره وأسماه "حماية أمن الوطن والموطنين" والذى تضمن عقوبات صارمة، ففى ست بنود منه تكرر لفظ الاشغال الشاقة وسلطات استثنائية كبيرة. والعجيب أن وزارة الداخلية أعلنت أن الاستفتاء حصل على ٩٩,٤٢ فى المائة وخيمت على البلاد حالة من الكآبة فالناس بحسها الواعى أدركت نبرة المرارة التى يكنها لها.. وظهرت هذه المرارة واضحة فى احاديثه.. وفى عدة مناسبات كرر استخدام تعبير "أنتفاضة حرامية" محاولاً أن يؤكد ما كان يردده أمام العالم بأن تسعون بالمائة من الناس يوافقون على سياسته.. وكان السادات يعانى أيضاً من الأحساس بالمرارة تجاه

العرب.. فقد أحس أكثر المحيطين بـه بتمزق الصف العربـى وهذا الشرخ فـى المعبد العربى كان عميقاً.. فما قام عبد الناصر بتوحيده قام هو بتفريقه.. كان السادات فـى حالـة نفسية لا يحسد عليها خصوصـاً أن أملـه فـى برنـامج علـى غرار "مشروع مارشـال" لـم يتحقق بل أن بعض المسئولين الأمريكيين أوضحوا له بأنهم يتمنـوا قيـام تنميـة فـى البـلاد تعتمد على العمالة المصرية الرخيصة ورأس المال العربى والتكنولوجيـا الأمريكيـة.. أى أنهم باختصار خذلوه وكل ما قدموه هـو المعونـة الأمريكيـة العاديـة أى الأمـداد بـالحبوب الفائضة لديهم.

لا أعرف لماذا بدأت اضيق من الضجيج والزحـام ربمـا لأن داخلـى ملـئ بالأحاسـيس المتناقضـة.. فرغـم أننـى خطـوت خطـوات واسـعة فـى طريـق تكويـن الـثروة كنـت قلقـاً ومتضايقاً.. وقتى كله موجه نحو هدف محدد ألا وهو الدخول فى زمرة رجال الأعمـال.. إننى أحْن للقاء عبد العزيز عمرو ولنحلل سوياً أحوالنـا وأحـوال البـلاد والمتغيرات التـى حدثت فى المجتمع ولأشكو له ما يضايقنى فكلامـه بلسم لـى وأحْن لمقابلـة سـيد حسـانين الملئ بحب الوطن والتضحية والفداء له.. وأتمنى أن أجد فتاة رومانسية تحـل محـل وفـاء فى داخلى فأنا لم أستطع التخلص من هذا الحب والـذى تحـول إلـى حـب عـذرى بعد أن وقفت الظروف المعاكسة فى طريقه.. أريد أن اسمع لشـكاوى عائلـة عبـد السـميع البـواب أريد أن أجد النقاش الوطنى الهادئ مع عزت بك وسرحان بك والذى تغير الآن إلى نقاش فى الأرقام : أرقام المكسب والخسارة.. لقد تغيرت أشياء كثيرة أمامى.. أصبحـت أجـرى لألحق بالزمن الذى يجرى بسرعة الطائرات النفاثة.. أننى أحْن بداخلى إلى قـراءة الشـعر الجيد وقراءة الأدب وأعيش داخل الأحاسيس المرهفة الجميلة.. وتذكرت قطعة شعر كتبها شاعر إنجليزى ومحتواها "ماهو معنى الحياة إذا كانت مليئة بالمشاغل فلا نجد لدينا الوقت لنقف ونتأمل" وفى القصيدة يوضح التأمل بأنه تأمل فـى الطبيعـة الجميلـة المليئـة بـالورود والمناظر الطبيعية الساحرة.. وفعلاً أنا أفتقدت هذا الآن...

أصبحت آلة مبرمجة بجدول مزدحم مع المواعيد ومقابلات ثقيلة الظل مـع مـن يدعـى "حـازم باشـا" ومـن علـى شـاكلته ورفعـت السـمنودى الـذى جرنـى إلـى أسـاليب النصـب والخداع.

وأخذت سيارتى إلى الزمالك وكنت سعيد بأننى أسير فى شـوارع خاليـة مـن المطبـات والطريق كالحرير ولما لمحت برج القـاهرة طغـى علـى إحسـاس فجـائى بـأن أذهـب إلـى

هناك وأتامل القاهرة من فوق.. وذهبت بالفعل وأخذت أجول ببصرى حولى والنيل ينساب بالقرب منا وهو يعطى الخير بلا توقف وهو الذى حَوّل الأراضى القاحلة إلى مروج خضراء.. قدم لنا الماء والغذاء وهما عصب الحياة.. لقد أخذنى فكرى إلى أجدادنا الذين قدسوا النيل وكان الميت يوم الحساب يقسم بأنه لم يلوث ماء النيل.. ولكننا الآن نلقى بالحيوانات الميتة وبالقاذورات والمواد الكيمائية المتخلفة عن المصانع نرميها كلها فى النيل.. فالنيل يعطى الحياة ونحن نقتل الاسماك فيه ونقتل الزرع الذى تصله المواد المدمرة.. وعندما نزلت إلى الشارع فكرت أن أتجول على قدمى نصف ساعة وأركب بعدها سيارتى وأعود لسكنى فى شبرا.. فهنا الهدوء والرفاهية والهواء النقى والشوارع النظيفة المتسعة وهناك الحركة ومعها الضجيج والضوضاء والمخلفات على الأرصفة والمطبات فى معظم الشوارع... وأثناء تجولى الهادئ وأنا أفكر فى مسائل عديدة قابلت زميل قديم وهو محمد عبد الفتاح وكان يقف مع زميلين له وقدمنى لهم وقدمهم لى وكانوا قد خرجوا لتوهم من ناديهم نادى الشرطة وبادرنى محمد بالسؤال عن أحوالى كمحامى وسألنى عن كيفية تكوين شركة سياحية من خمسة أفراد.. وشرحت لهم الفروق بين الشركة المساهمة وشركة التضامن.. ولما أظهرت لهم اهتمامى بموضوع السياحة سألنى أحدهم إذا لم يكن عندى مانع لأن أكون بدلا من أحد الشركاء الخمسة بالأضافة إلى عملى كمستشار قانونى للشركة.. وفهمت أن هناك سوء تفاهم بين الشركاء الاثنين الآخرين وهم لايريدون أن يبدأوا الشركة فى جو الخلافات.. وحددنا موعداً للمقابلة وفضلوا أن تكون المقابلة بعد يومين فى مقر الشركة بالزمالك.

وعندما عدت لشقتى بعد منتصف الليل وجدت التليفون يرن وما أن رفعت السماعة وإذا بى أجد المتحدث شقيق رفعت السمنودى.

– كنت فين يأستاذ سعيد.. اتصلنا بيك فى مكتبك وفى بيتك من الساعة السادسة.

– النهاردة الأحد.. يعنى اجازة بعد الظهر.. لأنه لازم نستريح يوم فى الأسبوع.. فيه إيه؟

– البوليس عمل كمين لرفعت أخويا وضبطه بياخد فلوس من أحد الممولين.

– قال للبوليس الفلوس دى بتاعت إيه؟

– قال أن دى كانت مقدم شقة عند المقاول.. وكان المقاول معاند.. وأن الممول أتوسط وجابله الفلوس بتاعته.

– ومع أخوك رفعت عقد ايجار بينه وبين المقاول؟

– أيوه..بس لسوء الحظ كان ناسيه فى البيت.

– لا.. ده لحسن الحظ.. المهم أن عندنا توقيع المقاول على العقد كأثبات للتعامل فى شقة.

– يعنى فيه أمل يأستاذ سعيد؟

– إن شاء الله.. أنت روحله النهاردة فى القسم وخليه يصر أنه مش حايتكلم إلا فى حضور المحامى..وبكره الصبح تجيب العقد من بيته وتجينى.. ونروح سوا للنيابة.

ودار بخاطرى كل العمليات التى قمنا بها سوياً والمكاسب التى حققناها وكنت سعيد بأننا كوّنا رأس مال من مجهود بسيط.. وكنت أبرر لنفسى بأن عملى كمحامى هو الذى حقق لى هذا المكسب. وإن لم اكسبه أنا سيكسبه غيرى وأننى لم أُجبره على دفع النقود.. وأحيانا أحس بتأنيب الضمير بأن الممول الذى وثق فى أصبح ضحية لى ولرفعت.. ولكن من الناحية القانونية كان كل شئ يسير على مايرام ولكن رفعت أراد أن يأخذ لنفسه فقط كل المبلغ فبدأ يعمل بمفرده ويتفاهم مع الممولين وكما يقولون "ريحته فاحت" وها هو وقع فى كمين ومن ناحية الألاعيب فأننى سأبنى دفاعى على وجود علاقة بين المقاول قريب الممول وبين رفعت.. وسأبحث عن ثغرة فى الإجراءات التى اتُخذت.. وفعلاً نجحت ثانى يوم فى التشكيك فى عملية الرشوة خصوصاً أن الضابط معرفة الممول هو الذى ختم الأوراق المالية وقام بالضبط وفات عليه أخذ إذن مسبق من النيابة.. وتم الإفراج عن رفعت وأثبت براءته من الجانب الجنائى..ولكنه تم تحويله إلى تحقيق إدارى على أساس أنه يشتغل وظيفته فى الحصول على مزايا.

وكان اليوم التالى هو موعد المقابلى مع محمد عبد الفتاح.. وكان الموعد ظهراً.. وتقابلنا وأحضروا غذاء فاخراً من أحد المحلات المشهورة وتم الاتفاق على تاسيس الشركة مع محمد عبد الفتاح وصديقيه وصافيناز وأنا.. وصافيناز هى أرملة أحد اللواءات ذوى الاتصالات وذوى النفوذ.. ونفس العمارة التى فيها مقر الشركة ملكاً لها.. وصافيناز نفسها غنية وورثت العمارة عن والدها ولكن الشركات المختصة بعمل التسهيلات لتقاسيم أراضى وشراء أراضى على أنها أمن غذائى كانت مجهود زوجها.. ولما مات زوجها أصبحت هى المسيطرة على كل شئ لأنها بأسمها والإدارة لا تحتاج شقيق زوجها.. والصراع بينهما كبيراً لأنه يفتش الآن فى أوراقه عن المخالفات لكى يوقعها فى

المحظور..وهى تبعده عن أى اشتراك معها فى أى مشروع لذلك رحبت هى بأن أكون الشريك الخامس فى شركة السياحة خصوصاً أن معرفتى بالشئون القانونية والثغرات والألاعيب ستفيد الشركة.. واتصالات الشركاء الآخرين كضباط شرطة سيحمى الشركة من أى ابتزاز.. واستمرت المقابلات بيننا لأننا كنا نذهب إلى الفنادق لنتفق على الأسعار واتفقنا على المراكب التى سننقل عليها السائحين من الأقصر إلى أسوان وبالعكس وتقابلنا مع مديرى التسويق لنستفيد من المعلومات التى لديهم وكنا نعطى كل واجد منهم الأمل بأنه سيكون مدير السياحة بالشركة.

وذات يوم كانت صافيناز مضطربة وأخذتنى إلى الفرانده الواسعة... وأحضرت العشاء والمشروبات وأخذت تحكى لى عن المخاطر التى تعرضت لها وأعترفت بوجود مخالفات ارتكبتها هى وزوجها والآن وقد مات فتصبح هى المسئولة جنائياً ومدنياً عن هذه المخالفات والتى يعرفها شقيق زوجها وهو يجمع الأدلة ضدها.. وفجأة سألتنى إن كان لدى مانع أن أبقى معها فى الشقة حتى تسترجع هدوئها وشجاعتها.. وصرفت الخدم واحضرت فواكه ومشروبات وهدأت بعد أن طمأنتها بوجود ثغرات أنْفْذ منها ثم تنهدت تنهد الارتياح ونظرت إلى نظرة مباشرة وقالت :

- عايزة أقوالك متشكرة قوى قوى.. ماعندكش فكرة أنت ريحت قلبى قد إيه.
- أنت ليه يا مدام صافيناز بتضطربى بسرعة ؟
- عشان ما فيش صديق جنبى يساعدنى ويحمينى.
- ولا أقارب مخلصين؟
- أحنا عيلتنا مكتوب عليها الخصام.. المشاكل كثيرة قوى يا استاذ سعيد.
- ممكن تعتبرينى صديق يحب يساعدك.. ده إذا ماكنش عندك مانع؟
- كتر خيرك.. أنا قلبى اتفتحلك.. وبأحس بارتياح لما تكون قريب منى.

ثم استمرت الأحاديث الهامسة وأمسكت يدى ووضعتها بين يديها وفجأة قبلتها.. ثم تلاقت عيوننا ثم ايدينا ثم أجسامنا وكان الشيطان ثالثنا.. وفى الصباح أخذت تغازلنى وأنا شارد الذهن فهى أرملة فى الخامسة والأربعين وثرية جداً وأنا فى الرابعة والثلاثين.. وكل ما معى بعد كل الطرق الجهنمية لتكوين ثروة لايتعدى واحد على عشرين مما تملك.. وكل المزايا فى صالحها ولذلك لم تحس بالخجل عند التحدث بصراحة وببساطة وجذبت يدى اليمنى ووضعت رأسها عليها وقالت :

– أعتقد أنك بتشاركنى الرأى بأننا اتشدينا لبعض.

– أنت خدرتينى وسلبتينى إرادتى..مين أنا عشان اقاوم حورية من الجنة؟

– وأنت ياسعيد خليتنى أحس بأنوثتى.. وطبعاً مانقدرش نتقابل سراً.. أحنا مش مراهقين.. ولازم نكون مش مهددين من البوليس.

– مش فاهم.

– نتجوز جواز عرفى.. ده مابيلزمناش بحاجة.. هو بيحمينا بس من المتطفلين.

– بس هل درستى القرار ده يامدام صافيناز.. وألا مجرد خاطر عابر؟

– أنا محتاجاك جنبى.. مش حقول أن علاقتنا وصلت للحب.. ولكن فيه استلطاف.. وفيه رغبة فى الأحساس بالحماية معاك.. وبْطّل تقول كلمة يا مدام دى تانى.

– طب يا صافيناز.. أنا مش شايف فى نفسى حاجة تجذبك لى.

– عاجبنى يا أخى.. وفى الوقت اللى تحس أن اللهفة فترت.. ساعتها نقول باى.. باى.. ونستمر أصدقاء.. كويس كده؟

– كويس قوى قوى.

وقضينا شهر العسل فى أوربا وركبت الطائرة لأول مرة وتنقلنا بين الفنادق ذات الخمس نجوم.. ولم تتركنى أدفع مليماً من جيبى قالت أن شهر العسل هدية منها لى.. كنت كالمراهق فى كل تصرفاتى لأنها كانت تجربة جديدة لى.. وهى كانت مستمتعة بكل شئ وفجأة نظرت الىّ وقالت :

– أنت ليه مندهش أنى مُصرّة أنى أعزمك فى كل الفسح؟

– اصل إحنا زوجين.. وإحنا الاثنين معانا فلوس كثيرة.

– أنا أول مرة أحس بلذة العطاء.. الأمومة اللى جواى واللى ماتحققتش لأن العيب كان منه ومنى خليتنى أحس بالأمومة ناحيتك.

– بس أمومة؟

– أمومة فى الدفع.. وزوجة وأنثى فى حبك. وأنا بأحبك فعلاً يا سعيد.. الحب كالقدر يأتى فجأة.. أنا ماحستش بطعم الحب الرومانسى اللذيذ لأنى أتجوزت راجل أكبر منى فى السن.. وهو قريبى صحيح.. لكن ماكانش زواجنا موفق.

– آسف فى السؤال.. وأنت غنية وألف من يتمناكى.. فليه أتجوزت واحد كبير فى السن.

– مش حاتصدق لوقلتلك إنى حبيته.. لدرجة فيه بنات كانت بتقولى إن أنا عندى عقدة لوليتا".

– يعنى إيه "عقدة لوليتا"؟

– لما البنت بتحب راجل أكبر منها بيقولوا عليها كده.. وتفسيرهم بأن البنت تكون بتحب أبوها فى العقل الباطن.. إلا قولى ياسعيد... أنت ماقلتليش عن نفسك أى حاجة.. وليه ما أتجوزتش.

– قصة حب فاشلة صدمتنى.. وكمان كان عندى "عقدة الفقر".

– وهو فيه كمان "عقدة الفقر"؟ حلوه دى منك.. أنا دلوقتى كأنى رجعت لسن المراهقة.. عايزة أعيش فى أحاسيس البنت المراهقة.

– الأنوثة الناضجة أكثر.. وألا تصرفات المراهقة ألذ؟

– الواحدة بتحْن لفترة السن الصغير.. مش حتى فى علم النفس بيقولوا للى بيحن لفترة الطفولة أن عنده "يكْوص" ؟

– الست بتكره أنها تعترف بسنها.. مش كده برضه؟

– ضرورى.. الواحدة عايزة تحس بأنها مطلوبة يعنى مرغوب فيها. وأهه شغل جنان.

– أوعى تعتبرى أن الجواز معناه أن أنا و أنت مجانين.

– أنا مجنونة بحبك.. هو الحب إيه؟ مش جاذبية؟ والجاذبية موجودة.. وحبنا متكامل.. يعنى عاطفى وجسدى.. مش كده برضه يا سعيد؟

ودخلنا إلى غرفتنا باللوكاندة والهيام فى نظراتها..وإرتخت أجسادنا واستسلمنا لما يمليه علينا كيوبيد.. ولم نستيقظ إلا اليوم التالى فى الساعة العاشرة.. ودخلت هى تأخذ حمام دافئ وجلست أنا فى البلكونة.. وأخذت اتساءل.. ما الذى غيرنى من إنسان رومانسى إلى شخص شهوانى؟ ووجدت لنفسى تبريراً فى أننى أحب وفاء حباً عذرياً أحبها بروحى وأعيش معها فى خيالى.. فلماذا لا استمتع بالحياة فى صورة متع جسدية وفخفخة ورفاهية فى العيش فى الفراش الوثير المريح.. والسؤال الذى يلح على باستمرار هو : "هل حياتنا الزوجية ستستمر طويلاً أم أنها نزوة وتنتهى؟" وفجأة يراودنى خاطر يضايقنى عندما اسأل نفسى "ما الفرق بين ما نفعله وما تفعله الغوانى؟" وأتضايق من أن تفكيرى ينحو على هذا النحو وهذا التشبيه أو المقارنة السخيفة.. فيجب أن يكون السؤال كالآتى:–

"ما الفرق بيننا وبين أى شخصين متزوجين؟"

ويأتى الرد الجاهز داخلى : "نحن نعيش حسب ماتمليه علينا قلوبنا ورغباتنا وحاجتنا الجسمية والنفسية، ما الفرق بين عقد يُقّع أمام الناس وعقد وقعه إثنان إرتضوا العيش سوياً؟ ماذا ينقصنا؟ أطفال؟ من يضمن قدرته على الإنجاب؟ ما الذى يضمن أن الخَلَف سيكون صالحاً ويأتى لنا بالسعادة؟ ثم أننى لا أريد لأطفالى أن يعانوا من الفقر مثلما عانيت ".. صدق الأمام على رضى الله عنه عندما قال "لو كان الفقر رجلاً لقتلته" فالفقر يُعّرض الإنسان للذل والعوز.. ويجعله مطيه لمن لديه القدرة على فرض إرادته.

وبعد عودتى من الخارج أحسست بالحنين إلى زيارة أصدقائى وإلى النوم فى سريرى بشقتى بشبرا.. وفعلاً ذهبت لمكتبى نصف ساعة فقد اطمئنيت على سير العمل فيه واتجهت إلى شقتى وسألت عبد السميع عن أحوال الجيران وعرفت بأن المهندس سيد حسانين موجود بشقته.. وأستقبلنى سيد بالأحضان وجلسنا كعادتنا فى البلكونة.. وأخذنا نسترجع الذكريات الماضية بحلوها ومرها وأحضرت زوجته سحر الشاى وسألتنى لماذا لم أتزوج حتى الآن فهززت رأسى.. ونادى سيد على أولاد الثلاث ايهاب وحسن وتامر وقال : اكبرهم تسعة وكل سنتين نجيب واحد "وكرر سيد علّى نفس سؤال زوجته فتنهدت وقلت:

– كل شئ بأوانه – لسه ماقابلتش شريكة حياتى المناسبة.

– فيه بنات كتار.. بس أنت إنوى عشان تلاقى أولادك حواليك وتقدر تربيهم وأنت [illegible] صغير.

– إدعيلى يا سيد أن ربنا يرزقنى ببنت الحلال.

ورن جرس التليفون فقام سيد يرد عليه ووجدت نفسى اتساءل :

"لماذا لم اخبرهم بأننى متزوج فعلاً؟ هل لأن عنصر الاشهار غير متوفر؟

"لماذا لم أتجرأ وأخبرهم بأننى سعيد مع صافيناز ونستمتع بكل لحظة من عمرنا؟" .. أليس من حقى أن اقترن بأنثى؟ لو كنت قد تزوجت وفاء لكان لدينا طفلاً يبلغ من العمر خمس سنوات.. ولكن وفاء هى التى رفضتنى" وبعد انتهاء المكالمة التليفونية عاد سيد وسالنى :

– **كنت فين الشهرين اللى فاتوا يا سعيد. أنا قلت إنك هاجرت.**

– **أنا** ساف[illegible] بره مع [illegible]ن بيدرس إمكانية الاستيراد من الخار[illegible].

– والله عال.. الزبائن دلقوتى بيفسحوك فى الخارج.. دى الأحوال اتطورت قوى يا سعيد.

– طبعاً فيه فرق بين وضعنا واحنا فى نكسة ووضعنا واحنا منتصرين.. ودلوقتى الناس بتشترى حاجات مستوردة.. والقرش جرى فى إيديهم.

– جرى فى إيدين الانتهازيين واللصوص وتجار المخدرات وشركات تقسيم الأراضى والمقاولات.

– الكل دلوقتى يا سيد بيشتغل. وألا أنت مختلف معاى فى كده؟

– فيه شباب كتار ترك خنادق المعركة ودخل "خنادق الفقر" ينتظر لما الأحوال تتحسن.

كان تعبير "خنادق الفقر" يعنى معنى غامض ولكنه معبر عن حالة البؤس والعوز التى يعانى منها الكثيرين من الفقراء.. وتذكرت الحدث البسيط مع تاجر التفاح الذى كنت أساومه لكى يخفض جنيه فى الكيلو فى حين أن الميكانيكى الجاهل حمل صندوقاً بالكامل ودفع ثمنه دون مساومة.. هل نسيت أننى من الطبقة الكادحة؟ هل أنا انتقلت حقاً إلى درجة اجتماعية أعلى؟ مظهرى الخارجى يوحى بذلك.. سكنى بالزمالك هو مجرد حدث عابر، لأن قرار إنهاء السكنى مرهون بإرادة صافيناز.. فالروابط بيننا ليست متينة.. إنها مصلحة متبادلة ولكن ليس لها جذور عميقة.. والعقد العرفى يحمينا فقط من بوليس الآداب فى حالة زيارة أحد اصدقائى أو إحدى صديقاتها لها.. لأن وجود أكثر من رجل وامرأة فى مكان مغلق يضعهم فى موقف مسائلة أما المتزوجين فهم فى حماية تامة.

وتطرق حديثنا إلى مشروع بناء الأبراج وعرضت عليه أن نؤسس شركة يكون هو فيها المهندس المسئول فرحب على أن يكون لدى ثمن الأرض والاساسات أما بقية التكاليف فتأتى من ملاك الشقق الذين سيدفعون بمجرد أن يروا الخراسانات ترمى على الأرض.. وكالعادة تطرق حديثنا إلى السياسة وهذا أمر طبيعى فلا يمكن اتخاذ قرار تجارى أو اقتصادى ألا بعد التأكد من سياسة البلد.. وسألت سيد :

– ياترى السادات ماشى على خط عبد الناصر زى ماكان بيقول؟

– هو كان ماشى على الخط بالضبط بس ماسك استيكة وعمال يمسح فيه.. وخلاه مايبانلوش أثر.

وضحكت على تعليقه الساخر لأنه هو الحقيقة بعينها.. فعبد الناصر كان يحارب الاستعمار ويتحداه.. والسادات يردد "هذه آخر حرب بين العرب وإسرائيل" وأن "كل أوراق اللعبة فى أيد أمريكا" وعبد الناصر كان يتحدث عن حقوق المطحونين ومنهم العامل والفلاح والسادات طلب تعريف جديد للعامل والفلاح فحتى الموظف أصبح عامل والفلاح هو الذى يملك خمسة أفدنة فأقل.. أننا لا ننكر أن السادات أصبح بطل الحرب بعد النصر فى معركة ١٩٧٣ والآن يتردد كلام عن السلام.. كانت الحكومة مضطرة إلى إخفاء الحقائق عن الناس وهى تطلب ربط الأحزمة على البطن.. ولكن بعد النصر بدأ الحديث عن رفع الدعم عن الأطعمة وكانت "قائمة ١٧ يناير هى السبب المباشر فى الانتفاضة الشعبية وفى صيف نفس العام حدث حدثين مرتبطين ببعضهما ولكنهما يحملان مؤشر خطير بأن هناك شرخ فى معبد الأمن والأمان.

فقد تلقى صموئيل زوج وفاء خطاب تهديد بضرورة تسديد مبلغ كبير لأحد الأمراء فى القرية التى يمتلك فيها التسعون فداناً.. ولما لم يعبئ بالتهديد تعرض لمحاولة اغتيال ولولا تعثر قدمه ووقوعه على الأرض لأصابته الرصاصة إصابة مباشرة.. وتمكن الأهالى من الإمساك بالجانى الذى أعترف بأنه مكلف من قبل أمير الجماعة بتأديب صموئيل.. وحضر صموئيل إلى القاهرة إلى حين أن تهدأ أعصابه ويفكر فى عمل إجراءات أمن لحمايته والحدث الثانى كان أخطر من ذلك فقد قام بعض الشبان باختطاف الشيخ "محمد الذهبى" من مسكنه بحلوان وكانوا يرتدون ملابس ضباط بوليس إمعاناً فى التنكر ووضعوه فى شقة مفروشة بمنطقة الهرم بالجيزة..وكان هذا التنظيم يطلق على نفسه "التكفير والهجرة" وأحتجز الشيخ الكبير الوقور طرفهم وهددوا بقتله إن لم تستجب الحكومة لطلباتهم ومنها إذاعة بيان لهم.. ونفذوا تهديدهم وقتلوا إنسانا بريئاً لم يفعل اكثر من إبداء رأيه كعالم يشغل مركز وزير الأوقاف.. وقد تأثر الناس جداً بما حدث للشيخ محمد الذهبى.. ويعتبر هذا الحادث مؤشرا خطيراً لازدياد صور العنف فى المجتمع.. فحتى الشيخ الوقور والعالم الدينى لم يسلم من أذاهم عندما اختلف فكرياً عنهم.. وهذا يدل على وجود وانتشار الفوضى الفكرية جنباً إلى جنب مع الفوضى السياسية والاقتصادية.. العنف هو شرخ كبير يهدد الكيان الاجتماعى بأسره.. وفى وسط هذه الاضطرابات السائدة فى البلاد ذاك العام وجه السادات صدمته العصبية الكبرى للمصريين وللعرب بمبادرته التى أطلق عليها "مبادرة السلام" والتى بمقتضادها زار القدس وألقى خطابه فى الكنيست

ثم زار بيجن مصر وبدا الحديث عن معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.. وتم توقيع معاهدة كامب ديفيد وأطلقت عليه الجرائد طبقاً لتوجيهاته لفظ "بطل السلام" وأحياناً بطل "الحرب والسلام" وكان قد إختار لنفسه قبل ذلك لقب "كبير العائلة" وكان يعلن عن تمسكه بأخلاق القرية.. ولذلك سمى قانونه الجديد المبتكر "قانون العيب" وأتخذ لنفسه اللقب الشهير "الرئيس المؤمن" وكأن الرؤساء الآخرين غير مؤمنين!!

أما علاقتى بصافيناز فلم تدم أكثر من ستة اشهر فتركت الزمالك وعدت إلى شقتى بشبراء، وتخَارجْت من الشركة السياحية ولكنى استمريت بصفتى المستشار القانونى لها. وفى جلسة هادئة مع نفسى أمسكت القلم وأخذت أراجع التغيرات التى حدثت لى والتخبط الذى سرت فيه.. فأول خطأ أرتكبته كان تعاملى مع رفعت السمنودى وقد أُجبر رفعت على الاستقالة وتم تحويله إلى لجنة الكسب غير المشروع.. وضاع مستقبله.. ولو كنت موظفاً لكنت شريكاً له فى الجريمة ولو أنى فى حقيقة الأمر أُعتبر شريكاً فى الجريمة ذاتها رغم عدم إدانتى إدانة مادية.. وقامت الجرائد بعمل حملة كبيرة ضد استيراد الدواجن والتى كانت قد انتهت صلاحيتها وتم القبض على الكثيرين ومنهم "حازم باشا".. وكما يقول المثل "البقرة لما بتقع بتكتر سكاكينها".. وخسرت شركة عزت بك وسرحان بك خسارة فادحة فأعلنت إفلاسها.. وطبعاً دورى كمستشار للشركة إنتهى... وفشلت فكرة الأبراج لأن سيد حسانين تراجع بعد أنهيار عمارة بمنيل الروضة قبل أن يسكنها الناس وكان سبب الأنهيار هو وجود الاسمنت الفاسد الذى تم استيراده من رومانيا بسعر رخيص.. فالمال هو المعبود الآن.. اما كتابة العقود للشقق فلا غبار عليه لأننى كنت أُمارس عملى كمحامى يحمى حقوق الطرفين البائع والمشترى.. أما قصة صافيناز فأنها تمثل شرخ نفسى لى.. فقد اشبعت الحس والمادة على حساب النفس والروح.. وغلب على الاحساس بأنى بعت نفسى مثلما كنت أقول بسخرية عن الناس الذين باعوا أجسادهم والذين باعوا نفوسهم والذين باعوا ارواحهم.

وكعادتى عندما كنت أمر بأزمة نفسية فإننى اذهب إلى عبد العزيز عمرو والآن استقرت أحواله بعد زواجه من ابنه خالته الطيبة وهى الصورة المشرقة والمُشرفة لبنت مصر، المتعاونة المحبة المتفانية والتى تحمل على كتفها أهم مسئولية وهى صيانة معبد الأسرة المتين والذى تدعمه الأخلاق والتدين الفعلى وليس المظهرى كما تعود الكثير من

الناس "التظاهر".. لقد طالت جلستي مع عبد العزيز حتى منتصف الليل لأنني أخذت أحكى عن كل شئ.. ثم قال عبد العزيز :

– طبعاً أنا مش حألبس ملابس الواعظ وأديك درس في الأخلاق وفي السلوكيات لكن أنا مبسوط أنك أدركت خطأك في الوقت المناسب.. وحتى الخاطئ بيقدر يتوب.

– مش عارف ليه أنا كنت ضعيف قدام حاجات كثيرة.. حتى في حبي.. عذبت نفسي اكثر من اللازم.

– الحب مش هو اللى عَذّبك.. مخك الصعيدى هو اللى عذبك.. ياما أخذنا صدمات يا سعيد.. ووقفنا على رجلينا أقوى من الأول.

– والشيطان زين لي موضوع صافيناز.. وكأني حأخش الجنة.

– أحنا نخلي كلمة الشيطان الشماعة نعلق عليها اندفاعنا وشهواتنا.

– عايز تقول يا عبد العزيز أن العيب فينا أحنا؟

– طبعا.. هي ردود فعل الإنسان مش بترجع إلى نفسيته وتفكيره وتقديره وفهمه للموقف؟

– بس فيه حاجات بتبقى خارجة عن إرادتنا.. زى الظروف المحيطة بينا مثلا.

– حأقولك جملة قاله رشاد رشدي في مسرحيته "اتفرج يا سلام" .. وعشان تفهم معنى الجملة .. حأقولك الموقف.. الموقف هو أن مصر كانت تعاني من ظلم الحكم التركى فقال ابن البلد: "أهى الناس بتتحمل وتعيش.. وتربى اولادها".

– ما هو لازم يستحملوا عشان يعيشوا مع الغول اللي راكب على صدرهم

– بس بص وتأمل الجملة اللي أنا بأقصدها: "وتربى اولادها" .. وهو ده الدور الايجابي بتاع الناس.. وهوده اللي لازم يكون دورنا أحنا دلوقتي..

وفي اى وقت.. "معبد الاسرة" هو أهم معبد – لأن الاسرة هي النواة الاولى للمجتمع.

– فهمت قصدك.. يعني لازم نحافظ على ترابط المجتمع.

– وهو ده كان دورنا طول عمرنا.. ويجب إنه يستمر.. فسواء الاقطاعي نهب أو المستعمر أو البلطجي أخذ.. فدى كلها حاجات عابرة بالنسبة لكياننا الاصلي.. لازم نربي أولادنا التربية السليمة .. وده لصالحهم ولصالحنا.

وتنهدت وقلت "هم فين أولادى"؟ فنظر لي عبد العزيز نظرة ذات معنى وأشار إلى رأسي بمعنى "خلي مخك يشتغل.. خلي تفكيرك سليم" وهو طبعا يقصد أن أنسى موضوع وفاء الذى عطلني عن دورى في المجتمع في بناء الخلية الاولى.. وقلت في نفسي إن نرجس

شقيقة صموئيل هى زوجة مناسبة لأن هذه الاسرة محافظة ومتدينة.. وهى قد تربت فى جو الاسرة المترابطة وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها أى أن الفارق فى السن بينى وبينها هو احدى عشر سنة فقط.. وعلاقتى بهذه الاسرة ليست سيئة.. وكنت أعطيهم الاستشارات القانونية عندما أذهب إليهم أثناء زيارتى لأختى فى الصعيد وفعلا إتخذت خطوة ايجابية وذهبت مع سامى إلى صموئيل ابن عمه.. وطلبت نرجس فلم يمانع صموئيل ووعد بأن يعطينى الرد بعد أخذ رأى أخته.. فكما قال: "هذه حياتها هى .. انتهى عصر الجهل الذى كان الأهل يفرضوا العريس على بنتهم" وأخذ رقم تليفونى لكى يعطينى الرد بعد التداول مع الاسرة ومع العروسة وحدد لى فترة إسبوعين.. وبعد ثلاثة أيام فوجئت بزيارة الاستاذ عبد الله لى بمكتبى وكان قد طلبنى تليفونيا وحدد لى الموعد الذى كان المتوقع حضورة فيه ولم يحدد بالضبط الغرض من الزيارة ولا اليوم أو الساعة بالضبط.. كنت متوقع أن يكون قد أتى لى بالموافقة.. ولكنه كان واجما عندما جلسنا بمفردنا بعد تقديم واجبات الضيافة.. وقام بنفسه وأغلق باب الغرفة وفاجئنى بسؤال غريب:

– أنت ليه يا سعيد يابنى.. مش عايز تسيب وفاء فى حالها؟

– مش عايز أسيب وفاء فى حالها؟ هل أنا ضايقتها فى أى وقت من الاوقات؟ مش حضرتك رفضتنى وأنا ابتعدت؟

– بس أنت دلوقتى مش بتبعد.. انت فيه عندك اصرار على تنغيص عيشتها حرام عليك.. كفاية ظرو ها النفسية القاسية.

– صدقنى يا استاذ عبدالله.. انا بأحمل وفاء كل تقدير واحترام.

ونظر الا تاذ عبد الله إلى نظرة ثاقبة و تهد ثم قال:

– وتحمل لها "حب" لازال عايش فى ع لك الباطن.

– عجيب ! حضرتك حددت ده إزاى؟

– أنا مذ ج كل اللى حصل لبنتى.. أن وأمها السبب فى تعاستها .. ودلوقتى أنا عايز **أعوضها** عن التعاسة اللى أنا اتسببت ف ها.

– صدق ى .. صدقنى .. أنا يهمنى سع ة وفاء .. لأنها ما اساءتش لى..

ورغم ر فضكم لى .. أنا لا أحمل لكم أ ى ضغينة.. بل كل الحب والتقدير.

– مأنا خوفى من الحب ده.

- خوفك؟ ليه؟

- عمر ما فيه سر يستخبى طول العمر.. إذا صموئيل عرف بانك تقدمت لبنتى فده حايكون مجال للعكننة المستمرة.. وربما يؤدى إلى ...

وسكت الاستاذ عبد الله برهة واخرج منديله ومسح به عرقه وتنهد ثم أخبرنى السر الذى لم أكن اعرفه.. والذى كان الحلقة المفقودة لى.. وهذا السر هو سبب طلاقه لوالدة وفاء.. فقد كانت تحب أخيه ولم تكن تحبه هو .. ولما سافر أخاه فى بعثة دراسية فى الخارج وتقدم الاستاذ عبد الله لخطبتها فقبلته واعتبرته بديلا لحبها لاخيه.. ولكن الاستاذ عبد الله لاحظ عدم اهتمامها به وانها كثيرة المشاحنات معه وذات مرة حدث تصعيد فى "الخناقة" فسبته واخبرته بأنها تحب أخيه وكانت تعتقد بأنه سيعوضها عن هذا الحب خصوصا أن فترة البعثة الدراسية كانت خمس سنوات.. ولاحظت بأن الدموع تنساب من عينيه فحاولت تهدئته وطلبت له كوبا من القهوة.. وبعد أن تماسك نفسه قال:

- غباء أمها وتصرفها الأحمق.. وإصرارها بأنها عايزة تغيظنى.. حطم الأسرة.. وكانت وفاء هى الضحية.. ضحية بدون ما ترتكب أى خطأ.. مالهاش ذنب فى اللى يحصل لها.

- ربنا يكون فى عونك يا استاذ عبد الله.. أنا ملاحظ أن الموضوع ده بيسبب لك ألم.

- يا ريت ماكانت نطقت بالسم اللى خرج من بقها وسممت حياتى وحياة بنتها يا ريتنا كنا نعيش غرباء تحت سقف واحد.. وكان كفاية أننا ننتبه لبنتنا بدل ما طلعت لقت أبوها فى حته وأمها فى حته.

- صدقنى يا استاذ عبد الله.. انا لا يمكن انى اكون سبب فى تعاسة حد.

- يبقى تعمل فينا معروف.. وما تكملش موضوع خطوبتك من نرجس.. عشان خاطرى وخاطر وفاء.. واعتقد ان وفاء ليها خاطر عندك اكثر منى.

- ليه؟ حضرتك ليك خاطر وخاطر .. وأعتبر ان موضوع خطوبة نرجس إنتهى.. أنا حاتصل بيهم وأقولهم.. إن فيه عندى ظروف خاصة تمنعنى من الزواج حاليا.

- متشكر قوى يا سعيد.. واقدر اقولك دلوقتى من قلبى: "يابنى"

وقبلنى وكرر على بأنه كان من الصعب عليه الاعتراف بالسر الذى كان يخبئه عن الناس ولكنه أعترف به أمامى حتى أساعده فى المحافظة على سعادة إبنته... وأنا فعلا يهمنى سعادة وفاء وتكمن سعادة المحب فى إسعاد حبيبته حتى لو كانت حبيبته سابقا.. فالحب لا يعرف الكراهية... إنه شعاع بين روحين يوصلهما ببعضهما.. والتعبير بان حبيبته توأم

روحه تعبير دقيق لأن الروحان تكملان بعضهما.. ما الذى يجعل شخصا يحب شخصا آخر بعينه.. إسأل أى حبيبين وجدا أنفسهما مرتبطين برباط المحبة وقل لهما ما السبب فيهزوا رؤسهما ويقولان لا نعرف.. ان عالم الروح عالم مجهول لنا حقا.. حتى فى الأحلام الروح تذهب لروح الآخر.. وعندما يتذكر المحب الحلم تغمره الفرحة ولكنه لا يعرف لماذا تمت الزيارة بين الأرواح.. المهم أن الإتصال موجود.. والغريب حقا هو أننا نقول سأنس حبيبتى ويتظاهر الشخص بالنسيان ثم تطفو الروح فجأة ويدرك المحب بأن روحه لا تزال مرتبطة بروح حبيبته.. هل نحن نفهم كل شئ فى هذا الكون العجيب.. اننا وجدنا على هذه الارض ولكننا نجهل كيف حدثت الخليقة فلم يكن هناك احد موجود وقت الخليقة ولأننا نجهل طبيعة الحب الخفية فاننا نعبر عن وجوده بمظاهر جسمانية كأن نقول إرتبكت عندما رأيتها.. أو أن قلبى أخذ ينبض بسرعة عندما وقعت عينى عليها.. أو أننى انجذبت اليها .. ولا نعرف القوة الخفية التى قامت بهذا الجذب.. ان الحب سر غامض حقا.

وبدأت وقفة أخرى مع النفس وسألت نفسى: أى الطرق أختار؟

أى هل اهتم بعملى كمحامى أو أدخل فى المشروعات التجارية المربحة لكى أصبح رجل أعمال؟ إننى أجد نفسى فى العمل كمحامى وسعادتى تكمن فى دراسة الناس والمجتمع فى محاولة مساعدة المظلومين والمساكين.. أما عينة "حازم" فهم الذين يصلحون رجال أعمال.. فهم يعرفون كيف يتعاملون مع المافيا التى تشعبت انشطتهما.. يعرفون متى يتعالون ويتظاهرون بأهميتهم فى إنجاح المشروعات ويعرفون متى يتملقون.. ومن يتملقون.. إن لديهم هذه الحاسة التى تنقصنى أنا.. ولم أجد رجل أعمال ناجح الا ويكون مجال حركته ومجال تفكيره هو "المال" وما يتحقق من كسب وخسارة.. والأرقام هى شغلهم الشاغل حتى الغراميات مضيعة لوقتهم.. هو غير مستعد لتضيع وقت كبير وراء نزوة.. بل حتى النزوة فتكون سريعة لأن وقته مشغول فى جمع النقود ولا يتغنى ابدا لجبل التوبات.. وطالما أننى أجد نفسى فى مهنتى فلابد أن أكون محاميا ناجحا.. وعلى هذا بدأت أدرس القضايا باهتمام أكبر واكتب مذكراتى متضمنة البعد النفسى والبعد الاجتماعى أو السياسى لكل قضية اتناولها بالتحليل والدراسة وتعليقاتى على القضايا تشبع هوايتى الأدبية.. إن الأدب هو التعبير الصادق عن المجتمع وعن الإنسان.. فحتى عندما تسوده الرمزية وقت القهر والطغيان فإنه يحمل فى طياته معانى عميقة تشبع ظمأ الإنسان

لمعرفة الحياة فمثلا قصة الاستاذ ثروت أباظة "شئ من الخوف" لها معنى عادى بان "عتريس" فرض نفسه على أسرة "فؤاده" وتزوجها زواجا باطلا لأنه لم يأخذ رأى الفتاة الذى يمثل الركن الرئيسى لإتمام الزفاف ولكن الفتاة لم تستسلم لارادة عتريس وقاومت الخوف.. وهناك المعنى الرمزى فى وجود الخوف بين الناس بسبب طغيان وتحكم عتريس وهو ما ينطبق على عصور البطش والتسلط.

وقصص الاستاذ نجيب محفوظ عن الفتوات لها معنى رمزى مشابه..ة وقصصه عن المجتمع وعن سى السيد المتسلط فى أسرته لكنه عبد لنزواته الشخصية تبين تناقضات شخصية هذا النمط من الناس، وفى نفس الوقت نجد إبنا يماثل أبيه فى مجونه وابنا آخر يجاهد فى سبيل الوطن ويموت شهيدا.. وفى الفتى مهران لعبد الرحمن الشرقاوى نجد التساؤل الذى كان داخل الإنسان المصرى وقت حرب اليمن عندما يسأل احد الشخوص زميل آخر ويقول "لماذا نشترك فى حرب السند والهند هذه ونحن ليس لنا فيها ناقة ولا جمل؟"

وهناك أمثلة عديدة لما عبر عنه حاملى مشاعر الفكر.. والقصص التى تتناولها القضايا التى أقوم بدراستها تصلح فى معرفة الأمراض الاجتماعية ومن القضايا التى لفتت انتباهى قضية "الزوجة العذراء" وتتلخص هذه القصة كالآتى: شاب يُدعى ألبير حنا تزوج أنجيل مرقص وهى فتاة متدينة جدا وطيبة القلب.. وعاشت معه كعذراء ستة أشهر كاملة وكانت محرجة أن تخبر أبيها بالحقيقة المرة.. وإدعى بأن هذه الحالة حدثت له فجأة وأنه كانت له مغامرات نسائية قبل الزواج.. ولم يكفى هذا الإنسان الذى جنى على فتاة مسكينة بانه أضاع عليها فرصة الزواج من غيره بل كان يعتدى عليها بالضرب المبرح فاضطرت أن تشكو لأبيها.. وذهب أباها مع اولاد عمها إلى منزلها ليعاتبوه على هذا الضرب المبرح فأدعى بأنه تنتابه حالة نفسية لا يعرف أى تفسير لها.. فأخذ الأب ابنته معه وعاد بها إلى منزله.. وواتته فرصة الهرب من الموقف عندما وجد إسمه ضمن المدرسين المعارين إلى السودان وهرب إلى هناك ولم يدخل مصر طوال فترة الخمس سنوات الماضية.. وهم لا يعرفون عنوانه واصبحت معلقة كالبيت الوقف.. وتعاطفت مع هذه القضية خصوصا ان بطلتها ضحية فى المجتمع، والجانى فيها إنسان لا أخلاق ولا ضمير له.. وقد كسبت القضية من اول جلسة

لاننى احضرت من ادارة الجوازات والهجرة ما يثبت بأنه لم يدخل مصر طوال الخمس أعوام الماضية وهذا يعنى ايذائها بهجرها.. إن هناك ضحايا كثيرون يتحملون فى صمت "ظلم الإنسان لاخيه الإنسان" وذهبت إلى البطريركية أعرض قضية أنجيل .. وكالعادة فى كل مكان.. هناك أناس يعقدون الموضوعات وهناك أناس أنار الله بصيرتهم فيحسون بآلام الآخرين وهؤلاء ساعدونا فى إعطائنا الورقة التى تثبت عدم إعتراض الكنيسة على الطلاق وبذلك تستطيع أنجيل أن تتزوج وفقا للشعائر الكنسية بالاضافة إلى القواعد المدنية.

أن أنجيل هى صورة الزوجة المثالية الصبورة والتى تخاف الله فى كل تصرفاتها وتتمتع أيضاً بالجمال الهادئ ولكنه الجمال الممزوج بالحزن والأسى وتحسنت حالة انجيل النفسية بعد حصولها على الطلاق والتخلص من هذا المجرم.. فقد دمر حياتها وكان الأجدر به الا يعرض مستقبل فتاة بريئة للخطر ويجعلها تعيش فى تعاسة.. يجب أن تحمى الدولة الفتيات من أمثال هؤلاء المجرمين.. ويجب أن يصدر قانون بضرورة تقديم شهادة طبية معتمدة إلى المأذون أو إلى الكاهن.. وهذه الشهادة تبين عدم وجود عوائق للانجاب أو أمراض وراثية خطيرة كالسكر مثلا.. بل يجب أن تقوم المستشفيات العامة بعمل فحص شامل بأجر رمزى مرة كل عام وذلك حماية لصحة الإنسان. وما يدفعنى إلى هذا الاقتراح هو اننى لا استطيع أن أنسى ما حدث ليلة أمس لأختى سنية.. فقد تعبت جدا وأتصل بى زوجها مسعد يطلب منى الذهاب معهم بسيارتى إلى المستشفى لكى يعرف سبب تعبها وآلامها الشديدة فى الصدر.. وقام دكتور الاشعة بعمل أشعة على الصدر واكتشف وجود أورام على الرئة.. وحجزنا لها غرفة فى المستشفى ليستكملوا عمل الفحوص اللازمة حتى يتأكدوا اذا كان الورم حميدا أم خبيثا. لو كان هناك كشفا دوريا لأمكننا معالجة حالتها فى بدايتها.

كانت الآلام مبرحة وكان مسعد مضطربا جدا وقال وهو متضايق:

– مين يا سنية حايرعى أولادك الاثنين.. دول لسه أطفال.

– اللى خلقنا ما ينساش .. ربنا عنده الشفا يا مسعد.

وبعد تحليل العينة اتضح انه مرض خبيث.. وبدأ العلاج الكيماوى.. ونحن لا نملك الا الصلاة لها .. ليرفع الله عنها الألم والمعاناة.. وبدأ العلاج واستجاب

المرض للعلاج فتحسنت حالتها ونصحها الطبيب بعدم الاهمال بل تستمر تحت الاشراف والمتابعة.. اننا نحس بالرهبة أمام المرض.. والمرض والضيقات تجعلنا نفكر فى الخير وفى إرضاء الله خالقنا.. أى أننا نكون راغبين فى أن يسمع الله تضرعاتنا وصلواتنا.. وقال مسعد بانه سيواظب على دفع العشور ويدفعها للمرضى بالذات فالفقير قد يتحمل الجوع أو يأكل أكل بسيط وليكن خبز وملح أو جبنة ولكن المريض لا يستطيع أن يتحمل آلام المرض بدون علاج.. وقررت أنا أيضاً ان أواظب على دفع العشور بل قررت أن أعطى للفقراء جزءاً من خدماتى فقررت تخصيص يوم لقضايا الفقراء الذين لا يستطيعون دفع مصاريف المحامى وبذلك تضيع حقوقهم.

وانضم إلى مجموعتنا شاب يعمل صحفى وهو من قنا ويدعى سليم ووالده صديق عزت بك وقد تقابلنا عدة مرات فى شقة عزت بك وكان نقاشا أشبه بندوة فكرية واتفقنا أن نتقابل الجمعة الاولى من كل شهر وتكون جلساتنا فى شقة عزت بك لانها متسعه لانها فى حقيقة الامر شقتين متصلتين ببعضهما.. ولما كانت أول ندوة فى سبتمبر عام ٨٠ فجعلنا المناقشات تدور فى ذكرى رحيل عبد الناصر وبدأ عزت بك الحديث.. وهذا عرض للحديث بأكمله:

عزت بك : فات عشر سنين بالضبط على رحيل عبد الناصر.. إيه التغيرات إلى حصلت فى الفترة دى؟

سليم : من ناحية الامجاد والا السلبيات؟

سعيد : طبعا الاثنين.. الأمجاد هى إسترداد كرامتنا.. وغسلنا عار النكسة. وعبرنا إلى سيناء.. وأيدينا بدينا فى طريق السلام.. والانتفاضة الشعبية طبعا.

عزت بك : اشمعنى مهتم قوى بالانتفاضة.. دم مجرد فوران دم.

سعيد : لا.. دى هى تعبير عن إلى بيدور فى النفوس بصوت عالى.. والحكومة خافت من صرخة الجماهير وتراجعت فورا.

سليم : وهى يعنى الاسعار مش بتغلى؟

عزت بك : هى بتغلى بعقل؟ .. دى الاسعار قفزت.. خصوصا أسعار الأراضى وده حا يأثر على مشكلة الاسكان.

سليم : أنا كشاب بأحس بأن الدنيا اظلمت فى وشى.. ازاى أقدر اتجوز؟ ازاى حاأقدر امتلك شقة أو حتى أؤجرها؟ ازاى أقدر افتح بيت؟ ازاى اقدر أطفو على وش الدنيا؟

سعيد : مانقدرش نحمل فترة معينة أسباب كل المشاكل دى.. دى جت نتيجة تراكمات تمتد إلى ساعة تخفيض ايجارات المساكن.. وكمان الحروب اللى دمرت معظم اقتصادنا وعطلت التنمية.

عزت بك : هو سليم بيتكلم برؤية شاب فتح عينيه على الدنيا ووجد كل المشاكل دى قدامه.

سعيد : وحضرتك يا عزت بك فتحت عينيك على الدنيا لقيت البلد بيحتلها الانجليز وفى صراع مع الاستعمار والصهيونية.. مش كده برضه؟

سليم : ما تجاوبوا على اسئلتى الأول – وبعدين ارجعوا بينا للماضى.

عزت بك : ما الحاضر ابن الماضى .. والمستقبل ابن الحاضر.. دى حياة أمه.. مش مجرد مشكلة بتقابل شخص معين فى ظروف معينة.

سعيد : أنا ما أحبش القى اللوم مثلا على الحكومة وبس.. ما الحكومة ما هى من الشعب.. احنا لازم نتناول التغيرات اللى حصلت بين فئات معينة.

سليم : هو بصراحة الفساد زاد قوى.. والغلا زاد قوى.. وإحنا اتغشينا فى امريكا اللى وعدتنا بالرفاهية والرخاء.

عزت بك : السياسة مصالح مشتركة .. مافيش حاجة بتتعمل عشان سواد عيونك والناس هى اللى بتفسر حاجات غلط.. إفتكرت ان زيارة نيكسون حاتحل كل مشاكلنا الاقتصادية.. ده فيه الناس كمان فاكرين أن معاهدة السلام حاتخلينا سمن على عسل مع اسرائيل.

سعيد : أنا شخصيا مش متفائل قوى بخصوص السلام.. لأنه ترك شرخ عميق فى معبد الوحدة العربية.. والرؤيا المستقبلية مش واضحة.

سليم : وهى يعنى الرؤيا المستقبلية واضحة داخل المجتمع؟

سعيد : عندك حق.. ده فيه خطر حقيقى موجود.. الخطر بيهدد الامن والامان داخل مصر.

سعيد : عشان نعمل تنمية اقتصادية لازم يكون فيه استقرار وسلام وامان .. عشان تنشط السياحة لازم ضيوف مصر يحسوا بالامان .. عشان مستثمر اجنبى يجيلك.. لازم يحس أن فلوسه ومشروعاته فى أمان.

سليم : هم فين المستثمرين الحقيقيين؟ دول معظمهم عايزين يعملوا مصانع لبان وحلويات وفنضام وشيكولاته.. يعنى كلها سلع استهلاكية.. فين المشروعات الانتاجية زى مصنع الحديد والصلب ومصانع الالمونيوم؟

عزت بك : يا سليم يابنى.. المستثمر ده جاى يحقق مكسب شخصى.. يهمة فى إيه انه يساعد فى "البنية الاساسية"؟

سعيد : مضبوط كده.. لازم نعتمد على جهودنا الذاتية.. ونجيب قروض للمشروعات الإنتاجية فقط.

سليم : وليه شبابنا إلى بيشتغلوا فى الدول العربية مايشاركوش فى التنمية بالدولارات اللى معاهم والمكاسب إلى حاترجعلهم حاتبقى رجعت البلد كمان.

سعيد : مضبوط كده يا سليم.. أهو ده نوع التفكير إلى أحنا عايزينه من شبابنا ومن أصحاب رؤوس الاموال من المصريين الوطنيين.

سليم : ايه رأيك يا استاذ سعيد انك تكتب مقالات وحأنشرها لك فى مجلتنا الصغيرة.. وهى بتعتبر من صحف المعارضة.. هى اسمها لسة مش مشهور وهو "الغد" لكن لو الكل ساهم بافكاره ونشاطه حايبقى الغد مشرق إن شاء الله.

واستمرت اجتماعتنا الاسبوعية على هذا المنوال وكتبت مقالات تتناول نواحى القصور فى المجتمع ونشرها سليم فعلا.. وأتمنى أن يأتى اليوم الذى نجد فيه افكارنا ودراساتنا لظروفنا ومشاكلنا تترجم إلى اعمال بناءه فهذا هو طريق البناء للغد.. فهذه بلدنا ولن ننتظر ان يأتى آخرون ويبنونها لنا.. انه دورنا جميعاً أن نبنى بلدنا ونضمد جراحنا ونسدد ديوننا ونصلح ما افسده الدهر ونقوم بترميم الشروخ حتى تصبح مؤسساتنا سليمة وقوية وتؤدى دورها فى حماية البلاد وحماية أرواح الناس وضمان فرص العمل لابنائنا ومساعدتهم للتغلب على

مشاكلهم حتى يستطيعوا أن يحققوا ذاتهم.. اننى أجد أن واجبى كمصرى يحتم على أن أكتب عن مشاكلنا الفعلية ولا انسى مقالات "لصوص الانفتاح" و"الضباب" و"الزحام" "ومافيا الاراضى" التى سببت لى متاعب مع النيابة التى استجوبتنى بسببهم وامسكت قلمى وسجلت هذه الخواطر:

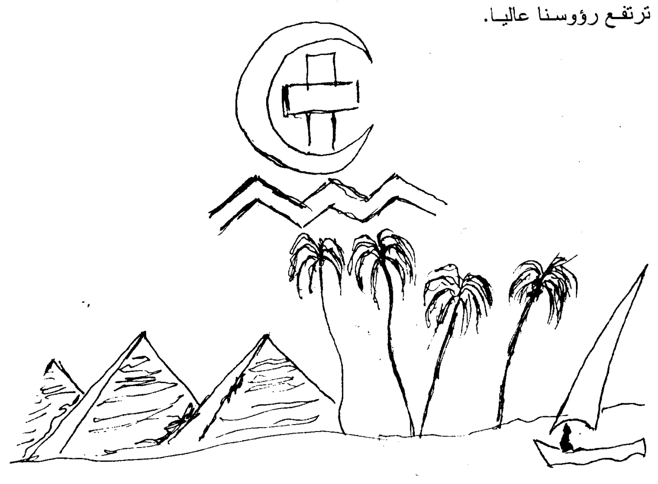
اخشى هذا اليوم

اخشى هذا اليوم الذى يعلو فيه السيف على كلمة الحق
اخشى هذا اليوم الذى ستقدم فيه الحريات بخورا لثور الظلم
اخشى هذا اليوم الذى سيقتل فيه قايين اخيه هابيل
اخشى هذا اليوم الذى ستظلم فيه الدنيا بعد اختفاء الديمقراطية
اخشى هذا اليوم الذى يمجد فيه عبدة الشيطان ابليس بدلا من الخالق عز وجل
اخشى هذا اليوم الذى يختلط فيه الحابل بالنابل ويتغنى الناس بالنار والقتل والتشريد
اخشى هذا اليوم عندما يذبح الناس قربانا للطغيان
اخشى هذا اليوم عندما تسود فيه معاول الهدم
اخشى هذا اليوم الذى ظهر فيه نيرون الجديد يغنى على أطلال حضارتنا بعد حرقها بيد مصاصى الدماء. اخشى هذا اليوم الذى يصل فيه الغوغاء إلى كرسى الحكم
اخشى هذا اليوم الذى لا يسمع فيه صوت الحق بل أنين وتوجعات المستضعفين

اخشى هذا اليوم الذى لا تشرق فيه الشمس بعد أن ملئه الظلام وزبانية جهنم وتراكمت السحب القاتمة عندما ظهرت العصبية على رئيس الجمهورية فى تعاملة مع الناس الذين هم رعاياه، وقد انتخب رئيسا لهم لكى يرعى مصالحهم ويقال له مثلما كنا نقول عن عبد الناصر: "ريسنا ملاح ومعدينا" بل زاد توتر اعصابه واصبح يستخدم اسلوب التهديد.. وأصبح يتندر الناس على استخدامه لكلمة د أنا "أفرمه" عندما يتكلم عن أحد معارضيه بعد أن كان يقول فى بداية حُكمه "الشعب هو المعلم" وفى مظاهرة مايو ١٩٧١ عندما قضى على مراكز القوى أعلن بأنه لا يسمح لأحد أن يتجسس على الشعب بل يجب أن يتمتع الناس بكل الحريات حتى امريكا فلم يعد يثق فيها بل كان يردد أن هناك مؤمرة ضدى فى امريكا.. وبعد عودته من أخر زيارة له لامريكا كان يحس بالمرارة بسبب

المظاهرات ضده من المصريين المغتربين فقام بأكبر حملة اعتقالات للسياسيين ولكل معارضيه ووضعهم كلهم فى سلة واحدة داخل السجن.. وبدأ القبض على اعدائه يوم الخميس ٣ سبتمبر وانا المواطن البسيط الذى عبرت عما يجيش فى صدرى وطالبت بالعمل على ترميم الشروخ التى تهدد المعبد وجدت نفسى داخل جدران السجن مع آلاف غيرى.

وأعلن السادات فى مجلس الشعب يوم السبت ٥ سبتمبر قراراته الغاضبة.. وفى السجن بلغنى خبر اطلاق النار على صموئيل فى اسيوط وانهم نقلوه إلى العناية المركزة بالمستشفى واحسست بآلامه وتمنيت أن أخرج أطمئن عليه وأطمئن على حال "وفاء" وبعد شهر ويوم واحد من قراراته الغاضبه سقط السادات صريعا على المنصة بينما كان يستعرض قواته المسلحة يوم ٦ أكتوبر.. وهو ذكرى اليوم الخالد الذى فيه عبرت قواتنا القناة وحطمت خط بارليف لكى ترتفع رؤوسنا عاليا.



الفصل السادس والأخير

ماذا لو فقد الإنسان عقله ؟

بالرغم من الشعور بالمرارة وأنا فى المعتقل، إلا أننى استمتعت بلقاء رجال فكر وأصحاب مبادئ تمسكوا بها، ولم يتراجعوا عنها رغم الحجر على حريتهم، ومصر التى أخرجت العباقرة الذى شيدوا صروح الحضارة منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، لم تتوقف عن ذلك حتى فى عصور الظلم والطغيان.. وكان النقاش المثمر هو غذاؤنا الروحى.

إن وجود المعتقلين داخل أسوار السجن تعنى أن ابناء مصر لا يرضوا أن يقفوا متفرجين وهم يشاهدون التغيرات التى تحدث على أرض الوطن.. خصوصاً تلك التغيرات التى تهدد الروابط الإجتماعية والروابط الأسرية والعقيدة والتدين.

إذا حدثت فوضى فكرية كوليدة للفوضى الاقتصادية والفوضى الاجتماعية فلابد من التصدى لها.

لقد كان "سليم" ملازماً لى فى نفس العنبر.. وكان تعليقه الطريف "ثورة الغضب جمعت الأحباب وأعطيتهم الفرصة بأن يجتمعوا سوياً بصفة مستمرة وكأنهم فى دورة تدريبية أو فى معسكر عمل.. والموضوع المشترك بينهم هو مستقبل مصر مع وجود أعداء يتربصون بها.. أعداء فى الخارج وأعداء فى الداخل.. أى وجود الأخطار الخارجية والأخطار الداخلية.." إن وجود هذا العدد الهائل من المعارضين لما يحدث بالبلاد وما يتهدد مستقبل البلاد هو دليل واضح أن هناك الكثيرون من ابناء مصر يرفضون الصمت ويرفضون موقف المتفرج السلبى.. واصروا أن يقولوا كلمتهم. وللحقيقة... إن أبناء مصر من المحققين لم يمارسوا أى نوع من الضغط على أصحاب الكلمة وأنا شخصياً أحسست بأن المحقق يؤدى واجبه فقط بدون حماس.. فالمقالات التى بين يديه ليس فيها صورة لانتماء حزبى مضاد ولا لانتماء لجماعات التخريب.. ولذلك كانت اسئلته تتردد حول فقرة معينة "ماذا تعنى بصور الظلم والطغيان؟" "ماذا تعنى بانحراف الفكر والمبادئ؟" "ماذا تعنى بالفوضى الفكرية؟" "ماذا تقصد بفصل الدين عن

السياسة؟" وعندما كنت أرد بأن أى مثقف يعرف ما كتبه أفلاطون وغيره من المفكرين العالميين.. وأن الظلم والطغيان ملازمان لوجود الإنسان فى دولة فيها حاكم ومحكوم" أحضر المقال أمامى وسألنى عن المقصود بالطوفان المدمر؟ فطلبت منه أن أعيد قراءة المقالة بالكامل لأننى كتبت مقالات عديدة.. وإعادة قراءتها سيتيح لى فرصة الرد التفصيلى على كل سؤال يوجه إلى وأمسكت المقالة وأعدت قراءتها :

"الطوفان المدمر"

"إن أسوأ شرخ هو ذلك الذى يهدد كيان الإنسان والذى يهدد أمنه الجسمانى وأمنه العقائدى.. فشرخ فى الأسرة يهدد بضياع الأسرة وقد يتسبب فى أن يجعل الأسرة تعيش فى العراء وتفقد المعنى المعروف عن البيت وهو أن "البيت هو القلعة" التى نحتمى فيها من غدر الناس ومن تهديد الأخطار – أى انه الأمن الجسمانى.. وقد يظهر الشرخ فى المجتمع فى عدة صور منها الظلم والطغيان ومنها فقد الأمن من ناحية الدخل (مثل فقدان الوظيفة أو إغلاق محل يتكسب منه الشخص لقمة عيشه) وقد يصل فقدان الأمان إلى درجة الطرد من مكان لأخر عندما تتعرض بعض المناطق لغزو خارجى أو لكارثة طبيعية مثل السيول والزلازل.. وقد يصل الأمر إلى تهديد حياة الأفراد بتعرضهم لغارات جوية أو قصف مدفعى أو صاروخى.. ولكن معظم هذه القلاقل وقتية.

أما أخطر الشروخ فهى تلك التى تمس العقيدة الدينية، فعلى مر السنين وحتى فى ايام القهر والبطش والظلم كان يعرف الناس بأن هناك جنة ستعوضهم عن معاناتهم فى أرض المتاعب، وأن هناك خلود للروح فلا يهمهم ما يتعرض له الجسد، ويرددون ما تعلموه "لاتخافوا من الذين يقتلون الجسد بل خافوا من الذى يلقى بالجسد والروح كلاهما فى جهنم" والآن بعد انحراف الفكر والمبادئ ومع تشعب سرطان الفوضى الفكرية ظهرت جماعات كثيرة ومختلفة تبث أفكاراً غريبة وهذه الافكار ما هى إلا تفسيرات لأشخاص متشددين لايعرفون النقاش ولا الإقناع ولا الإقتناع بل ينشرون كتباً تحت مسمى "كتب دينية" ومن سلوكهم ومن الأفكار المعروضة فى هذه الكتب نجد أنهم يشوهون صورة الله سبحانه وتعالى.. الخالق الأعظم.. ويجب ألف مرة أن يتصدى لهذه الكتب (وما يتبعها من سلوكيات المخربين) رجال الفكر والدين وعلى رأسهم علماء الأزهر الشريف لأنهم

يطبعون هذه الكتب وينسبوها خطأ إلى الفكر الإسلامى.. فعلى مر العصور كان هناك التشبيه الهام لصورتين مختلفتين متضادتين لأن صورة إله الخير تختلف عن صورة إله الشر. فإله الخير (وهو الله سبحانه وتعالى والذى نعبده جميعاً وإليه نرجع فى الآخرة) هو الذى يرزقنا ويحمينا ويحبنا كبشر لأننا من صنع يديه ونحن نصلى إليه ونتضرع إليه فهو ملجأنا وهو خالقنا وهو الديان الأعظم لأننا نقف أمامه وهو المحب العادل يكافئ الأبرار ويضع الخطاة فى المكان الذى يستحقونه ولأنه عطوف وهو الله فإنه يعطى الفرصة للخطاة لكى يتوبوا ويعودوا إليه.

أما إله الشر مثلما كانت تطلق الناس عليه هذه التسمية فى الأزمنة القديمة فى كل الديانات التى ظهرت على سطح الأرض.. أو كما نطلق نحن عليه اسم "الشيطان" أو "ابليس" أو "عدو الخير".. فإن لذته تكمن فى الغواية وفى دفع الإنسان إلى الخطيئة وذلك لكى يجره معه إلى الهاوية والجحيم.. وعندما نقارن بين بعض الصفات التى تربط بإله الخير (الله سبحانه وتعالى) فإننا نجد "الرحمن – الرحيم – العادل – الحامى – مالك يوم الدين – الذى يحب البشر".. أما الأعمال التى ترتبط بإله الشر "الشيطان الرجيم" فهى القتل والتدمير والخراب والخطيئة ومعصية الله سبحانه وتعالى وترتبط به ايضاً كافة الشروط الأخرى من طمع وجشع ونميمة واغتيال وسرقة وتزوير وشهادة زور وسلب الحقوق.. الله سبحانه وتعالى يرزق وجماعات التخريب تحارب الناس فى أرزاقهم.. الله يهب الحياة وهم يزهقون الحياة.. ولو كانت هذه هى مهمتهم فى الحياة فهل استغنى الله الخالق عن عزرائيل؟ حاشا لله.. أنه هو الذى يحيى ويميت وهو الوهاب الجبار.. من أعطى شباب لم يتخطوا مرحلة المراهقة إلا بعدد قليل من السنين الحق فى إصدار أحكام وتنفيذها فى رجل وقور يفيض علما ومعرفة.. أن صورة الشيخ محمد الذهبى لن تفارق مخيلتنا ونحن نتذكر بأن الرجل عرف ما ينوونه من شر له فقال لبنته أن تصرخ.. أن تستنجد بالناس لحمايته من ايدى السفاكين أصبح العنف هو السمة الغالبة على تصرفاتهم وإذا عدنا لكلام افلاطون عن تقسيمه للناس إلى حكماء وقوة غضبية وغوغاء فإننا نجد أن عنصر الحكمة انتفى.. هل ترويع الناس الآمنين هو الطريق إلى السلطة؟ لو تخيلنا أن هؤلاء الشباب وهم أنفسهم ضحايا المجتمع وضحايا التربية الخاطئة وهم أنفسهم تربوا

على الحرمان والعنف فكيف نتوقع منهم أن يتصرفوا بغير العنف؟ إن هؤلاء الخراف الضالة محتاجين لمن ينقذهم.. إن المجرمين الحقيقين هم السياسيون الذين اتخذوا من الدين مطيه.. وهناك إختلاف كبير بين الدين والسياسة.. فالدين هو نور لنا يرشدنا إلى الطريق الخير والبناء ويجعل الضمير يقظاً وهو العطاء والطريق إلى الله والمحبة.. والدين له قدسيته داخل نفوسنا وغير قابل للتطويع لأهداف غير إنسانية.. أما السياسة فهى لعبة قذرة لها قواعدها ولها طرقها ولها خداعها وتتغير بتغير الظروف والأشخاص.. كلام الدين قضية مسلم بها أما كلام السياسة فمتغير باستمرار فكيف نضع الثابت والمتغير فى قارب واحد!!."

وأجبت على كافة الاسئلة التى وجُهت الى، ولم يجد المحقق أى جملة توقعنى فى المحظور.. فكلامى ليس سب أو تجريح لأى شخص أو أى مسئول.. إننى أتحدث عن الشروخ.. وواضح أن المقصود من استخدام لفظ شروخ تعنى التنبيه إلى وجود خطر ولكنها لا تعنى الانهيار والدمار.. وواضح ايضاً أن المقصود هو تحفيز المجتمع لإصلاح الثغرات لكى نعالج الشروخ فيبقى البنيان قوياً.. وهذا ما يتمناه أى مواطن يحب بلده ويحب ابناء بلده حتى لايتعرض الأمن الجسمانى والأمن العقائدى لأى تهديد.

أما عن وجود هذا الكم الهائل من الكتب التى تدور حول التفسيرات الأصولية والتى لاتقبل المناقشة بل تردد أقوال محددة متزمته وتضفى على نفسها صفة الكتب الدينية لتوهم الناس بقدسيتها ولا تسمح بمعارضة ما جاء بها من أقوال فإنها نوع من الحجر على الفكر الحر. وخطورة وجود أمثال تلك الكتب بين يدى الشباب وبين غير المتعلمين هى أنها تعرض فكر سياسى متزمت يدعو الإنسان إلى أعمال الخير وإلى يقظة الضمير وإلى حب البشر وحب العطاء والبناء، فحتى المخطئ لديه الطريق إلى التوبة ليعود إلى حظيرة الإيمان فى حين أن الفكر السياسى وخصوصاً المتزمت يدعو إلى أفعال عنيفة وأعمال إجرامية تحول الشباب إلى معاول هدم لا إلى قوة بناءة فى المجتمع.

وبعد خروجى من السجن لأننى لم اشترك فى أى عمل اجرامى ولم تديننى النيابة التى قامت بالتحقيق مع كل من شملهم قرار الغضب يوم ٥ ستمبر فقد تم الإفراج عنا.. وتخيلت الموقف لو لم ينقذنا الله بانتهاء ثورة الغضب ولو لم يتسلم الحكم أناس يطبقون

القانون.. وتخيلت الموقف لو كان هؤلاء الذين اختطفوا الشيخ محمد الذهبى وازهقوا روحه وهو اعزل من السلاح وعاجز عن الدفاع عن نفسه هم أنفسهم الجلادون لنا.. بالقطع كان سيكون مصيرنا هو نفس مصير الشيخ الطيب الوقور.. إن ظاهرة العنف مع وجود الإنحراف الفكرى هو الخطر الذى يتربص بالمجتمع... أيها الآباء.. أرعوا الله وضميركم فى تربية أولادكم وصونوهم من الوقوع بين أيدى المخربين.. أيها المدرسون.. واجبكم بل ورسالتكم هى تنشئة أولادنا.. فلا تربوهم على العنف.. بل علموهم كيف يناقشواوكيف يختاروا القرار بعد التفكير فيه.. علموهم كيف يفكرون بتعقل.. وكيف يعرفون الفرق بين الصواب والخطأ والخير والشر.. أما ترك هؤلاء الشباب الذين تنجرف أقدامهم إلى طريق الشر ويحدث لهم "غسيل مخ" فأنهن يتعودون أن يطيعوا طاعة عمياء وبعد أن يتورطوا فى أعمال إجرامية لايستطيعون التراجع وبذلك نفقد نحن بعض من شبابنا.. بل والخطر أنهم يتحولون إلى معاول هدم.

زارنى الكثير من الأصدقاء والمَعارف وكان تعليق عبد العزيز عمرو بأننى دخلت السجن لأننى كتبت بعض المقالات ونصحنى أن أعيد حساباتى حتى لا أتعرض لهذا الموقف مرة اخرى.. فقلت له بأننى سعيد أننى قابلت رجال الفكر داخل السوار وتعلمت منهم أكثر أن سلبيتنا هى التى اوصلتنا لهذا الموقف.. إن المشاكل الداخلية محتاجة منا إلى إقتحامها والتغلب عليها.. إننا محتاجون للعبور من التخلف والجهل إلى النور والتنوير.. كفانا تصفيق وطبل وزمر..

إن أولادنا يتوقعون منا ألا نترك لهم تراسبات الماضى.. هناك فارق بين أب يترك لأولاده مايساعدهم على العيش الكريم وأب يترك أولاده تستجدى وقد تقع فى أيدى المنحرفين الذين لايرحمون.. إن علينا واجب ثقيل ولكنه ضرورى ولايحتاج للتأخير.. يجب أن نرمم الشروخ لكى يسترد المعبد قوته وصلابته.. إذا أردنا نواب يتحدثون بإسمنا فى المجالس النيابية ويقومون بدراسة التشريعات قبل إصدارها فيجب ان نختار من يصلح لذلك.. وألا نختار المهرجين الذين يتقنون كلمات المديح والتملق والوصولية كفانا طبل وزمر وعلينا أن نبنى ونعمر ماقد افسده الدهر.. انتهى وقت الخمر وهناك اليوم أمر..

ذهبت مع سامى لزيارة صموئيل فى المستشفى ووجدته بدأ يمتثل للشفاء ولكنه فقد الرئة المصابة ويعرج على القدم اليسرى.. وشكرنى على إهتمامى بزيارته وقابلت الاستاذ عبد الله وطلب منى تحديد موعد للمقابلة بخصوص أعماله وقابلت وفاء التى ظهر عليها الحزن والإرهاق وبادرتنى بجملة لها معنى عندى :

– ياترى اللى صوب الرصاص عليه أدرك إنه حايتسبب فى أن طفلين يطلعوا يتامى وأمهم تبقى أرملة؟

– نشكر الله أنه حافظ لك على جوزك.. وهى تجربة قاسية.

– وأى تجربة؟ أنا حياتى كلها تجارب.. حياتى وأنا طفلة وحياتى وأنا شابه.. ولما ربنا والحمد لله يعوضنى بزوج صالح.. استكتروا ده على؟

– كلنا معرضين لأى حاجة.. حتى على السرير فيه ناس بيجيلها مرض وماتعرفش سببه وتنهدت وقلت لها :

– بالمناسبة.. عرفتى مرض سنية أختى؟

وأخذت أحكى لهم عن تجربة أختى مع السرطان والآلام المبرحة التى تعانيها.. وها هى تصاب بمرض خطير.. وكان صموئيل يتتبع باهتمام وهز رأسه وتنهد وقال :

– وهو الإنسان يملك إيه يأستاذ سعيد.. أدينى أنا أُصبت بثلاث رصاصات والحمد لله قدّر ولطف.. وآدى أختك تعانى من مرض خطير.

– وبلدنا بتعانى من سرطان العنف.. وإن ماكانش كلنا حانتصدى له فمستقبلنا ومستقبل أولادنا حايكون فى خبر كان.

– تعرف لما مسكوا الجانى.. ماكانش عارف يقول هو كان عايز يقتلنى ليه.

– إزاى؟ ماعرفش هدفه إيه من الجريمة؟

– هى عصابة عادية.. وماشية تبع موجه العنف.. وبيقلدوا غيرهم.. يبعتولك جواب مع فلاح بسيط وماهواش منهم.. وألذ حاجة بيقولولى إدفع الجزية!!

– وتدفع الجزية لمين؟ هم طلعوا قوانين من خيالهم؟.. طب حتى لما حاتدفع تدفع للحكومة يعنى للسلطة الحاكمة مش لقُطّاع الطرق.

– مش بأقولك إن فيه ناس ركبت الموجة.. ماهو كل كام سنة تظهر حاجة.. أبوى الله يرحمه كان بيحكيلى على عصابة "الخُطْ" وقبله كان فيه عصابات باسماء مختلفة.

– عرفوا يقبضوا على أعوان المجرم؟

– الجانى مايعرفش حد منهـم.. دول عـاملين تنظيـم بحيث معظمهـم مـايعرفش بعض يعنى واحد بيصدر الأمر.. وواحد ينفذ وهو مايعرفش مين الأمير بتـاعهم.. ماشـيين علـى نظام الخلايا والعنقود زى ما الضباط قالى.

واثناء عودتى بالديزل من اسيوط أخذت استرجع كلام كثير سمعته.. واول جملـة هـى "ربنا عوضنى بزوج صــالح" فهذه إشـارة مباشـرة لـى بأنهـا تعـتز بزوجهـا الـذى عاملهـا معاملة طيبة ونفس الزوج عوضها عن التجربة التى مرت بها وهى طفلـة وهـى انفصـال الأب عن الأم وأنا الآن لدى تخيل كامل لكل شئ فقد أخبرنى الأستاذ عبـد اللـه بمـا حـدث بينه وبين زوجته وأعترف بأن وفاء كانت الضحية.. وأعتقد أننى جزء من تجربتها وهـى شابة.. فقد كانت وقتها فى صراعات عدة.. وكانت ثقتها بالناس عموماً وبالرجـال خاصـة شبه معدومة.. وكان صموئيل هو هذا الرجل الصالح الذى أهتـم بهـا وداب علـى علاجهـا النفسى واستردت ثقتهـا بالنـاس.. وعاشـت كزوجـة متعاونـة مخلصـة وأنـا استمر خيـالى مريض بل إننى كنت أتفنـن فـى عقلـى البـاطن فـى أن أُشـعرها بأنهـا خسـرتنى واكتشـف الأستاذ عبد الله بخبرته وصدق حدسه بما كنت أقصد من وراء رغبتى فى خطوبـة أخـت صموئيل وهى نرجس.. وألهمه الله أن يتصرف بسرعة وأنقذ سعادة ابنته وأنقذنى أنا بألا أكون الشيطان الذى يعكر صفو الأسر السعيدة.. أنا فعلاً محتاج لوقفة مع النفس لإكتشـف ما بداخلى.. فأنا ضعيف أمام الإغراءات.. رفعت أغرانى بالسير فى طريق تكويـن المـال ولكن على حساب الأخلاق والضمير. صافيناز كشفت عن رغبتى فى العيـش فـى رفاهيـة وفى المتع الحسية.. ولا ألومها هى.. بل ألوم نفسى فمـاذا كـان وضعـى معهـا.. قطعـاً لا أُمثل زوج بتاتاً بل رغبة طارئة وشهوة عارضة وأنـا لـم أحـس بكيـانى كإنسـان لـه ذاتيـة واستقلاله بل علمت فيما بعد بأننى كنت كوبرى بالنسبة لها لكى تغيظ حبيبها الذى تبـاطئ فى طلب يدها.. ولكن عندما عذبته وأثارت غيرته.. كان يسعى لاهثاً وراءها وهى كـانت تعرف أن القرار فى يدهـا.. أقصد قرار إخراجـى مـن الفيـلا وإلقـائى بعيداً عـن حياتهـا

لتعيدنى للمياه التى تعودت العيش فيها.. وإذا وضعت الصورة الرومانسية فى قصتى مع وفاء والمتعة الجسدية مع صافيناز فإن هذا يبين الانفصام داخلى بين الروح والمادة.. فأنا محتاج لحب ناضج أى يجمع عنصرى العاطفة والجسد.. لقد تعذبت كثيراً.. وكما قال لى عبد العزيز عمرو بأن "مخى الصعيدى" هو الذى عذبنى.

وبعد أن إسترحت فى شقتى حوالى ساعى ذهبت لزيارة سنية لأطمئن عليها لقد كان من المنطق أن اذهب إليها هى أولاً لأنها تسكن بالقاهرة وذهبت أولاً لزيارة وداد وطبعاً عقلى الباطن هو الذى دفعنى لهذه الزياة لكى اقابل وفاء بعد خروجى من السجن.. إن الإنسان غريب فى تفكيره وفى تصرفاته.. كل منا له تفاهات يجرى وراءها ويعتقد بأنه يجرى وراء اشياء ثمينة.. وحتى حياتنا فهى تفاهة وهى سراب وكما يقول الحكماء "باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح" أو كما عبر عنها المازنى فى قصصه "حصاد الهشيم" إذا كانت الدنيا تافهة فلماذا نتكالب على العيش فيها؟ إنها حكمة الخالق لكى تعمر الدنيا.

وعندما جلست إلى مكتبى أمسكت بالقلم وقررت أن أكتب مقالة بعنوان "ماهو الهدف من الحياة" لكى أرسلة إلى سليم ونبدأ مرة أخرى نشر أفكارنا للناس.

"كل واحد يضع امامه هدف أو أمل ويسعى لتحقيقه.. وما يراه شخص بأنه هدف عظيم قد يراه الآخر بأنه هدف تافه.. وهذ الإختلاف فى الرؤيا وفى النظرة للحياة هو الذى جعل الحياة تدب على سطح الأرض.. والإنسان ذاته كتلة من المتناقضات.. ألم يُخلَق من تراب نفخ فيه الخالق الأعظم نسمة الحياة أى اعطاء روح لتصير نفساً حية.. وقال تكاثروا واملاؤوا الأرض".. وفعلاً تكاثر أولاد آدم وملئوا الأرض.. ملئوها بانماط مختلفة من الناس وملئوا خيراً وشراً وملئوها بنياناً وخراباً.. وحباً وكراهية.. وتعاون وفُرقة.. وسُمّو وضِعْه.. أليس الإنسان ذاته يجمع المتناقضات فى جسد واحد.. فالتراب نفسه مجموعة من العناصر المختلفة فيه المعدن الثمين والمعدن الخسيس.. والنفوس ذاتها مختلفة.. ويقولون عنها امارة بالسوء بمعنى أنها تميل إلى السوء ولكن الروح هى التى تدعو للسمو ولماذا أقول تدعو لأن المفروض أنها تعنى السمو ولكن هناك مع ذلك أرواحاً شريرة.. وتصرفات الإنسان متناقضة طبقاً لتناقض الدوافع والحوافز وطبقاً لتخبط الفكر وتضارب الاتجاهات والميول داخله طبقاً للظروف المحيطة به والعوامل المباشرة

المؤثرة فيه.. وليس هناك إنسان كله شراً أو كله خيراً.. ولكن الإنسان السوى هو هدفنا جميعاً لأننا نكره الانحراف نخاف من عبدة الشيطان ونخاف من العنف وجماعات الخراب والدمار.

من هو المسئول عن ضمان وجود الإنسان السوى؟ كلنا مسئولون فالأب مسئول والأخ مسئول والجار مسئول ورجال التربية مسئولون ورجال الدين مسئولون مسئولية مباشرة وكل العاملين فى كافة الأنشطة مسئولون.. فالقاضى العادل سيعطى الطمأنينة للإنسان لأن العدل يسود الأحكام إذن ماذا سيكون الحال إذا كان القاضى فى المحكمة أو رئيس العمل فى موقعه أو رجل البوليس فى القسم أو مأمور الضرائب فى عمله لايراعون العدل.. هنا مكمن الخطر.. والإصلاح لا يكون فقط فى التربية بل ايضاً فى القوانين وتطبيقها وفى حمايتها من المنحرفين.. إن الفساد الذى يستشرى فى موقع قد يؤثر على مواقع أخرى.. فمن هو المسئول عن حماية المجتمع من الفساد؟ أنهم الناس أنفسهم متمثلين فى رجال الصحافة الأمناء وفى رجال التشريع الحكماء وفى رجال التنفيذ المخلصين وفى رجال القضاء العادلين.. والقاضى ليس فقط الجالس على المنصة فى المحكمة بل كل إنسان له حق إصدار قرار.. فالرئيس الذى يظلم مرؤسيه هو قاضى غير عادل ورجل البوليس الذى يغمض عينه عن اللص فهو يساعده ويضيع حق المواطنين الذين وثقوا فيه.. وينطبق نفس الكلام على الطبيب والمهندس والعامل والفلاح ورجال الأعمال ورجال الصناعة وكل المشتركين فى الانتاج".

وقررت أن اذهب إلى قنا لزيارة عزت بك فى عزبته ولأقابل سليم لأننا لم نتقابل من أن خرجنا من المعتقل.. وسبب رغبتى فى الذهاب للصعيد هو رغبتى أن أعرف لماذا نجح المخربون فى اختيار أدوات تنفيذهم من شباب الصعيد وبالذات من الأسر المعدمه أو المفككة.. أريد ان أدرس الناس فى جنوب الوادى وأعيش حياتهم فترة إسبوع لزيارة عزت بك فى عزبته وستكون فرصة طيبة للتحدث مع سليم وعزت بك.. فليس معنى إعتقالى أنا وسليم أن نرفع الراية البيضاء ونهرب من مسئوليتنا كمواطنين يسلطون الاضوء على الانحرافات والسلبيات وكم كانت سعادة عزت بك وسليم بلقائى.. وكان الاسبوع مليئاً بالنشاط الثقافى والاجتماعى وبادرنى الأستاذ عزت بسؤالى :

– أنت عارف ليه أنا وجهت لك الدعوة ليه؟

فقلت مداعباً : عشان أعرف إن عندك عزبة وأتفرج عليها (فضحك وقال):

– أنا حأوريلك أنا عملت إيه من ساعة ما حطوك فى المعتقل أنت وسليم :

أولاً قلت ليه مانعملش حزب اجتماعى دائم لخدمة مصر؟

– ده عايز توضيح لأنه حاجة جديدة.

– الحزب الاجتماعى حايبتدى من القاعدة بمعنى إن كل قرية تَكوّن جماعة يحبوا يعطوا لقريتهم ولبلدهم ولأولاد قريتهم.

– ماهو ده اسمه خدمة عامة.. والناس الطيبين بتقوم بيها.. يعنى حاتلاقى أهل الخير اللى بيفتحوا ملجأ للأيتام.. واللى بيساعدوا الفقراء.

– ده كله كويس,, بس أنا عايز أن كل القرى المشتركة فى الحزب الاجتماعى أنها تكون على صلة ببعض وتنسق مع بعض.. وتدرس المشاكل الاجتماعية سوا.. ونحاول نحلها.

– بس مش شايف أن ده صعب؟

– رحلة الألف ميل بتبتدى بخطوة.. وأنا شخصياً بدأت أول خطوة.. وبأعمل ندوة أسبوعية بنتناقش فيها فى مشاكلنا فى القرية ومشاكل الشباب المصرى عامة ومشاكل المرأة الريفية.. وهكذا.

ياريت ينجح مشروعك ده فعلاً لأن ده نوع من تكوين رأى عام.. وممكن بكده نتصدى للفكر المنحرف.. ونصحح حاجات كثيرة غلط فى مجتمعنا.. وتأكد يأستاذ عزت أنا معاك فى فكرة "الحزب الاجتماعى" اللى يقدم خدمات للجميع.

– وفى نفس الوقت مالوش دعوة بالاختلافات الحزبية.. اللى ينضم لنا يعرف أننا مالناش دعوة بالاختلاف فى الفكر السياسى وألا الاختلاف فى الدين.. كلنا لازم نعمل من أجل مصر.. يعنى نعمل من أجل أولادنا.

وبعد هذه الزيارة الممتعة والتى عقدنا فيها ندوات تناولت النواحى الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والتربية، عدت للقاهرة وأنا فى غاية السعادة فمصر مليئة بأبنائها المخلصين والذين حافظوا على تراثها الوطنى الآف السنين سيحافظون على وطنهم

وتراثه على مدى الدهور المقبلة.. لقد أحسست بالسعادة لما أحسه بمعنى الاستقرار بين ابناء الريف بالذات فقد تعلموا أن الظالم يسلبهم جزء من محاصيلهم ولكن الأرض تستمر مخلصة لهم وتعطيهم.. والمستعمر يرحل.. وأهل البلاد يستمرون فى الانتاج.. والآن نحن أمام معركة التنمية ويجب أن ننجح فيها مثلما نجحنا فى عبور حاجز اليأس يوم عبرنا القناة وأستردينا أرض الوطن ولم يتبقى محتل منها ألا الفندق فى طابا وهناك المفاوضات والتحكيم الدولى بخصوصه.. وتحتاج التنمية إلى نفس عنصر الاستقرار السياسى والاقتصادى.. والحمد لله بدأت بوادر الاستقرار تظهر فى عودة العلاقات مع بعض الدول العربية بعد أن حدثت هزة فيها ونقلوا مقر الجامعة العربية إلى تونس بعد معاهدة كامب ديفيد.. وبدأ بناء المدن الصناعية الجديدة وهذه ستكون قلاع تفيد البلاد.. ونشطت حركة السياحة فى مصر بعد انتهاء الحروب ومع وجود السلام.

وحان الوقت بالنسبة لى أن استقر وأكّون أسرة.. والآن وقد أعدت توازنى النفسى فكرت أن أجد عروسة صالحة واقبلها مبدئياً ثم يأتى الحب تدريجيا وفجأة قفزت صورة أنجيل أمامى.. أنها صورة الزوجة الطيبة المثقفة غير المتعالية والمتدينة والصبورة على نوائب الزمن فقمت بزيارة منزلهم بعد أن أخذت موعداً مع والدها.. ورحب الأستاذ مرقس بى جداً وبعد التحدث عن الأحوال العامة فى البلاد والتحدث عن حالتها النفسية الآن تطرق كلامة إلى موضوع ارتباطها باحد من عدمه.. ولما كانت غير مرتبطة فاتحته فى رغبتى بالأقتران بها ورحب ولكنه قال إنه رجل عصرى يدرك بأن الموافقة لابد أن تأتى منها لأنها حياتها هى.. وقال بأنه فىّ مثل ثقته بأخيه لذلك إقترح أن أعزمها على كوب مانجو فى الكازينو وهناك آخذ رأيها ونبهنى ألا أنسى احتمال ترددها بسبب ظروفها القاسية التى مرت بها وشكرته على ثقته فىّ وإحترمت تفكيره وأستاذنته واصطحبت أنجيل إلى كازينو يطل على النيل.. وكانت سعيدة وهى فى السيارة معى وفى نفس الوقت مرتبكة.. وبعد جلوسنا صامتين حوالى ربع ساعة شربنا اثنائها المانجو ثم الشاى فسألتها :

– أنا يسعدنى أنى طلبت ايديك من بابا.. فياترى تقبلى أن أكون خطيبك؟

– أنا خايفة يا أستاذ سعيد أنك تيجى فى يوم وتقول.. "طب أنا ليه أخذت واحدة مطلقة"؟

– الطلاق مش وصمة عار يا أنجيل.. إلا لو كان الطلاق لعلة الزنى.. وأنا شخصياً عارف سبب الطلاق.. ومافيش حاجة تمس كيانك.

– أنا حاسة أن أنا عرفت حظى فى الدنيا وخلاص.. والناس مابتسكتش.

– وأنا فخور بيكى قدام الناس.. بإنك تعرضتى لتجربة قاسية وصمدتى.

– الحمد لله إن ربنا قوانى.. وكانت الصلاة هى العلاج لأى ضيق إعترانى (وتنهدت) إحنا حياتنا على الأرض كلها معاناه.. ياما ناس مرضى بأمراض مؤلمة وبيتحملوا.

– عندى أختى سنية مسكينة.. مرضها وحش.. وأهى بتتحمل.

– سلامتها ألف سلامة.

– الله يسلمك.. إذن أقوال لحماى العزيز بأنى حزت القبول؟

– أنت أى بنت تتمناك.. لأنك شاب مكافح.. وتقف جنب الفقير والمساكين اللى بيتعرضوا للوحوش المفترسة فى المجتمع.

وتم الزفاف.. واحسست بمعنى الإستقرار العائلى.. وكان أخبار الحمل هو موضوع الاهتمام لنا وكانت فرحتنا بأول طفلة فى عيد الربيع فأطلقنا عليها "عبير" تمشياً مع الفترة التى ولدت فيها.. وبدأت أحس بالدفء العاطفى واستمرت علاقاتى حسنة مع كل الاصدقاء.. ولم ينقطعوا عن زيارتى فحتى وفاء وصموئيل والأستاذ عبد الله حضروا حفل زفافى وهنأونى.. وسلمت وفاء على وهى تبتسم إبتسامة عريضة من كل قلبها وكأنها اصبحت فرداً من افراد العائلة.. وساعدت الأستاذ عبد الله فى شراء قطعة أرض فى المدينة الصناعية فى عشرة رمضان وانشأ مصنعاً صغيراً له واستقال من وظيفته الحكومية.. وعندما تم توقيع عقد الشراء مع هيئة المدن الجديدة تنهد بارتياح وقال :

– تعرف يا سعيد بأن دلوقتى مجهودى حايبقى لى ولأولادى.

– مانت طول عمرك سعيت لتكوين نقود لأولادك.

– لا.. أنا غلطت إنى ما استقلتش من زمان.. أنا غلطت إنى شاركت فاطمة وكان المكسب بالنص.. مع أنى باسافر المانيا وبأشوف احدث الماكينات.

– واشمعنى دلوقتى انفصلت عنها؟

– هو اللى عرفنى بفاطمة أخوها.. وده كان كاتب فى نفس الشركة اللى أنا كنت فيها.. وهو كان عارف إنى عايز اشتغل حاجة اضافية بعد الظهر.

– يعنى أخوها هو اللى عَرّفك بيها.. مش زى ماكانت المدام يعنى فاكرة..

– (فأبتسم وتنهد) مش بيقولوا ياما فى السجن مظاليم؟ دايما الستات مخهم بيوديهم بعيد.. والغيرة هى اكثر صفة عند الستات.

– معلش نعذرهم.. هم خايفين إن حد يهدد مستقبلهم الأُسرى.. هم عايزين يحسوا بالاستقرار.

– أولاً فاطمة دى عانس وفاتها خلاص القطار.. يعنى بصراحة وحشة بزيادة شوية.

– لكن أهى أفادتك إنك تحمى نفسك من الضرائب.. وفى نفس الوقت حافظت على وظيفتك.

– كتر خيرها.. مأنكرش فضلها.. وكنت موافق على النص لى والنص ليها وده منطقى.. فأنا بمجهودى وهى بأرضها.. لكن يجى أخوها يطمع وعايز القسمة على ثلاثة.

– بتاع إيه؟ وهى نفسها حاترفض.

– للأسف هى وافقت.. وأنا عارف أن النص بتاعها حاتاخده زى ماهو.. وفرق التلتين حاياخوهم أخوها.

– يمكن ربنا عايز يظهر طمعه فى الوقت ده عشان تأخذ قرارك بشراء أرض منفصلة.

– بالضبط.. والمصنع معفى عشر سنين من الضرائب.. فالحمد لله حأقدر أرتفع بانتاج المصنع بدون خوف من الضرايب.. ولما حاسيب لأولادى حاجة بإسمى حايورثوها.. لكن عند فاطمة مجهودى ماكانش حايفيدهم بعد موتى.

وزاد المرض على سنية وكنا نصلى أن يتولاها الله برحمته.. فالموت بالنسبة لها راحة من الآلام المبرحة.. وعندما أتت الساعة ودعناها إلى مثواها الأخير وفى قاعة العزاء بعد الظهر وقف الواعظ يلقى عظته كالمعتاد.. وأعاد نفس الكلام الذى يقال فى

هذه المناسبات والذى سمعته اثناء جنازة أبى وأمى وأخى.. ولكن اليوم كان لكل كلمة معناها العميق فقد قال:

– إننا غرباء على الارض.. ولابد أن نعمل للطعام الباقى لا للطعام الزائل.. الأرض زائلة ولكن ملكوت الله خالدا.. الجسد فانى ولكن الروح خالدة.. "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد.. بل خافوا من الذى يلقى بالجسد والروح كلاهما فى جهنم".. هناك اناس يشكون من الفقر المادى ويعتقدون أنهم ينقصهم كثيرا.. ولكن المؤمنون يعرفون جيداً أن الغنى هو غنى النفس.. غنى الروح."

هل يدرك كل إنسان أن غدا القيامة ويعمل من أجلها؟ لا أظن فأنا ارتكبت اخطاء كثير .. ونسيت المثل العليا.. ونسيت تحذير الخالق.. تحذيره عندما قال: "اذكر خالقك فى أيام شبابك" فعندما نمت هذه الليلة مر شريط طويل أمام مخيلتى.. تذكرت كل ما مر بى من ظروف وتجارب منذ مولدى.. وذات يوم كنت ذاهب مع انجيل لشراء ملابس لأولاد اختى سنية لأن أبيهم كان مشغول عنهم طوال فترة مرضها.. وتوقفت بالسيارة فى جانب الشارع وتركت "عبير" مع هانى ابن سنية ودخلت المحل مع انجيل وبنت سنية.. وبعد خمس دقائق.. أتى هانى إلى المحل مسرعا وسألنى:

– أنت عايزنى فى ايه يا أنكل؟

فاندهشت لأننى لم ارسل له خصوصا ان عبير كانت نائمة بالسيارة ولا يعقل أن أستدعيه ويترك عبير نائمة وحدها فى السيارة.. فرجعت مهرولا إلى السيارة وجرت خلفى انجيل.. فلم نجد عبير بالسيارة.. وسألنا بعض الناس القريبين إن كانوا قد رأوا احدا يأخذ الطفلة من السيارة.. ولكننا لم نستدل على شئ وإنهارت انجيل وأُغمى عليها.. وأحسست أنا كأنى تائه.. وغير قادر على التفكير وتجمع الناس وهم مندهشين وغير مصدقين ان فى شارع جزيرة بدران فى شبرا يحدث اختطاف لطفلة.. وسألنى أحد الواقفين.. إن كنت أريد بوليس النجدة فأومأت برأسى ودخلت إلى كرسى القيادة بالسيارة لأن قدمى لاتستطيع أن تحملنى وسندت رأسى على عجلة القيادة.. وانهرت وأخذت الدموع تنهمر من عينى..

وأتى بوليس النجدة وحاول الضابط أن يعرف أى معلومات من الناس الذين تجمعوا حولنا.. واصطحبوني إلى قسم روض الفرج واستكملوا المحضر.. ووعدوا بعمل اللازم لسرعة إحضار طفلتي.. وأن المباحث ستبحث عن الجناة الذين لهم نشاط في اختطاف الاولاد.. وبصعوبة قدت سيارتى إلى منزلي.. وبصعوبة سندت انجيل وصعدنا السلم إلى شقتنا.. ماذا سيستفيد المجرمون باختطاف طفلة لم تتعدى ثماني اشهر؟ نحن نعيش في قلب العاصمة والمجرمون لا يعرفون شيئا عنى أى انهم لم يختطفوا الطفل كرهينة مثلما يحدث في الريف وعلى وجه الخصوص في ريف الصعيد.. وقامت الشرطة بوضع تليفوني تحت المراقبة متوقعين ان يتصل بي المجرم ويطلب الفدية مقابل اعادة طفلتي.. ووضع البوليس عدة كمائن بالقرب من منزلي فربما ارسل المجرم أحد يساومني.. ومرت أربعة أيام وكأنها الدهل ونحن في حالة انهيار تام وبلا أكل ولا نوم.. بل وعاجزين عن التفكير.. وحضر أصدقائي وجيراني ولا يعرفون كيف سيقدمون المساعدة لي فأقترح سيد حسانين أن أعمل نشرة في الجرائد وأقترح أخر أن ارسل للتليفزيون صورتها وتنزل ضمن عنوان مفقودون أو متغيبون عن المنزل.. ولكن هذا غير منطقي.. فنحن أمام جريمة .. وحضر ضابط المباحث المكلف بهذا الموضوع وطلب منى طبع مئات الصور على ورقة كبيرة ومكتوب فيها بيانات برقم التليفون ورقم المنزل ومكافأة سخية لمن يدلي بمعلومات تساعد على الحصول على "عبير" وحددنا بأنها حوالي عشرة أشهر.. ولصقنا هذه الاوراق على كل وسائل النقل تقريبا في القاهرة وفي كل وسائل النقل بين القاهرة والمدن المختلفة.. وقامت الجرائد مشكورة بالتنويه في صفحات الحوادث عن اختطاف طفلة وأظهرت صورة عبير بوضوح.. وكانت هذه القصة – قصة اختطاف طفلة – موضوع الساعة في المجتمع وبدأ الناس يمسكون اطفالهم بايديهم .. بل لم يرسلوا اطفالهم الصغار للمدارس بمفردهم.. وعمت حالة من الذعر بين الاهالي .. ولم أخرج لمكتبي الا فترة قصيرة اطمئن على متابعة المحامين الذين يعملون معي.. وأطمئن بأنهم حضروا الجلسات

المطلوبة منهم.. وبدأ اليأس يسيطر على وقلت "فلتكن ارادة الله".. ولكنى لم أفقد الأمل تماما.. وكلما سمعنا عن وجود طفلة بجوار أحد الملاجئ كنا نجرى لنرى إذا ما كان المجرم قد ترك "عبير" هناك ونرجع بخفى حنين.. فالأطفال الذين وجدوهم كانوا حديثى الولادة.. أرادت أن تتخلص منه فتاة حملت سفاحا.. أو حوادث مشابهة.. إن هناك قصصا يندى لها الجبين سمعناها من المشرفين على الملاجئ فهناك كثير من الضحايا من الرضع ومن الاطفال الذين تخلى عنهم أحد الأبوين سواء الأم أو الأب فهناك أمهات لا تريدن أن يعوقهن وجود طفل فى التزوج مرة أخرى فيودعون الطفل فى الملجأ ونفس الشئ بالنسبة للآباء.. وتجدد أملنا فى إحتمال إرجاع عبير عندما قبض جنديا على إحدى النسوة فى القصر العينى كانت قد غافلت إحدى الامهات وأخذت الطفل وهربت ورآها الجندى وأمسكها.. وتجمع الناس ووصلت الأم وهى تصرخ على فقدان طفلها وتنفست الصعداء عندما امسكت طفلتها بين ذراعيها.. وفى التحقيق إتضح أن هذه السيدة خطفت الطفلة لأنها حرمت من نعمة الإنجاب.. وكانت تريد أن تحس بأمومتها.. فقلنا ربما يكون قد حدث ذلك.. وبسؤال هانى إبن أختى عما حدث وقت اختطاف عبير قال ان رجلا يرتدى جلبابا أتى اليه.. وقال تعال كلم البيه فى الدكان هناك وسار معه إلى أن دخلت الدكان واختفى ولم أره .. إذن هناك أكثر من مجرم.. لأن الرجل قد خدع هانى لكى يحضر إلى المحل وفى نفس الوقت كان هناك آخر – رجلا أو سيدة – تخطف عبير وتختفى.

كل هذه التخمينات لافائدة لها لأننى لا أشك فى شخص بعينه ولا أستطيع أن أستنبط شيئا مما حكاه هانى فما الفرق بين مجرم واحد أو أكثر من مجرم.. أين الأمان مع وجود اللصوص بيننا والقتلة بيننا والبلطجية بيننا.. ما الذى جعل عدد المجرمين يزداد؟ هل هو الفقر أم الرغبة فى الحصول على نقود المخدرات أو الرغبة فى الحصول على نقود لأى سبب؟ الفقر وحده لا يمكن أن يكون سببا وراء حوادث الانحرافات فهناك الكثيرون من الفقراء وقانعين بحياتهم ويخافون الله.. إنهم يخافون من يوم البعث ويوم الدين.. يوم يقفوا أمام الديان الأعظم.. إن

الإنحراف استعداد شخصى تحفزه أو تدفع اليه عوامل اخرى.. وأخذت أتناقش مع كل المعارف ومع الضباط الذين تعاملت معهم فى مناسبات مختلفة عن كيفية الوصول إلى المجرمين فاشار على احدهم أن أستدر عطف الناس المختطفين بتوجيه نداء إنسانى إلى من يجد الطفلة أن يتكرم باعادتها لأهلها لانها مريضة.. وحياتها مهددة اذا أصيبت بأى مرض يطول علاجه.. وطبعت منشورات أخرى وعليها صورة عبير بوضوح وكتبت وصف للفستان الذى كانت ترتديه.. وبعد اثنين وثمانون يوما رن جرس تليفونى وكان المتحدث ضابط المباحث المكلف بهذه القضية.. وطلب منى الحضور فورا للسفر إلى السويس حيث وجدوها هناك.. وأنها فى رعاية الضابط هناك.. وذلك من أجل التعرف عليها.. وذهبت بسيارتى بسرعة وأنا متلهف للسفر فنظر إلى الضابط .. وهز رأسه وقال :

– نؤجر عربية احسن يا استاذ سعيد.. غلط انك تسوق عربيتك وإنت مضطرب.

– صحيح لقيتوها.. وألا مسألة تخمين؟

– إن شاء الله تكون هى .. دى واحدة ست هى اللى راحت القسم وقالت أنها اشترت البنت دى من حوالى شهرين ونص.

وعندما وصلت إلى قسم البوليس بالسويس ودخلنا وأخذنا الضابط إلى منزله حيث كانت "عبير" فى رعاية زوجته وتأكدنا أنها "عبير " حدثت لنا فرحة وتصرفات هسترية وبكيت أنا وأنجيل من فرط الفرحة.. واخبرنا ضابط البوليس بالتفاصيل التى أدلت بها السيدة.. فإن هذه السيدة عاقر وكانت تتمنى ان تتبنى طفلا.. وعرفت ذلك جارتها التى تسكن فى غرفة على السطوح.. وفى اليوم الذى تم فيه اختطاف عبير لم يكن يخطر ببالهم أن احدا ممكن ان يعرف عن هذه الطفلة شيئا خصوصا ان قريبتهم التى تسكن فى الحجرة فى السويس هى التى اخبرتهم وطلبت منهم أن يأخذوا أى طفل من أى ملجأ بمصر ويبيعوه للسيدة التى كانت مستعدة لدفع خمسة الاف جنيه لمن يساعدها على الحصول على طفل أو طفلة.. وتم الاختطاف والبيع على أنها ابنة أخته التى توفيت وخير للطفلة أن

تتربى فـى حب وعز ورعايـة سيدة تتلهف علـى تربيـة طفلـة أفضـل من معيشـتها مـع زوجــة أب سـيحضرها أبوهـا بـدون شـك.. وصدقـت السـيدة هــذه القصـــة وكـــانت سـعيدة جداً ولـولا أنهـا قـرأت المنشـور المكتـوب علـى الأتوبيـس القـادم مـن القـاهرة إلـى السـويس لمـا عرفـت بالحقيقـة.

واحتضنـت الرائـد مصطفـى وقبلتـه والدمـوع لا تـزال تنهمـر مـن عينـى فـإننى كنت قد فقدت الأمـل فـى عـودة عبير إلـى أحضـانى وقلت للرائد مصطفـى:

– أنـت فخـر للشـباب ولأبنـاء مصـر .. أنـت بتمثـل الأمـن والأمـان لينـا.. ربنـا يحميك ويصونـك زى مـأنت بتحمينـا وتصونـا.

– أنـا عملـت الواجـب اللـى علـى.. وأنـا بـأبقى فـى قمـة السـعادة لمـا بأشـوف الابتسـامه علـى وجـوه النـاس.. السـعادة والفرحـة بتنعكس علـى أنـا.

–ربنـا يعوضـك عن تعلبـك يـا كـابتن مصطفـى.. وربنـا يرزقـك بـاولاد الحـلال يسهلوا لـك طريقك دائمـا.

– فيه حاجـه مهمـه تانيـة

– ايـه هـى ؟

– السيده الفاضلـة صاحبـة الضمير الحـى.. اللـى عرفـت حقيقـة موضـوع عبـير.. وهـى اللـى راحـت للقسـم .. وابلغتهـم بوجـود عبـير عندهـا.. دليـل الإنسـانية والأخـلاق جواهـا.

– الحمـد للـه إن مصـر لازالـت بخـير.. فـاللصوص والمنحرفيـن موجوديـن فـى كـل المجتمعـات .. لكـن المهـم عندنـا إن أبنـاء مصـر مـن حمـاة الأمـن يقظيـن ونشـطين ومخلصيـن

– الحمـد للـه إننـا إتربينـا علـى الأخـلاق.. ويكفينـى إنـى أحـس براحـة البـال بـاننى تممت بواجبـى.. وربنـا وفقنـى فـى عملـى.

وعدنـا لمنزلنـا شـبه مذهوليـن.. وأخـذ الشـريط الطويـل الخـاص بـأحداث الأثنـى وثمـانون يومـا المليئـة باليـأس والمعانـاة والضيـق ولكـن تخللهـم ومضـات الأمـل

ومشاركة الناس لنا فى محنتنا بمشاعرهم الطيبة ومحاولتهم بالمساعدة .. وتذكرت بعض كلمات رددتها وفاء وهى تواسينا فقد قالت:

– أنا عشت يتيمة الأب رغم وجود الأب ووجود الأم أحياء.. وربنا عوضنى بعد كده بزوج طيب عوضنى عن كل سنوات الحرمان.

وتذكرت كلمات أنجيل وهى تبكى وتقول:

– مش كفاية خمس سنين عذاب بسبب إنسان بلا ضمير .. كمان حأعيش فى عذاب تانى عشان مجرم حرمنى من بنتى؟

وتذكرت كلمات صموئيل وهى يواسينى:

– صدقنى يا سعيد .. إن الصلوات بتعمل المعجزات.. وماتيأسى واستمر فى صلواتك .. ربنا حايستجيب لتوسلاتك

وتذكرت كلمات وداد :

– أنت مؤمن والمؤمن لازم يكون أمله فى ربنا كبير

لقد صممت ان اقف مع المظلومين وأن احارب المنحرفين بكل ما استطيع وان أضع يدى فى يد كل من يعمل من أجل مصر ومن أجل اولادنا.. وان نسعى جميعا لعلاج الشروخ المختلفة حتى نسعد ببنيان قوى.. ولأننى لازلت أعيش فى فترة جديدة تحدث فيها متغيرات كل يوم ولم تكتب كتب كافية عن الفترة مثلما حدث فيما كتبت عن فترة النكسة وحرب التحرير وإغتيال السادات لقد ظهرت ملامح العصر كلها منذ قيام الثورة وحتى النكسة وأمكننا أن نكتب دراسة قريبة من الحقيقة وأقول قريبة من الحقيقة لانه هناك دائما خفايا لا يعرفها أفراد الشعب بل تظهر فى بعض القضايا العامة وفى بعض الكتب التى تتناول وجهة نظر معينة والكتب التى ترد عليها.. ورغم وجود قصور وسلبيات فى كل فترة إلا أننا لا نستطيع أن ننكر بأن لكل فترة ظروفها والروءية تختلف من شخص لآخر.. والآن هناك اتجاه قوى لحل مشاكل الماضى وهناك اصرار من جانب رجال الأعمال الحقيقيين فى المساهمة فى بناء إقتصاد مصر.. وإننى استخدم كلمة رجال الأعمال الحقيقيين لأنهم يقدمون لمصر مشروعات إنتاجية

تفيدها وتفتح فرص عمل لابنائها أما باشوات الانفتاح الذين طفوا على السطح بطرق ملتوية فهؤلاء ليسوا رجال أعمال بل ربما يكونوا قد اضروا بالاقتصاد لأن نقودهم غير نظيفة ولم تدور فى عجلة الإقتصاد.. ورغم تأخر خطابات التعيين من القوى العاملة فالشباب لم يهتم لأنه بدأ يشق طريقه بنفسه فى القطاع الخاص وفى المشروعات الصغيرة والتى تساعدهم فيها هيئات حكومية تعمل لمساعدتهم..

وتلقيت رسالة عزيزة إلى قلبى لأنها من سليم.. وسليم هو مثال الشاب المتفتح الذى يحب وطنه حبا عميقا راسخا يدل على الانتماء القوى وهو صورة للأمل فى مستقبل مشرق لأنه يدرك الاخطار المحدقة بوطننا.. وهو نفسه قد دخل المعتقل لأنه تحدث بصراحة وعبر عما يجيش فى صدرة وتصدى للفكر المنحرف لأنه تلقى الدين الصحيح على يد مشايخ أفاضل مثقفين وغير متزمتين. لقد نبه فى كل المقالات التى كتبها بأن هناك أخطار خارجية تهدد بلا دنا وأولها اللوبى الخطير الذى يريد أن يسيطر على العالم كله. ثم يأتى بعد ذلك خطورة الإنقاسامات العربية فى إيجاد جهة ضعيقة فى مواجهة هذا الوحش ويلى ذلك السلبيات ونمو الحشرات السامة فى الداخل وهى الخطر الداخلى الكبير وها هو الجزء الهام من خطابه:

"وإليك يا صديقى العزيز المسميات الجديدة لباشاوات القرن الحادى والعشرون.. "استقطاعى باشا" "وخرمانجى باشا" و"بلطجى باشا" و"زلنطحى باشا" وسنقربك السلكاوى ونعيم افندى المطيباتى وفيفى هانم السلحدار و هى جلابة الهوى وجامعة الثروة الوطينة فى جيبها الخاص تحت سمع بل وفى حماية "قواد باشا النزيه" وكما تلاحظ يا صديقى فكلهم من اسرة "زيط ومعيط ونطاط الحيط"

"أما عن شبابنا المظلومين ومعظمهم ضحايا أخطاء لم يتركبوها فاننا نجد القله تتحمل عبء العمل الجاد والمثابرة والتمسك بالامل فى غد مشرق.. ولكن للأسف هرب الكثيرون من الميدان: بعضهم هربوا إلى الغيبيات وهؤلاء اصبحوا ضحايا الارهاب بل يمكن ان نطلق عليهم أدوات الارهاب للتحطيم والتخريب

وبعضهم هربوا إلى المخدرات وبعضهم هربوا من الروابط الاسرية بل ومن روابط القيم والأخلاق وانشغلوا بالملذات والماديات على حساب الروحانيات.. وهؤلاء أصبحوا أدوات امبراطورية القوة التى تحقق أهدافها بالعنف أيضا حتى أصبح العنف لغة العصر"

ولكنه إختتم خطابه بالامل فى الغد المشرق عندما نقوم بثورة اجتماعية عارمة ضد الحشرات الاجتماعية السامة وعندما نعيد لشبابنا التوازن لكى يتفرغوا للبناء بدلا من الهروب والدمار"

وحضر الاستاذ ميخائيل يهنئ على عودة عبير سالمة وتحدثنا عن المتغيرات التى حدثت فى البلاد. وعندما تحدثنا عن الأفكار المنحرفة التى تضر بمجتمعنا تذكرت مارسيل التى تطلق على نفسها الآن "سونيا" فطلبت من الاستاذ ميخائيل أن نذهب سوياً لزيارتها .. ولم تفهم معنى الزيارة ولكنها استقبلتنا بترحاب وقدمت لنا مشروبات الضيافة ثم نظرت اليها وسألتها:

– سمعتى عن الطفلة الرضيع اللى اتخطفت؟

– أيوه سمعت .. مساكين أهلها وتلاقيهم بيتعذبوا

– فعلا اتعذبوا . والمجرمين ما فكروش فى العذاب إلى سببوه لأهل الطفلة البريئة.. كان همهم هو الحصول على خمسة آلاف جنيه دون اعتبار للأحاسيس الانسانية

– ربنا ينتقم منهم.. ربنا ينتقم من كل المجرمين

– وقال لها الاستاذ ميخائيل عن عودة عبير فظهرت الفرحة على وجهها وقالت لى:

– بقى إنت كنت الأب المسكين؟ أشكر ربنا إن إبنتك رجعتلك

– متشكر ونفس ان بنتنا الكبيرة ترجعلنا كمان

– هو فيه ليكم بنت كبيرة كمان؟

– أيوه.. بس اتخطفت بخطة شيطانية .. وأملى إنها ترجع لحظرتنا تانى .. وتبعد عن دنيا الغدر والخداع

– ربنا يوفقكم هو فيه أحسن من دفء الاسرة؟

– يعنى أنت متفقه معانا إن دفء الاسرة مهم؟

– مهم جدا جدا.

– طب إيه اللى يمنعك من الرجوع لدفء الاسره يا مدام مارسيل..وآن الآوان إنك تتخلى عن الضحية "سونيا"

(فاغرورقت عيناها وردت ببطء والكلمات لا تكاد تخرج من شفتيها)

– هى فين الاسرة إلى حاترضى بمارسيل بعدما مرمغتها سوينا فى الوحل؟

فرد الاستاذ ميخائيل؟

إحنا أسرتك وحانسيبك الفترة اللى تحدديها واللى تقدرى فيها انك تخلصى تماما من جو سوينا وأول ما تقتنعى حاتلاقى الكل فاتحينلك درعاتهم وحاياخدوكى بالاحضان.

تمـــت

وإلى اللقاء فى "المواجهة"

